أتم الطالب الإصلاحات المطلوبة من اللجنة

أعضاء لجنة المناقشة : الطالب خالد القرشي

جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
الدراسات العليا
قسم الكتاب والسنة

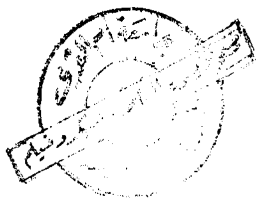
تربية النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه
فى الكتاب والسنة

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير

اعداد الطالب
خالد بن عبد الله القرشى

اشراف :
د. عبد المجيد محمود

المجلد الأول
١٤١٣هـ/١٩٩٣م





بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، وبعد : فعنوان الرسالة هو : "تربية النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه في الكتاب والسنة"

أولا : سبب اختيار الموضوع : أن العمل قرين العلم ، وحقيقة العلم هي معرفة ماجاء في الكتاب والسنة بالطرق الصحيحة ، فلابد من دراسة منهج النبي صلى الله عليه وسلم في توجيه أصحابه .

ثانيا : منهجي في البحث : قمت باستعراض كتب الحديث وخاصة الستة وشروحها ، وكتب السيرة النبوية ، وكتب التفسير ، وجعلتها مراجع لموضوعات البحث ، ثم قمت بتصنيف المادة العلمية ، ثم بصياغتها وترتيبها على حسب التسلسل الموضوعي في الرسالة ، ثم عزوت الآيات الى سورها ، وخرجت الأحاديث والآثار ، ووثقت النقول المقتبسة الى مراجعها ، وشرحت الغريب من الألفاظ الغامضة ، وترجمت للأعلام غير المشهورين .

ثالثا : محتويات الرسالة : واحتوت الرسالة على مقدمة في أهمية الموضوع وأسباب اختياره ، وجعلت الباب الأول في مراتب تعليمه صلى الله عليه وسلم لأصحابه وتربيته لهم . وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : تربيته صلى الله عليه وسلم لهم على العقيدة ، الفصل الثاني : تربيته صلى الله عليه وسلم لهم على العلم والعمل معا ، الفصل الثالث : تربيته صلى الله عليه وسلم لهم على تعليم العلم ونشر الدعوة .

الباب الثاني : في وسائله صلى الله عليه وسلم في تربيته لأصحابه . وفيه أربعة فصول :

الفصل الأول : التربية بالقدوة ، الفصل الثاني : التربية بالترغيب والترهيب ، الفصل الثالث : التربية بالقصة ، الفصل الرابع : التربية بالأحداث .

الباب الثالث : في شمولية منهجه صلى الله عليه وسلم في تربيته لأصحابه . وفيه توطئة وثلاثة فصول :

التوطئة : في المقصود من الشمول والمنهج ، الفصل الأول : منهجه صلى الله عليه وسلم في تزكية النفس ، الفصل الثاني : منهجه صلى الله عليه وسلم في حفظ الجسم وتربية العقل ، الفصل الثالث : منهجه صلى الله عليه وسلم في تربية أصحابه على الحكمة ومعالجة الأمور واتخاذ المواقف .

رابعا : أهم النتائج : ان من أبرز معاني التربية التهذيب والرفع والسمو والترقية والتزكية للروح والعقل والجسم مع الاستمرار في تصحيح الاعتقاد ذلك لأن الدعوة إليه مستمرة دائما إما تأسيسا وإما تأكيدا ، وأن أول واجب على المكلف معرفته هو التوحيد ، وأن قضية اثبات وجود الله لم تكن محل نزاع بين الرسول وقومه وانما كان النزاع في تعدد الآلهة ، وأخذ التشريع من دون الله ، وأن التوازن في العلم والعمل سمة بارزة من سمات هذا الدين ، وأن القدوة من أعظم وسائل التربية ، وأن الحكمة في الدعوة وفي التربية هي معرفة الحق والعمل به على الوجه الشرعي .

وصلى الله وسلم على عبده ورسوله .

الطالب	المشرف	عميد كلية الدعوة
خالدعبد الله القرشي	د.عبد المجيد محمود	د.علي ابن نفيع العلياني

قال الله تعالى :

{فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين} .

(سورة آل عمران : آية ١٥٩)

وقال سبحانه :

{هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا . محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما} .

(سورة الفتح : آية ٢٨،٢٩)

شكـــر وتقديـــر

الحمد لله على احسانه والشكر له على توفيقه وامتنانه وأشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له تعظيما لشأنه ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الداعى الى رضوانه ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ، ومن تبع سبيلهم واقتفى أثرهم الى يوم الدين وبعد : فانه مما يسعدنى أن أذكر لأهل الفضل والاحسان فضلهم واحسانهم ، عملا بقول المربى العظيم رسولنا وقدوتنا صلى الله عليه وسلم : "لايشكر الله من لايشكر الناس" (١) .

فأتقدم بالشكر الجزيل لفضيلة الشيخ الدكتور محمد الخضر الناجى ، الذى كان مشرفا على هذه الرسالة ، وقد أفدت من علمه وفضله ، فجزاه الله عنى خير الجزاء .

ثم أتقدم أيضا بالشكر الجزيل لفضيلة أستاذى وشيخى الدكتور عبد المجيد محمود ، لقاء ماكابده فى سبيل هذه الأطروحة المتواضعة ، ومابذله من وقت ثمين فى قراءتها وتصويبها مع مالمسته فيه من حسن الخلق ، وطيب النفس ، وبشاشة الوجه ، وسعة الصدر .

فأسأل الله العظيم أن يبارك له فى صحته وولده وماله وأن يسكنه فسيح جناته ، وأن يجزيه عنى خير الجزاء .

ثم أقدم شكرى وتقديرى الى كل من منحنى من وقته وأفادنى من علمه ، فأخص منهم بالذكر الشيخين الفاضلين ، شيخى وأستاذى الأستاذ/محمد قطب ابراهيم ، وشيخى وأستاذى الدكتور/عابد بن محمد السفيانى . فلم يبخلا على بالوقت ، ولابالتوجيه والارشاد والنصح والتشجيع .

كما أتقدم بالشكر والتقدير لكافة القائمين على كلية الدعوة وأصول الدين ، وأخص بالشكر عميدها الفاضل الدكتور على بن نفيع العليانى .

والحمد لله رب العالمين ، وماتوفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده ٢١٢/٥ من حديث الأشعث بن قيس رضى الله عنه ، وقال الهيثمى رجاله ثقات ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ١٨٠/٨ . ورواه أبو داود فى كتاب الأدب باب فى شكر المعروف ٢٥٥/٤ ، والترمذى فى كتاب البر والصلة ، باب ماجاء فى الشكر لمن أحسن اليك ٣٣٩/٤ .

المقدمة

المقدمة

ان الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا .

وأشهد أن لااله الا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وصفيه وخليله وخيرته من خلقه .

قال الله تعالى : {ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن الا وأنتم مسلمون} (١) .

{ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيبا} (٢) .

{ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما} (٣) .

أما بعد : فان من الموضوعات المهمة التى ينبغى أن تبذل فيها الجهود ، وتنفق فيها الأوقات : التعرف على طريقة النبى صلى الله عليه وسلم فى تربية وتعليم أصحابه رضوان الله تعالى عليهم ، ومعرفة منهجه فى ذلك من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم القولية والعملية ،

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٠٢
(٢) سورة النساء : آية ١
(٣) سورة الأحزاب : آية ٧٠، ٧١

ومن الآثار السلوكية للأصحاب التى هى نتاج تلك التربية النبوية المباركة .

ولما كان من المتعين على بعد أن انتهيت من السنة المنهجية من الدراسات العليا لقسم الكتاب والسنة ، أن أقدم بحثا فى أحد موضوعاته ، استقر بى الأمر على اختيار موضوع من موضوعات الكتاب والسنة ، ألا وهو : "التربية النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه فى الكتاب والسنة " .

وكان من أهم أسباب اختيارى لهذا الموضوع مايلى :

أولا : أن العمل قرين العلم ، وحقيقة العلم هى معرفة ماجاء فى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم بالطرق الصحيحة ، وتأتى التربية على هذا العلم لتثبته وتقويه ، فالاهتمام بهذا الموضوع يجب أن يكون نصب أعيننا ، لأن له أثرا كبيرا فى حياتنا .

ثانيا : لقد اختلفت مصادر الناس فى استمداد مناهجهم التربوية ، واختلفت تبعا لذلك طرائقهم ، وكثرت الأخطاء والسلبيات فيها وكان من اللازم دراسة منهج النبى صلى الله عليه وسلم فى توجيهه لأصحابه رضوان الله عليهم ، لأن هذا المنهج كما هو معلوم قد أخرج خير أمة أخرجت للناس ، لذلك فلابد من معرفة مميزاته من خلال دراسة نصوص الكتاب والسنة والسيرة النبوية المتضمنة لهذا الموضوع .

ثالثا : ان هناك أخطاء تربوية انتشرت فى داخل الأمة الاسلامية بسبب المناهج التربوية المختلفة ومازالت آثارها السلبية مستمرة ، فأصبح الرجوع الى طريقة النبى صلى الله عليه وسلم فى تربية أصحابه ضروريا لمعالجة هذه الأخطاء والسلبيات .

رابعا : ان هذا الموضوع مع ماكتب فيه من بحوث عامة فيها فوائد كثيرة الا أنه مازال فى حاجة الى زيادة بيان وتفصيل من حيث تتبع نصوص الكتاب والسنة فى هذا المجال وايراد فهم السلف الصالح رضوان الله عليهم فى ذلك مع مناقشة مايحتاج الى مناقشة فى كل موضوع بحسبه .

هذا وقد اشتملت الرسالة على مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة أبواب ، وخاتمة .

أما المقدمة : ففى أهمية الموضوع وأسباب اختياره .

وأما التمهيد : ففى مفهوم التربية وعلاقتها بالتعليم .

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : معنى التربية .

المطلب الثاني : الفرق بين التربية والتعليم .

المطلب الثالث : بعض الوسائل التعليمية التربوية التى استخدمها الرسول صلى الله عليه وسلم فى تربية أصحابه رضوان الله عليهم . ويشتمل على خمسة أمور وهى :

أولا : عن طريق اثارة الانتباه ، وتحريك حب الاستطلاع .

ثانيا : عن طريق المحاورة الهادئة .

ثالثا : تخوله صلى الله عليه وسلم لأصحابه فى الموعظة خوفا عليهم من السآمة والملل .

رابعا : الرفق والحلم فى تعليم الجاهل .

خامسا : حرص النبى صلى الله عليه وسلم على مراعاة أحوال المكلفين .

وأما الباب الأول : فى مراتب تعليمه صلى الله عليه وسلم لأصحابه وتربيته لهم .

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : تربيته صلى الله عليه وسلم لهم على العقيدة . ويشمل أربعة مباحث :

المبحث الأول : البدء بالاعتقاد وأهميته والأدلة على ذلك .

المبحث الثاني : تأسيس الاعتقاد .

المبحث الثالث : حماية الاعتقاد .

المبحث الرابع : نماذج من رجال العقيدة .

الفصل الثاني : تربيته صلى الله عليه وسلم لهم على العلم والعمل معا . ويشمل ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : اقتضاء العلم العمل .

المبحث الثاني : التوازن فيهما .

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : التوازن فى العلم .

المطلب الثاني : التوازن فى العمل .

المبحث الثالث : المداومة على العمل الصالح .

الفصل الثالث : تربية النبى صلى الله عليه وسلم لهم على تعليم العلم ونشر الدعوة .

ويشمل مبحثين :

المبحث الأول : تربية النبى صلى الله عليه وسلم لهم على تعليم العلم .

المبحث الثاني : تربية النبى صلى الله عليه وسلم لهم على نشر الدعوة .

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : تربيته صلى الله عليه وسلم لهم على بذل النصيحة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

المطلب الثاني : اختيار النبي صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه لنشر الدعوة وتعليم الخير للناس بطريق واضح ميسر مع مراعاة التدرج في ذلك .

المطلب الثالث : تربيته صلى الله عليه وسلم أصحابه على الصبر والتضحية والثقة بالتمكين دون تعجل للنتائج .

المطلب الرابع : تكليفه صلى الله عليه وسلم لهم حسب قدراتهم ومواهبهم .

والباب الثاني : وسائله صلى الله عليه وسلم في تربيته لأصحابه . ويشتمل على توطئة وأربعة فصول وهي :

الفصل الأول : التربية بالقدوة . ويشمل ستة مباحث :

المبحث الأول : وضوح شخصيته صلى الله عليه وسلم .

المبحث الثاني : عبادته وخشيته صلى الله عليه وسلم .

المبحث الثالث : تواضعه وحلمه وعفوه صلى الله عليه وسلم .

المبحث الرابع : جوده وكرمه صلى الله عليه وسلم .

المبحث الخامس : قوته وشجاعته صلى الله عليه وسلم .

المبحث السادس : ثباته صلى الله عليه وسلم على مبدئه ودعوته .

الفصل الثاني : التربية بالترغيب والترهيب . ويشمل ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : أهمية الترغيب والترهيب .

المبحث الثاني : نماذج من الترغيب وأثره في نفوس الصحابة .

المبحث الثالث : نماذج من الترهيب وأثره في نفوس الصحابة .

الفصل الثاني : منهجه صلى الله عليه وسلم في حفظ الجسم وتربية العقل . ويشمل مبحثين :

المبحث الأول : منهجه صلى الله عليه وسلم في تربية أصحابه على حفظ الجسم . وفيه مطلبان :

المطلب الأول : أهمية حفظ الجسم في التربية النبوية .

المطلب الثاني : الطرق التي استخدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم في تربية أصحابه على حفظ أجسامهم .

ويشتمل على خمسة طرق وهي :

الطريقة الأولى : عن طريق التغذية المتكاملة والمتوازنة .

الطريقة الثانية : من طريق نظافة الجسم .

الطريقة الثالثة : عن طريق الرياضة البدنية .

الطريقة الرابعة : عن طريق الوقاية .

الطريقة الخامسة : عن طريق العلاج الطبي .

المبحث الثاني : منهجه صلى الله عليه وسلم في تربية العقل . وفيه مطلبان :

المطلب الأول : تعريف العقل وأهميته في الاسلام .

المطلب الثاني : الطرق التي استخدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم في تربية العقل مع أصحابه .

ويشتمل على ثلاثة طرق وهي :

الطريقة الأولى : عن طريق تحديد المنهج الصحيح للنظر العقلي .

الطريقة الثانية : عن طريق تحديد المجالات التي أمر الله العقل بالتفكر فيها .

الطريقة الثالثة : عن طريق تحديد المجالات التى منع الله العقل من التفكر فيها وأمره بالتسليم المطلق بها .

الفصل الثالث : منهجه صلى الله عليه وسلم فى تربيته أصحابه على الحكمة فى معالجة الأمور واتخاذ المواقف .

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : معنى الحكمة وأهميتها فى التربية النبوية . وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : معنى الحكمة فى اللغة .

المطلب الثاني : معنى الحكمة فى الاصطلاح الشرعى .

المطلب الثالث : أهمية الحكمة فى التربية النبوية .

المبحث الثاني : نماذج لبعض مواقف النبى صلى الله عليه وسلم التى تدل على الحكمة .

ويشتمل على ثلاثة مواقف :

الموقف الأول : موقفه صلى الله عليه وسلم مع زعيم المنافقين عبد الله بن أبى .

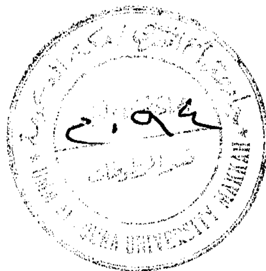
الموقف الثانى : موقفه صلى الله عليه وسلم مع الشاب الذى جاء يستأذنه فى الزنا .

الموقف الثالث : موقفه صلى الله عليه وسلم مع اليهودى زيد بن سعنة .

المبحث الثالث : نماذج لبعض مواقف الصحابة رضوان الله عليهم التى تدل على الحكمة .

ويشتمل على ثلاثة مواقف :

الموقف الأول : موقف أبى بكر الصديق رضى الله عنه عقب وفاة النبى صلى الله عليه وسلم .



الموقف الثانى : موقف عمر بن الخطاب رضى الله عنه من عيينة بن حصن .

الموقف الثالث : موقف مصعب بن عمير رضى الله عنه فى دعوة أسيد بن حضير ، وسعد بن معاذ .

والخاتمة : فى النتائج التى توصلت اليها .

وأما منهجى فى البحث فهو كالتالى :

(١) قمت باستعراض كتب الحديث وخاصة الكتب الستة ، وشروحها ، وكتب السيرة النبوية ، وكتب التفسير ، وجعلتها مراجع لموضوعات البحث .

(٢) اطلعت على كثير مما كتب فى مجال التربية الاسلامية ، واستفدت منه فى ضوء تلك المصادر السابقة .

(٣) قمت بفرز وترتيب المادة العلمية التى جمعتها من الكتب السابقة على حسب خطتى فى البحث ، فجعلت مايخص كل موضوع من موضوعات البحث على حده ، ثم قمت بصياغة وترتيب تلك الموضوعات على حسب التسلسل الموضوعى فى البحث .

(٤) عزوت الآيات الى سورها وذكرت أرقامها .

(٥) خرجت الأحاديث بذكر اسم الكتاب والباب والجزء والصفحة

(٦) وثقت النقول المقتبسة ، وذلك بذكر اسم الكتاب والجزء والصفحة .

(٧) شرحت الغريب من الألفاظ والكلمات التى تحتاج الى توضيح .

(٨) ترجمت للأعلام غير المشهورين .

(٩) جعلت علامات الترقيم كالتالى :

(أ) القوسان المركنان { } للدلالة على النصوص القرآنية .

(ب) الشولتان المزدوجتان " " للدلالة على نصوص الحديث والآثار ، والفقرات المقتبسة من كلام أهل العلم .

(ج) الهلالان ( ) للدلالة على زيادة داخل الاقتباس الحرفي من شرح أو توضيح أو تعليق .

(١٠) فهرست للآيات القرآنية الكريمة مرتبة حسب ترتيبها في القرآن الكريم مشيرا الى رقم الصفحة التي ورد فيها ذكر الآية .

(١١) فهرست لأطراف الحديث والآثار مرتبة على حروف الهجاء مشيرا الى رقم الصفحة التي ورد فيها ذكر طرف الحديث.

(١٢) فهرست للأعلام المترجم لهم مرتبة على حروف الهجاء .

(١٣) فهرست للمراجع على حسب اسم المؤلف أو ما اشتهر به مرتبا ذلك على حسب حروف الهجاء .

(١٤) فهرست للموضوعات حسب تسلسلها في البحث .

هذا وحسبي أني قد بذلت مافي وسعي ، فان أصبت فهذا الذي أبغي وأحمد الله تعالى على ذلك . وان كانت الثانية ، فان الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم بريئان منها ، لأنها مني ومن ضعفي وتقصيري ، ولا أستغني عن معونة الله تعالى ثم مشورة أهل العلم ورأيهم السديد .

وأخيرا ، أسأل الله الكريم المنان أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن ينفع به النفع العميم انه جواد كريم .

{إن أريد الا الاصلاح ما استطعت وماتوفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب} . (سورة هود : آية ٨٨)

التمهيد

في مفهوم التربية وعلاقتها بالتعليم

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : معنى التربية .

المطلب الثاني : الفرق بين التربية والتعليم .

المطلب الثالث : بعض الوسائل التعليمية التربوية التي استخدمها الرسول صلى الله عليه وسلم في تربية أصحابه رضوان الله عليهم .

المطلب الأول

معنى التربية

المطلب الأول : معنى التربية

التربية في اللغة معناها الازدياد والنمو ، أو التنشئة والتغذية .

"فالرب في الأصل : التربية ، وهو انشاء الشىء حالا فحالا الى حد التمام ، يقال : ربّه وربّاه ، وربّبه" (١) .

ويقال : ربّى الوالد ابنه بمعنى غذّاه وجعله ينمو ، أى حفظه ورعاه ونشأه (٢) .

والتنشئة والتغذية والرعاية ليست عملية مادية فقط مقتصرة على الطعام والشراب ، وانما هى عملية متكاملة تشمل جميع جوانب شخصية المتربّى ، روحياً وعقلياً وجسدياً .

ولذا فان من أهم معانى التربية : التهذيب ، والرفع والسمو ، والترقية والتزكية للروح والعقل والجسم (٣) .

فالتربية عملية تشكيل الشخصية السوية المتكاملة والمتزنة فى جميع جوانبها روحيا وعقليا وجسميا ، والقادرة على التكيف مع البيئة الاجتماعية التى تعيش فيها (٤) .

والتربية بالمفهوم الشرعى : هى اصلاح النفس الانسانية وتنمية جوانبها الروحية والعقلية والجسمية ، واحكام بنائها الى حد الكمال .

وذلك هو المنقول عن السلف ، قال مجاهد : الرّبّانيون هم الذين يربون الناس بصغار العلم قبل كباره ، فهم أهل الأمر والنهى .

---

(١) المفردات فى غريب القرآن للأصفهانى ص ١٨٤ ، دار القلم ط/الأولى .
(٢) انظر : لسان العرب لابن منظور ، مادة (ربب) ١/٣٩٩، ٤٠١، ٤٠٥ ، دار صادر ، بيروت .
(٣) انظر : كتاب أسس التربية الاسلامية فى السنة النبوية د. عبد الحميد الزنتانى ص ٢٣ ، الدار العربية للكتاب
(٤) انظر المرجع السابق ص ٢٥ .

ونقل عن على رضى الله عنه أنه قال : "هم الذين يغذون الناس بالحكمة ويربونهم عليها"(١) .

ولفظة "ربانيون" "عربية منسوبة الى ربان السفينة الذى ينزلها ويقوم لمصلحتها . ولكن العرب فى جاهليتهم لم يكن لهم ربانيون ، لأنهم لم يكونوا على شريعة منزلة من الله عز وجل"(٢) .

وهدف التربية فى الاسلام هو تكوين "المؤمن المتكامل الشخصية ، ذى النظرة الايجابية للحياة ، الذى قويت همته ، واشتدت عزيمته ، فلايلحقه غرور ، ولايحطمه فشل . ان وجد يسرا شكر الله تعالى وواصل طريقه ، وان وجد عسرا استعان بالله تعالى ، وصبر على المكاره ، واستمرت محاولته فى تخطى الصعاب والعراقيل التى تعترضه حتى يوفقه الله تعالى الى بلوغ آماله"(٣) .

---

(١) انظر مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ٦٢/١ ، دار العربية ، بيروت ، وانظر زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى ٤١٣/١ ، المكتب الاسلامى .
(٢) الفتاوى لشيخ الاسلام ابن تيمية ٦٣/١ .
(٣) أسس التربية الاسلامية ص ٢٩،٣٠ .

المطلب الثاني

الفرق بين التربية والتعليم

المطلب الثانى : الفرق بين التربية والتعليم

هناك فرق واضح بين عملية التربية من جهة والتعليم من جهة أخرى ، فالتعليم يمثل جزءا من التربية ، والتربية تشمل التعليم ، والعكس غير صحيح .

فالتربية هى عملية تهدف الى تنمية متكاملة ومتزنة فى نفس الوقت لجميع قوى الانسان بشتى الوسائل والأساليب المشروعة ، حتى يكون الانسان عضوا صالحا فى مجتمعه . وهى تشمل جميع جوانب الانسان الروحية والعقلية والجسمية (١) .

فالاسلام يسعى لايجاد الانسان الصالح لكى يصلح حاله على الأرض ، وينظم حياته فيها وفق منهج محدد رسمه له ، فيتحرك به على الأرض ، وهو فى نفس الوقت متجه بروحه الى الله تعالى (٢) .

أما عملية التعليم فهى جزء من عملية التربية الكاملة ، تسعى الى تنمية العقل وصقله وتمكينه من اكتساب بعض المعارف والمهارات التى تلزمه فى حياته ، وتمكينه كذلك من اتقان فن "ما" أو حرفة من الحرف (٣) .

فعملية التربية أكثر وأوسع فى الشمول والتكامل من عملية التعليم ، وذلك لأن هدف التربية تنمية جميع جوانب الانسان وصقلها .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مثل مابعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا ، فكانت منها

---

(١) انظر : أسس التربية الاسلامية فى السنة النبوية ، ص ٢٥، ٢٦ .

(٢) انظر : منهج التربية الاسلامية للأستاذ محمد قطب ، ص ٢٥، ٢٦ ، دار الشروق ، الطبعة السابعة ١٤٠٣هـ .

(٣) انظر : أسس التربية الاسلامية ص ٢٦ .

طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى انما هى قيعان لاتمسك ماء ، ولاتنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ، ونفعه مابعثنى الله به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به " (١) .

قال القرطبى وغيره :

"ضرب النبى صلى الله عليه وسلم لما جاء به من الدين مثلا بالغيث العام الذى يأتى الناس فى حال حاجتهم اليه ، وكذا كان حال الناس قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم ، فكما أن الغيث يحيى البلد الميت فكذا علوم الدين تحيى القلب الميت . ثم شبه السامعين له بالأرض المختلفة التى ينزل بها الغيث ، فمنهم العالم العامل المعلم ، فهو بمنزلة الأرض الطيبة ، شربت فانتفعت فى نفسها ، وأنبتت فنفعت غيرها . ومنهم الجامع للعلم المستغرق لزمانه فيه غير أنه لم يعمل بنوافله أو لم يتفقه فيما جمع ، لكنه أداه الى غيره ، فهو بمنزلة الأرض التى يستقر فيها الماء ، فينتفع الناس به ، وهو المشار اليه بقوله صلى الله عليه وسلم : "نضر الله امرأ سمع مقالتى فأداها كما سمعها" (٢) . ومنهم من يسمع العلم

---

(١) رواه البخارى فى ٣ ، كتاب العلم ، ٢١ باب فضل من علم وعلم ١/٣٢،٣٣ رقم الحديث ٧٩ .
ورواه مسلم فى ٤٣ ، كتاب الفضائل ، ٥ باب بيان مثل مابعث النبى صلى الله عليه وسلم من الهدى والعلم ٤/١٧٨٧ رقم الحديث ٢٢٨٢ .

(٢) رواه الترمذى فى كتاب العلم ٥/٣٣ ، وقال حديث حسن ، ورواه أبو داود فى كتاب العلم ٣/٣٢٢ ، وابن ماجه فى المقدمة ١/٨٤ ، كلهم من حديث زيد بن ثابت . كما رواه الترمذى من حديث ابن مسعود ٥/٣٣ وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وابن ماجه فى المقدمة ١/٨٥ ، ورواه ابن ماجه كذلك من حديث جبير بن مطعم فى المقدمة ١/٨٥ .

فلايحفظه ولايعمل به ، ولاينقله لغيره ، فهو بمنزلة الأرض السبخة أو الملساء التى لاتقبل الماء أو تفسده على غيرها . وانما جمع فى المثل بين الطائفتين الأوليين المحمودتين لاشتراكهما فى الانتفاع بهما ، وأفرد الطائفة الثالثة المذمومة لعدم النفع بها " (١).

فجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث بين عملية التربية وعملية التعليم . وجعل صلى الله عليه وسلم أعلى الطوائف العالم العامل المعلم لغيره ، ثم يليه فى المرتبة العالم المعلم الذى يبلغ ماسمع من الخير بلاتحريف للكلم ولا افساد للمعنى .

فامتدح صلى الله عليه وسلم هاتين الطائفتين من الناس لاشتمالهما على عملية التربية والتعليم . وذم الطائفة الثالثة التى لم يتحقق فيها شىء من ذلك .

فاذا انفصلت عملية التعليم عن العملية التربوية ، فانها تصبح مجرد تكديس وحشو للمعلومات فقط ، وعندئذ لاتنفع هذه المعلومات فى تشكيل الشخصية الانسانية السوية المتكاملة .

"فالحاجة الماسة تظهر دائما "للمربى الكامل" الذى يمكنه القيام بعمليتى التربية والتعليم معا ، فيساعد على تكوين الشخصية السوية المتكاملة ، لا المعلم الذى يقتصر دوره على تلقين الدروس والمعارف" (٢).

ولذا فان من الواجب على المؤسسات التعليمية ، وخاصة التى تعنى وتهتم بتعليم الكتاب والسنة ، ومايتعلق بهما من أحكام فقهية الى غير ذلك ، أن تهتم بالجانب التربوى الى

---

(١) فتح البارى ١٧٧/١ ، لابن حجر العسقلانى ، الطبعة السلفية .
(٢) أسس التربية الاسلامية فى السنة النبوية ص ٢٦ .

الجانب التعليمي النظري ، فتكون بذلك قد ربطت الجانب النظري البحت بالجانب التطبيقي والعملي لهذا العلم الذي عن طريقه يعبد الله تعالى .

ورغب النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه على طلب العلم وبين لهم فضل التفقه في الدين على سائر العلوم بطريقة مشوقة للنفوس ، محببة الى القلوب .

عن معاوية رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، وانما أنا قاسم والله يعطي ، ولاتزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لايضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله ".(١)

قوله : "يفقهه في الدين" معناه يفهمه ، يقال : فقه بالضم اذا صار الفقه له سجية ، وفقه بالفتح اذا سبق غيره الى الفهم ، وفقه بالكسر اذا فهم . والمراد به الفهم في الأحكام الشرعية ، أي الفهم الذي يثمر العمل ليكون فقهه وعلمه له لاعليه . كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : "والقرآن حجة لك أو عليك" .(٢)

قال ابن قيم الجوزية : "لم يكن السلف يطلقون اسم الفقه الا على العلم الذي يصحبه العمل" .(٣)

"ومفهوم الحديث أن من لم يتفقه في الدين ، أي يتعلم قواعد الاسلام ومايتصل بها من الفروع فقد حرم الخير .. لأن من لم يعرف أمور دينه لايكون فقيها ولاطالب فقه ، فيصح أن يوصف بأنه ما أريد به الخير ، وفي ذلك بيان ظاهر لفضل العلماء على سائر الناس ، ولفضل التفقه في الدين على سائر

---

(١) رواه البخاري في ٣ ـ كتاب العلم ، ١٤ ـ باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ٣٠/١ رقم الحديث ٧١ .
(٢) فتح الباري ١٦٤/١، ١٦٥ .
(٣) مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية ١٤٠/١ ، منشورات ادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد .

العلوم" .(١)

وهذا الحديث مشتمل على ثلاث جمل(٢) :

الأولى : فضل التفقه فى الدين ، كما هو واضح فى قوله صلى الله عليه وسلم : "من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين" .

الثانية : أن المعطى فى الحقيقة هو الله تعالى ، وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم : "وانما أنا قاسم والله يعطى" .

الثالثة : أن بعض هذه الأمة يبقى على الحق أبدا . وهو المراد فى قوله صلى الله عليه وسلم : "ولاتزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لايضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله ".

وذكر الحافظ ابن حجر أن الجملة الأولى لائقة بأبواب العلم ، والثانية لائقة بقسم الصدقات ، ولهذا أوردها مسلم فى كتاب الزكاة ، والبخارى فى باب الخمس . والثالثة لائقة بذكر أشراط الساعة ، وقد أوردها البخارى فى كتاب الاعتصام لالتفاته الى مسألة عدم خلو الزمان عن مجتهد . ثم قال رحمه الله تعالى : وقد تتعلق هذه الجمل الثلاث جميعها بأبواب العلم من جهة اثبات الخير لمن تفقه فى دين الله ، وأن ذلك لايكون بالاكتساب فقط ، بل لمن يفتح الله عليه به ، وأن من يفتح الله عليه بذلك لايزال جنسه موجودا حتى يأتى أمر الله تعالى .(٣)

وفى هذا تربية للصحابة رضوان الله عليهم على الاجتهاد فى طلب العلم والتفقه فى دين الله تعالى . والتعلق بالله

---

(١) من كلام الحافظ ابن حجر فى فتح البارى ١٦٤/١ .
(٢) انظر : فتح البارى ١٦٤/١ .
(٣) انظر : فتح البارى ١٦٤/١ .

تعالى وطلب العون والفتح عليهم منه سبحانه وتعالى لأنه هو المعطى وانه لامانع لما أعطى ، ولامعطى لما منع ولاراد لما قضى سبحانه وتعالى .

وعلى الدعاة الى الله تعالى أن يسلكوا طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم فى تربيته لأصحابه وربط قلوبهم بالله تعالى ، فيربوا أتباعهم على التفقه فى الدين ، وأن يربطوا هذه القلوب المقبلة الى الهداية بالله رب العالمين فلاترجو الا من الله تعالى ، ولاتخاف الا منه سبحانه ولاتطلب الخير والمعونة الا منه ، وأن تتعلق به تعلق المحتاج الملهوف الذى انقطعت عنه جميع الأسباب .

ومن خلال هذه الدراسة المتواضعة يتبين لى أن الرسول صلى الله عليه وسلم ربى أصحابه على طلب العلم والتفقه فى الدين لالذات العلم والتفقه فقط ، وجعله غاية فى حد ذاته . وانما ربى أصحابه وعلمهم على أن العلم والتفقه فى الدين وسيلة الى غاية عظيمة وهى عبادة الله وحده لاشريك له على علم وبصيرة ، قال الله تعالى : {قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين} (١) .

فالغاية من تعلم العلم بل من خلق الانسان على هذه الأرض هو العبودية الخالصة لله تعالى والتى تشمل اقامة منهج الله تعالى فى الأرض وتحكيم شريعته ، كما دلت عليه الآية السابقة وأن العبادة تشمل الى جانب الشعائر التعبدية من صلاة وصدقة وصيام وذبح لله تعالى تشمل كذلك جوانب الحياة والممات بتحكيم المنهج الربانى المتمثل فى كتاب

---

(١) سورة الأنعام : ١٦٣

الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

يقول ابن القيم : "ان العبد لو عرف كل شىء ولم يعرف ربه فكأنه لم يعرف شيئا" (١) .

وقد ذم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يطلب العلم لغير العمل به كما ورد فى الحديث الصحيح الذى رواه أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله لايتعلمه الا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عَرْف (٢) الجنة يوم القيامة" (٣) .

هكذا فهم الصحابة رضى الله عنهم من نبيهم صلى الله عليه وسلم تعلم العلم والتفقه فى الدين فهما يتسم بالشمول ويقترن بمصلحة الأمة وحاجاتها . فلم يأخذوا العلم لكى يتزينوا ويتجملوا به ولالكى يترقوا به المناصب الزائلة فى الدنيا . وانما تعلموا وتفقهوا ليعملوا به ويعبدوا الله وحده بلاشريك ، ويبينوه للناس .

"ان هذا القرآن هو الذى أنشأ {خير أمة أخرجت للناس} (٤) فهو منهج التربية الذى تربى عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وربى عليه أمته من بعد ... ان هذا الدين ليس شعارات وليس مثلا معلقة فى الفضاء ، وليس قيما فكرية تتملى بالذهن ولكنه واقع يعاش . وهذا هو التوجه "التربوى" الأكبر

(١) اغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن قيم الجوزية ٦٨/١ مكتبة الرياض الحديثة ، تحقيق محمد حامد الفقى.

(٢) عَرْف الجنة : أى ريحها . انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر ٢١٧/٣ ، طبعة أنصار السنة المحمدية ، باكستان ، تحقيق محمود محمد الطناحى ، وطاهر أحمد الزاوى .

(٣) رواه الحاكم فى المستدرك ، وقال : هذا حديث صحيح ورواته ثقات على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأقره الذهبى . وقال الحاكم أيضا : وقد روى هذا الحديث باسنادين صحيحين عن جابر بن عبد الله وكعب بن مالك رضى الله عنهم ٨٥/١ .
ورواه الامام أحمد فى مسنده ٣٣٨/٢ .

(٤) سورة آل عمران : آية ١١٠

في القرآن : {والذين آمنوا وعملوا الصالحات} (١) .

{ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب} (٢) .

{فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى} (٣) .

مامن موضع في القرآن يخلو من هذا التوجيه ، أن الاسلام ليس مشاعر ايمانية فحسب ، فضلا عن أن يكون كلمة تقال باللسان ، ولكنه عمل كذلك بمقتضى الايمان . واذ كان الاسلام كذلك ، فقد تولى القرآن مهمة تربية الأمة الاسلامية لتكون مسلمة بالفعل ، أي تمارس اسلامها في عالم الواقع" (٤) .

وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جامعا بين العمليتين التعليمية والتربوية في تعليمه وتربيته أصحابه رضوان الله عليهم ، واليك بعض الوسائل التعليمية التربوية التي استخدمها صلى الله عليه وسلم في تعليم أصحابه .

---

(١) سورة العنكبوت : آية ٧
(٢) سورة النساء : آية ١٢٣
(٣) سورة آل عمران : آية ١٩٥
(٤) دراسات قرآنية للأستاذ محمد قطب ص ٤٩١-٤٩٢ بتصرف يسير طبعة دار الشروق ، الطبعة الثالثة .

المطلب الثالث

بعض الوسائل التعليمية التربوية
التى استخدمها الرسول صلى الله عليه وسلم
فى تربية أصحابه رضوان الله عليهم

ويشمل على خمسة أمور :

أولا : اثارة الانتباه ، وتحريك حب الاستطلاع .

ثانيا : المحاورة الهادئة .

ثالثا : تخوله صلى الله عليه وسلم لأصحابه بالموعظة خوفا عليهم من السآمة .

رابعا : الرحمة والرفق بالمتعلم .

خامسا : حرص النبى صلى الله عليه وسلم على مراعاة أحوال المكلفين .

أولا : اثارة الانتباه وتحريك حب الاستطلاع

كان النبى صلى الله عليه وسلم يتعهد أصحابه ، فيحثهم على التعلم بطريقة التشويق .

فمن مظاهر ذلك أنه لما خرج على بعض أصحابه وهم فى الصفة (١) ← والانسان مركوز فى طبعه حب المال بشتى أنواعه كما قال تعالى : {زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب} (٢) .

ومركوز فى طبعه سروره بما يأتيه من الخير من غير جهد وعناء ← استخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الطبائع المركوزة لترغيب أصحابه فى حفظ القرآن وتعلم العلم ، عن عقبة بن عامر ، قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن فى الصفة فقال : "أيكم يحب أن يغدو كل يوم الى بطحان أو الى العقيق فيأتى منه بناقتين كوماوين (٣) ، فى غير اثم ولاقطع رحم ؟" فقلنا : يارسول الله ، نحب ذلك . قال : "أفلا يغدو أحدكم الى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خير له من ناقتين ، وثلاث خير له من ثلاث وأربع خير له من أربع ، ومن أعدادهن من الابل ؟" (٤) .

---

(١) الصفة : من البنيان شبه البهو الواسع الطويل السمك . وفى الحديث ذكر أهل الصفة ، قال : هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه فكانوا يأوون الى موضع مظلل فى مسجد المدينة يسكنونه . لسان العرب ١٩٥/٩ فصل الصاد المهملة .

(٢) سورة آل عمران : آية ١٤

(٣) (كوماوين) الكوماء : الناقة العظيمة السنام . الصحاح ٢٠٢٥/٥ ، مادة (كوم) ، الطبعة الثالثة ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار .

(٤) صحيح مسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ٤١ ، باب فضل قراءة القرآن فى الصلاة وتعلمه ٥٥٢/١ ، رقم الحديث ٨٠٣ .

فالمربى العظيم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، بهذا الأسلوب الجذاب يوقظ نفوس أصحابه ، ويستدعى نشاطهم ، ويثير انتباههم . فالابل من خيار أموالهم ، والكوماء هى من خيار الابل ، وبطحان واد قريب منهم لايتكلفون فى الوصول اليه سفرا ، ولايتحملون مشقة ، فمن الذى لايحب أن يحصل على مال عظيم بلاكلفة ولامعصية ؟

حتى اذا تشوقت نفوسهم ، وعظم رجاؤهم ، وأصغت اليه آذانهم أعلمهم أن القرآن أعظم من ذلك ، وأن خيره أعم وأن فضله أكبر . لأن القرآن الكريم كلام الله تعالى ، فخير الناس من تعلم القرآن وعلمه ، كما ورد عن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "خيركم من تعلم القرآن وعلمه " .

وفى لفظ : "ان أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه " (١) .

قال المناوى رحمه الله تعالى :

"أى خير المتعلمين والمعلمين من كان تعلمه وتعليمه فى القرآن لافى غيره اذ خير الكلام كلام الله تعالى ، فكذا خير الناس بعد النبيين من اشتغل به " (٢) .

وقال الحافظ ابن حجر : "لاشك أن الجامع بين تعلم القرآن وتعليمه مكمل لنفسه ولغيره ، جامع بين النفع القاصر والنفع المتعدى ، ولهذا كان أفضل ، وهو من جملة من عنى سبحانه وتعالى بقوله : {ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين} (٣) . والدعاء الى

---

(١) رواه البخارى فى ٦٦ كتاب فضائل القرآن ، ٢١ باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه ١٣٢/٦ رقم الحديث ٥٠٢٨ ورقم ٥٠٢٧ .

(٢) فيض القدير للعلامة محمد عبد الرؤوف المناوى ٤٩٩/٣ ، الطبعة الثانية ، دار المعرفة .

(٣) سورة فصلت : آية ٣٣

الله يقع بأمور شتى من جملتها تعليم القرآن وهو أشرف الجميع ، وعكسه الكافر المانع لغيره من الاسلام كما قال تعالى : {فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها} (١) .

فان قيل : فيلزم على هذا أن يكون المقرىء أفضل من الفقيه ؟ قلنا : لا ، لأن المخاطبين بذلك كانوا فقهاء النفوس لأنهم كانوا أهل اللسان فكانوا يدرون معانى القرآن بالسليقة أكثر مما يدرى من بعدهم بالاكتساب ، فكان الفقه لهم سجية ، فمن كان فى مثل شأنهم شاركهم فى ذلك ، لامن كان قارئا أو مقرئا محضا لايفهم شيئا من معانى مايقرؤه أو يقرئه ، فان قيل فيلزم أن يكون المقرىء أفضل ممن هو أعظم غناء فى الاسلام بالمجاهدة والرباط ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مثلا ؟ قلنا : حرف المسألة يدور على النفع المتعدى فمن كان حصوله عنده أكثر كان أفضل ، فلعل "من" مضمرة فى الخبر ، ولابد مع ذلك من مراعاة الاخلاص فى كل صنف منهم ، ويحتمل أن تكون الخيرية وان أطلقت لكنها مقيدة بناس مخصوصين خوطبوا بذلك كان اللائق بحالهم ذلك ، أو المراد خير المتعلمين من يعلم غيره لامن يقتصر على نفسه ، أو المراد مراعاة الحيثية لأن القرآن خير الكلام فمتعلمه خير من متعلم غيره بالنسبة الى خيرية القرآن ، وكيفما كان فهو مخصوص بمن علم وتعلم بحيث يكون قد علم مايجب عليه عينا" (٢) . انتهى

وفى مجلس آخر من مجالسه صلى الله عليه وسلم مع أصحابه ، حثهم فيه على بذل الخير بكل صوره حسب طاقتهم وقدراتهم ، ولفت أنظارهم الى أن المؤمن ايجابى فى كل وقت

---

(١) سورة الأنعام : آية ١٥٧
(٢) فتح البارى ٧٦/٩ .

وعلى كل حال . عن سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : "على كل مسلم صدقة ، قالوا : فان لم يجد ، قال : فيعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق ، قالوا : فان لم يستطع ، أو لم يفعل ؟ قال : فيعين ذا الحاجة الملهوف ، قالوا : فان لم يفعل ؟ قال : فليأمر بالخير أو بالمعروف ، قالوا : فان لم يفعل ؟ قال : فليمسك عن الشر فانه له صدقة " (١) .

وورد فى مسند أبى داود الطيالسى تقييد ذلك "فى كل يوم" وهذه الصدقة "على سبيل الاستحباب المتأكد أو على ماهو أعم من ذلك ، والعبارة صالحة للايجاب والاستحباب ، كقوله صلى الله عليه وسلم : على المسلم ست خصال ، فذكر منها ماهو مستحب اتفاقا" (٢) .

وقولهم : "فان لم يجد" دليل على سرعة استجابتهم وامتثالهم لرسولهم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم فسألوه عن ماذا لم يجد مايتصدق به . قال الحافظ : "كأنهم فهموا من لفظ الصدقة العطية ، فسألوا عمن ليس عنده شىء فبين لهم أن المراد بالصدقة ماهو أعم من ذلك ولو باغاثة الملهوف ، والأمر بالمعروف" (٣) .

هكذا ربى النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه على جميع أنواع الخير مراعاة لقدراتهم واستطاعتهم وفى هذا تربية لهم على ملء أوقاتهم بما يعود عليهم بالنفع الأخروى والدنيوى .

---

(١) رواه البخارى فى ٢٤ ـ كتاب الزكاة ، ٣٠ ـ باب على كل مسلم صدقة ١٤٨/٢ رقم الحديث ١٤٤٥ .
ورواه مسلم فى ١٢ ـ كتاب الزكاة ، ١٦ ـ باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ٦٩٩/٢ رقم الحديث ١٠٠٨ .

(٢) فتح البارى ٣٠٨/٣ .

(٣) فتح البارى ٣٠٨/٣ .

فباب الصدقة واسع ، والتنافس فيه يسعهم جميعا . فمن كان مستطيعا على العمل عمل بيديه فنفع نفسه وتصدق على اخوانه المحتاجين .

ومن لم يستطع أو لم يفعل (١) فيعين ذا الحاجة الملهوف ، أى المستغيث سواء كان عاجزا أو مظلوما فيعينه بالفعل أو بالقول أو بهما معا .

فان لم يفعل فليأمر بالخير أو بالمعروف ، أى وينهى عن المنكر لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر متلازمان ، وقد جاء الجمع بينهما فى رواية أبى داود الطيالسى فى مسنده .

فان لم يفعل "فليمسك عن الشر فانه له صدقة " والمراد بالشر : مامنعه الشرع ، والضمير فى "فانه " يعود الى الامساك .

ففى هذا الحديث والذى قبله يربى النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه على تعلم القرآن وتعليمه ويحثهم على ذلك ببيان فضل من تعلم القرآن وعلمه وعمل به . لأن العمل داخل فى تعلم القرآن وتعليمه ، اذ أن العلم الذى لايبعث على العمل ليس علما وانما هو جهل .

قال الفضيل بن عياض : "لايزال العالم جاهلا بما علم حتى يعمل به ، فاذا عمل به كان عالما " (٢) .

---

(١) لأن الصدقة كما قال الحافظ ابن حجر : "أنها قد تكون واجبة وقد تكون مستحبة " ، ولذا جاء فى الحديث التخيير "أو لم يفعل" .

(٢) اقتضاء العلم العمل ص ٣٧ ، الخطيب البغدادى ، طبعة المكتب الاسلامى ، الطبعة الثالثة .

يقول القارى فى المرقاة كما نقله المباركفورى فى تحفة الأحوذى : "ولايتوهم أن العمل خارج عنهما ، لأن العلم اذا لم يكن مورثا للعمل ليس علما فى الشريعة ، اذ أجمعوا على أن من عصى الله فهو جاهل" . انتهى (١)

والعلم لاخير فيه ان لم يترتب عليه سلوك مستقيم ، ويورث فى النفس خشية وتقوى وعملا صالحا . يقول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : "ان الناس أحسنوا القول كلهم ، فمن وافق فعله قوله فذلك الذى أصاب حظه ، ومن خالف فعله قوله فانما يوبخ نفسه " . (٢)

وقال أبو اسحاق الشاطبى رحمه الله تعالى بعد أن ساق قول ابن مسعود وغيره من أقوال أئمة السلف : "والأدلة على هذا المعنى أكثر من أن تحصى ، وكل ذلك يحقق أن العلم وسيلة من الوسائل ليس مقصودا بنفسه من حيث النظر الشرعى ، وانما هو وسيلة الى العمل ، وكل ماورد فى فضل العلم فانما هو ثابت للعلم من جهة ماهو مكلف بالعمل به " . (٣)

قال الزين بن المنير : "انما يحصل ذلك للممسك عن الشر اذا نوى بالامساك القربة ، بخلاف محض الترك ، والامساك أعم من أن يكون عن غيره ، فكأنه تصدق عليه بالسلامة منه فان كان شره لايتعدى نفسه فقد تصدق على نفسه بأن منعها من الاثم " . انتهى (٤)

ففى الحديث تربية للمسلم بأن يكون ايجابيا بالنسبة لمجتمعه ، يقدم الخير لهذا المجتمع ويعطى من ماله وجهده ووجاهته ، وأدنى درجات العطاء لمجتمعه أن يكف أذاه عن

---

(١) تحفة الأحوذى ٢٢٢/٨ ، الطبعة الثالثة ، دار الفكر .
(٢) الموافقات للشاطبى ٦٥/١ ، المكتبة التجارية بمصر .
(٣) الموافقات ٦٥/١ .
(٤) فتح البارى ٣٠٨/٣ .

الناس فيعطيهم السلامة منه ، فليس العطاء اذن مقصورا على الأغنياء ، بل الفقراء يعطون كذلك عطاء يتناسب مع امكاناتهم ، والذى لايستطيع أن يشارك فى خير المجتمع بقوته يستطيع أن يشارك بلسانه وهكذا .

وقال الزين بن المنير : "وليس ماتضمنه الخبر من قوله "فان لم يجد" ترتيبا وانما هو للايضاح لما يفعله من عجز عن خصلة من الخصال المذكورة فانه يمكنه خصلة أخرى ، فمن أمكنه أن يعمل بيده فيتصدق ، وأن يغيث الملهوف وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويمسك عن الشر فليفعل الجميع" (١) . انتهى

فالنبى صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه فى هذه الأحاديث السابقة خصال الخير وأنها تتفاضل فى الثواب وأن بعضها أولى من بعض ، ويتضح لى أن الترك عمل وكسب للعبد يثيبه الله تعالى عليه ان كان دافع الترك هو طاعة الله تعالى ورجاء ثوابه والخوف من عقابه .

وفيها حث على الاحسان الى الغير والشفقة على الخلق ، اما بتعليمهم ماينفعهم فى دينهم ودنياهم ، واما بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، واما باعانتهم بمال ، أو بالامساك عن الشر مع قصد القربة الى الله تعالى وهو أقلها ان لم يحصل من المسلم فعل الخير مع ذلك .

فرباهم صلى الله عليه وسلم على هذه الخصال العظيمة حتى ظهر من الصحابة رضوان الله عليهم ، الحرص على معرفة الحق وتبين درجاته ، والاستجابة لتوجيهات رسولهم المربى صلى الله عليه وسلم ، فكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس .

---

(١) فتح البارى ٣٠٨/٣ .

ومن مظاهر اثارة الانتباه والتشويق ماروا ه أبو واقد الليثى (١) : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو جالس فى المسجد والناس معه ، اذ اقبل ثلاثة نفر ، فأقبل اثنان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذهب واحد ، قال : فوقفا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما أحدهما فرأى فرجة فى الحلقة فجلس فيها ، وأما الآخر : فجلس خلفهم وأما الثالث : فأدبر ذاهبا ، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : "ألا أخبركم عن النفر الثلاثة ؟

أما أحدهم فأوى الى الله ، فأواه الله ، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فأعرض ، فأعرض الله عنه " . (٢)

فرسول الله صلى الله عليه وسلم يلفت أنظار الحاضرين من الصحابة الى صنيع أولئك النفر الثلاثة بقوله : "ألا أخبركم عن النفر الثلاثة ؟" ألا أنبؤكم بخبر الثلاثة الرجال الذين مروا على مجلسنا ، "أما أحدهم فأوى الى الله " أى لجأ الى الله تعالى . "فآواه الله " أى جازاه بنظير فعله بأن ضمه الى رحمته ورضوانه . "وأما الآخر فاستحيا " أى ترك المزاحمة كما فعل رفيقه حياء من النبى صلى الله عليه وسلم وممن حضر فجلس فى آخر الحلقة . "فاستحيا الله منه " أى رحمه ولم يعاقبه . "وأما الآخر فأعرض" أى عن الجلوس فى الحلقة استكبارا وترفعا ، "فأعرض الله عنه " أى سخط عليه . (٣)

---

(١) هو أبو واقد الحارث بن عوف الليثى من بنى ليث بن بكر ابن عبد مناة ، قيل أنه شهد بدرا وكان معه لواء بنى ضمرة وبنى ليث وبنى سعد بن بكر يوم الفتح ، يعد فى أهل المدينة وشهد اليرموك بالشام ، وجاور بمكة سنة ومات بها .
أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير ٣٢٥/٦ ، دار الشعب .

(٢) رواه البخارى فى ٣ ـ كتاب العلم ، ٩ ـ باب من قعد حيث ينتهى به المجلس ومن رأى فرجة فى الحلقة فجلس فيها ٢٨/١ رقم الحديث ٦٦ .

(٣) انظر : فتح البارى ١٥٧/١ .

قال الحافظ ابن حجر : "وفيه استحباب الأدب في مجالس العلم وفضل سد خلل الحلقة كما ورد في الترغيب في سد خلل الصفوف في الصلاة ، وجواز التخطي لسد الخلل مالم يؤذ ، فان خشي استحب الجلوس حيث ينتهي كما فعل الثاني . وفيه الثناء على من زاحم في طلب الخير . قوله "فاستحيا" أي ترك المزاحمة كما فعل رفيقه حياء من النبي صلى الله عليه وسلم وممن حضر قاله القاضي عياض ، وقد بين أنس في روايته سبب استحياء هذا الثاني كما أخرجها الحاكم بلفظه قال "ومضى الثاني قليلا ثم جاء فجلس" فالمعنى أنه استحيا من الذهاب عن المجلس كما فعل رفيقه الثالث .

قوله : "فاستحيا الله منه" أي رحمه ولم يعاقبه .

قوله : "فأعرض الله عنه" أي سخط عليه . وهو محمول على من ذهب معرضا لالعذر ، هذا ان كان مسلما ، ويحتمل أن يكون منافقا ، واطلع النبي صلى الله عليه وسلم على أمره ، كما يحتمل أن يكون قوله صلى الله عليه وسلم "فأعرض الله عنه" اخبارا أو دعاء . ووقع في حديث أنس "فاستغنى ، فاستغنى الله عنه" وهذا يرشح كونه خبرا .

واطلاق الاعراض وغيره في حق الله تعالى على سبيل المقابلة والمشاكلة ، فيحمل كل لفظ منها على مايليق بجلاله سبحانه وتعالى . وفائدة اطلاق ذلك بيان الشيء بطريق واضح".(١)

ان مجالس العلم والعلماء تحوى الخير كله ، كيف وهي التي تنقل طالب الحق المخلص في طلبه من الشك الى اليقين ، ومن الرياء الى الاخلاص ، ومن الغفلة الى الذكر ، ومن

---

(١) فتح الباري ١٥٧/١ .

الرغبة في الدنيا الى الرغبة في الآخرة ، ومن الكبر الى التواضع ، ومن سوء الطوية الى النصيحة (١) .

يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : "ان الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة فاذا سمع العلم خاف ورجع وتاب ، فانصرف الى منزله وليس عليه ذنب ، فلاتفارقوا مجالس العلماء" (٢) .

ويبين هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "عند الله خزائن الخير والشر ، مفاتيحها الرجال ، فطوبى لمن جعله الله مفتاحا للخير ، مغلاقا للشر ، وويل لمن جعله الله مفتاحا للشر مغلاقا للخير" (٣) .

---

(١) انظر : تهذيب مدارج السالكين ص ٦١٩ ، عبد المنعم صالح العزي ، مكتبة السوادي بجدة .
(٢) مفتاح دار السعادة ١/١٢٢ لابن قيم الجوزية ، الطبعة الأولى .
(٣) صحيح الجامع الصغير للألباني ٤/٥٦ ، ط/الأولى ١٣٨٨هـ ، طبعة منشورات المكتب الاسلامي .

ثانيا : المحاورة الهادئة

عن طريق السؤال والجواب

وذلك بطريقتين :

الأولى : بطرحه صلى الله عليه وسلم السؤال على بعض أصحابه ليلفت أنظارهم ويثير انتباههم للموضوع ، ثم ينتظر منهم الاجابة ، فان أجابوا والا فانه يجيب الاجابة الصحيحة .

الثانية : بتلقيه صلى الله عليه وسلم الأسئلة المطروحة عليه من قبل بعض الصحابة ، ثم اجابته عليها بما يفيد السائل والسامع .

الطريقة الأولى :

سلك النبي صلى الله عليه وسلم في تعليم أصحابه بعض الأمور المهمة التي تتعلق بالعقيدة وببعض المبادئ الاسلامية طرقا منها :

طريقة الحوار ، وذلك بطرح السؤال عليهم لكي يلفت نظرهم ويثير انتباههم للموضوع الذي يريد غرسه في نفوسهم ، ثم ينتظر منهم الاجابة ، فان أجابوا ، والا فانه يجيب الاجابة الصحيحة . وهذه الطريقة واضحة في الحوار الذي دار بينه صلى الله عليه وسلم وبين معاذ بن جبل رضي الله عنه .

قال معاذ بن جبل رضي الله عنه : "بينا أنا رديف النبي صلى الله عليه وسلم ليس بيني وبينه الا آخرة الرحل ، فقال : يامعاذ ، قلت : لبيك يارسول الله وسعديك (١) ، ثم سار ساعة ثم قال : يامعاذ قلت لبيك رسول الله وسعديك ، ثم سار ساعة ثم قال : يامعاذ قلت لبيك رسول الله وسعديك ، قال : هل تدري ماحق الله على عباده ؟ قلت الله ورسوله أعلم ، قال : حق الله على عباده أن يعبدوه ولايشركوا به شيئا ، ثم سار ساعة ثم قال : يامعاذ بن جبل ، قلت : لبيك رسول الله

---

(١) قوله : "لبيك" المراد به : اجابة بعد اجابة ، أو اجابة لازمة . قاله الحافظ ابن حجر في الفتح ٤٠٩/٣ .
وقال النووي : "الأظهر أن معناها اجابة لك بعد اجابة للتأكيد" . مسلم بشرح النووي ٢٣١/١ ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية .
وقال ابن هشام : "وسعديك بمعنى اسعادا لك بعد اسعاد" أوضح المسالك ص ٢٤٣ ، الطبعة الأولى ، دار احياء العلوم ١٤٠١هـ .

وسعديك ، قال : هل تدرى ماحق العباد على الله اذا فعلوه ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حق العباد على الله أن لايعذبهم (١) " .

ولاشك أن فى تكرار نداء النبى صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل ثلاثا ولاسيما وأن معاذا كان شديد القرب منه اذ كان رديفه على الدابة ، لفت نظر معاذ رضى الله عنه الى ماسيلقيه عليه ، ولتأكيد الاهتمام بما يخبر به المعلم صلى الله عليه وسلم فيكون أوقع فى الفهم ، وأبلغ فى النفس .

ثم طرح الرسول صلى الله عليه وسلم سؤالا على معاذ قائلا : هل تدرى ماحق الله على عباده ؟

أى هل تعرف مايستحقه الله تعالى على عباده مما جعله لزاما وحقا عليهم (٢) . فسكت معاذ رضى الله عنه عن الجواب ، وفوض علم ذلك الى الله تعالى ورسوله . وهذا دليل على حسن أدب معاذ بن جبل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأنه لما سئل عن شىء لايعلمه وكل علم ذلك الى عالمه ، وهذا أولى من قوله : لاأدرى ، لأن قوله : الله أعلم يفيد ماتفيده كلمة "لاأدرى" مع اشتماله على الثناء على الله سبحانه وتعالى .

"وأخرج السؤال بصيغة الاستفهام ليكون أوقع فى النفس ، وأبلغ فى فهم المتعلم ، فان الانسان اذا سئل عن مسألة

---

(١) رواه البخارى فى ٩٨ ـ كتاب التوحيد ، ١ ـ باب ماجاء فى دعاء النبى صلى الله عليه وسلم أمته الى توحيد الله تبارك وتعالى ٢٠٧/٨ رقم الحديث ٧٣٧٣ .
ورواه مسلم فى ١ ـ كتاب الايمان ، ١٠ ـ باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا ٥٨/١ رقم الحديث ٣٠ .

(٢) انظر : فتح البارى ٣٣٩/١١ .

لايعلمها ثم أخبر بها بعد الامتحان بالسؤال عنها فان ذلك أدعى لفهمها وحفظها ، وهذا من حسن ارشاده وتعليمه صلى الله عليه وسلم " (١) .

ثم أجاب المربى عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم الاجابة التى يتشوق اليها معاذ ، واستعد لتلقيها من المربى والمعلم الكبير صلى الله عليه وسلم ، بقوله : "حق الله على عباده أن يعبدوه ولايشركوا به شيئا " .

ولأهمية هذا الأمر ، وهو معرفة حق الله تعالى على عباده ، ردد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم النداء لمعاذ ابن جبل ثلاثا وهو شديد القرب منه ، وماذلك الا لتأكيد الاهتمام الشديد بما سيخبر به صلى الله عليه وسلم ، لأن عبادة الله تعالى هى الأساس من بعث الرسل وانزال الكتب .

"والمراد بالعبادة عمل الطاعات ، واجتناب المعاصى ، وعطف عليها عدم الشرك لأنه تمام التوحيد ، والحكمة من عطفه على العبادة أن بعض الكفرة كانوا يدعون أنهم يعبدون الله ولكنهم كانوا يعبدون آلهة أخرى فاشترط نفى ذلك ، والجملة حالية ، والتقدير يعبدونه فى حال عدم الاشراك به . قال ابن حبان : عبادة الله اقرار باللسان ، وتصديق بالقلب ، وعمل بالجوارح ، ولهذا قال فى الجواب : "فما حق العباد اذا فعلوا ذلك" فعبر بالفعل ولم يعبر بالقول" (٢) . انتهى

"وقد اشتمل هذا الحديث بوضوح على بيان حق الله على عباده ، وذلك فى قوله صلى الله عليه وسلم : "حق الله على

---

(١) تيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان بن عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٦٤ ، ط/المكتب الاسلامى .
(٢) فتح البارى ٣٣٩/١١ .

عباده أن يعبدوه ولايشركوا به شيئا ، وهذا الحق الذى بينه الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه فى هذا الحديث مشتمل على النفى والاثبات الذى اشتملت عليه (لااله الا الله) فان قوله : أن يعبدوه ، اثبات ، وقوله : ولايشركوا به شيئا نفى ، والمراد بذلك نفى جميع أنواع العبادة عن كل ماسواه واثباتها لله وحده لاشريك له ، فكما أنه سبحانه وتعالى المنفرد بالخلق والايجاد ، والاحياء والاماتة ، فيجب أن يفرد بالعبادة وحده لاشريك له ، وهذا النفى والاثبات الذى اشتملت عليه هذه الجملة التى بين بها الرسول الكريم عليه من الله أفضل الصلاة وأتم التسليم حق الله على عباده جاء فى آيات كثيرة منها قوله تعالى : {ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} (١) . فقوله : "أن اعبدوا الله" اثبات وهو بمعنى : الا الله ، وقوله : "واجتنبوا الطاغوت" نفى وهو بمعنى : لااله ، فتحصل من النفى والاثبات معنى (لااله الا الله) التى هى كلمة الاخلاص ، ومنها قوله تعالى : {وقضى ربك أن لاتعبدوا الا اياه} (٢) فهى بمعنى (لااله الا الله) ، ومنها قوله تعالى : {واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا} فجملة الأمر اثبات وجملة النهى نفى ، فهى بمعنى لااله الا الله ، وتنكير (شيئا) لافادة عدم الاشراك به أى شىء كان وأن يخص بالعبادة وحده لاشريك له ، ومنها قوله تعالى : {قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم أن لاتشركوا به شيئا} (٣) ، أى

---

(١) سورة النحل : آية ٣٦
(٢) سورة الاسراء : آية ٢٣
(٣) سورة الأنعام : آية ١٥١

أن تخصوه بالعبادة وحده دون أن تجعلوا له شريكا فى شىء منها ، ومنها قوله تعالى : {وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله} (١) ، فقوله "فاتبعوه" اثبات ، وقوله "ولاتتبعوا السبل" نهى مؤداه النفى بمعنى : لااله الا الله" (٢) .

ثم بعد أن أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذا عن السؤال الأول ، سار ساعة ، ثم ناداه مرة أخرى وطرح عليه سؤالا آخر شديد الصلة بالسؤال الأول . فقال عليه الصلاة والسلام موجها السؤال الى معاذ : "هل تدرى ماحق العباد على الله اذا فعلوه ؟" أى هل تعرف ماوعد الله به عباده من الجزاء الحسن والثواب العظيم لمن عبده وحده سبحانه ولم يشرك به شيئا . فتوقف معاذ رضى الله عنه عن الجواب لأنه لم يكن يعرفه . وفوض علم ذلك الى الله ورسوله .

ثم أجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أجابه على السؤال الأول الذى لم يعرف اجابته رضى الله عنه ، وقال له : "حق العباد على الله أن لايعذبهم" (٣) .

---

(١) سورة الأنعام : آية ١٥٣

(٢) كتاب عشرون حديثا من صحيح البخارى للشيخ عبد المحسن العباد ص ١٨٥،١٨٦ ، مطابع الرشيد ، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ .

(٣) قال القرطبى : "حق العباد على الله ماوعدهم به من الثواب والجزاء ، فحق ذلك ووجب بحكم وعده الصدق ، وقوله الحق الذى لايجوز عليه الكذب فى الخبر ولا الخلف فى الوعد ، فالله سبحانه وتعالى لايجب عليه شىء بحكم الأمر ، اذ لاآمر فوقه ولاحكم للعقل لأنه كاشف لاموجب" . فتح البارى ٣٣٩/١١ .
وقال شيخ الاسلام ابن تيمية : "كون المطيع يستحق الجزاء هو استحقاق انعام وفضل ليس هو استحقاق مقابلة كما يستحق المخلوق على المخلوق ، فمن الناس من يقول لامعنى للاستحقاق الا أنه أخبر بذلك ووعده صدق ، ولكن أكثر الناس يثبتون استحقاقا زائدا على هذا كما دل عليه الكتاب والسنة ، قال تعالى : {وكان حقا علينا نصر المؤمنين} سورة الروم : آية ٤٧ ، ولكن أهل السنة يقولون هو الذى كتب على نفسه الرحمة وأوجب هذا الحق على نفسه لم يوجبه عليه مخلوق" . عن كتاب تيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان بن عبد الله ص ٦٥ .

وفى هذا تربية منه صلى الله عليه وسلم لأصحابه وارشاد منه الى الطريقة المفيدة فى التعليم ، وهى اخراج الكلام بصيغة الاستفهام ليكون أبلغ فى النفس ، وأوقع فى فهم المتعلم .

وعلى الداعية الى الله تعالى الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم فى تربية وتعليم من ولاه الله تعالى تأديبه وتربيته وتعليمه . {ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد}(١) .

وفى جلسة من جلساته صلى الله عليه وسلم مع أصحابه الكرام ، نبههم على أمر خطير يمس العقيدة ويؤثر فيها ، ذلك هو ماكان يظنه بعضهم فى الجاهلية من أن نزول الغيث بواسطة النوء ، اما بصنعه على زعمهم واما بعلامته .

فأبطل الشرع قولهم ذاك وجعله كفرا . فتحين المربى العظيم صلى الله عليه وسلم المناسبة لكى يلفت أنظار الصحابة رضوان الله عليهم لذلك الأمر العظيم حينما نزل المطر فى ليلة من الليالى ، فبين لهم بعد صلاة صبح تلك الليلة المطيرة خطورة تلك المقالة التى كان يعتقدها أهل الجاهلية فى نسبة نزول المطر ، وذلك لشد انتباههم ولفت انظارهم لكى يتيقظوا لمقصوده صلى الله عليه وسلم .

عن زيد بن خالد الجهنى ، قال : صلى لنا(٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية فى اثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف ، أقبل على الناس فقال : "هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : أصبح

---

(١) سورة ق : آية ٣٧

(٢) أى صلى بنا ، فاللام بمعنى الباء ، وفيه جواز اطلاق ذلك مجازا وهو قوله "صلى لنا" وانما الصلاة لله تعالى انظر فتح البارى ٢/٥٢٣ .

من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى وكافر بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب" (١) .

فكما هو واضح فى هذا الحديث من أنه صلى الله عليه وسلم لما انتهى من صلاة صبح تلك الليلة المطيرة ، التفت الى أصحابه قائلا : "هل تدرون ماذا قال ربكم ؟" خاطبهم صلى الله عليه وسلم بهذا الاستفهام الذى معناه التنبيه ، وهذا من الأحاديث القدسية ، لأنه صلى الله عليه وسلم يعلم أنهم لايعلمون ذلك ، وانما هو من الغيب المستور عنهم ، والذى كشفه الله تعالى له بالوحى ، فكان يقصد من السؤال تنبيههم وشد قلوبهم لما سيلقيه عليهم من أمر مهم فى حياتهم .

فأقبل الأصحاب رضى الله عنهم على معلمهم وقائدهم صلى الله عليه وسلم بقلوبهم وبسمعهم مجيبين : الله ورسوله أعلم .

وهذا من حسن أدبهم رضوان الله عليهم ، وهو الواجب على طلاب العلم دائما وأبدا فى كل زمان ومكان أن يقولوا عن كل مالايعلمونه الله أعلم ، فيردون العلم الى من أحاط علمه بكل شىء ، وهو الله تعالى .

ثم أخبرهم صلى الله عليه وسلم بما قاله ربهم ، فقال قال الله تعالى : "أصبح من عبادى" هذه اضافة عموم ، بدليل التقسيم الى مؤمن وكافر ، كقوله تعالى : {هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير} (٢) .

---

(١) رواه مسلم فى ١ ـ كتاب الايمان ٣٢ ـ باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء ٨٣/١ رقم الحديث ٧١ .
ورواه البخارى فى ١٥ ـ كتاب الاستسقاء ، ٢٨ ـ باب قول الله تعالى : {وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون} . سورة الواقعة : آية ٨٢ . قال ابن عباس : شكركم ٢٨/٢ رقم الحديث ١٠٣٨ .

(٢) سورة التغابن : آية ٢ . وانظر فتح البارى ٥٢٣/٢ .

فانقسم الناس بسبب ذلك الى قسمين :

الأول : مؤمن بالله تعالى . وهو الذى قال : مطرنا بفضل الله ورحمته ، فنسب المطر الى فضل الله ورحمته ، لأن المطر ينزل فى الوقت الذى أراده الله تعالى برحمته وحكمته وفضله ، فان نعم الله تعالى لايجوز أن تضاف الا اليه وحده ، وهو الذى يحمد عليها .(١)

والثانى : كافر بالله تعالى ، وهو الذى قال : مطرنا بنوء كذا وكذا .

"وأما معنى الحديث فاختلف العلماء فى كفر من قال : مطرنا بنوء كذا على قولين :

أحدهما : هو كفر بالله سبحانه وتعالى سالب لأصل الايمان مخرج من ملة الاسلام ، قالوا : وهذا فيمن قال ذلك معتقدا أن الكواكب فاعل مدبر منشىء للمطر كما كان بعض أهل الجاهلية يزعم ، ومن اعتقد هذا فلاشك فى كفره ، وهذا القول هو الذى ذهب اليه جماهير العلماء والشافعى منهم ، وهو ظاهر الحديث . قالوا : وعلى هذا لو قال : مطرنا بنوء كذا معتقدا أنه من الله تعالى وبرحمته ، وأن النوء ميقات له وعلامة ، اعتبارا بالعادة فكأنه قال : مطرنا فى وقت كذا ، فهذا لايكفر .

واختلفوا فى كراهته ، والأظهر كراهته لكنها كراهة تنزيه لاإثم فيها ، وسبب الكراهة أنها كلمة مترددة بين

---

(١) "والفضل والرحمة صفتان من صفات الله تعالى ، ومذهب أهل السنة والجماعة : أن ماوصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من صفات الذات : كالحياة والعلم ، وصفات الأفعال : كالرحمة التى يرحم بها عباده . كلها صفات لله قائمة بذاته ليست قائمة بغيره" . فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ص ٢٨٤ ، المكتبة التجارية بمكة المكرمة ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ .

الكفر وغيره فيساء الظن بصاحبها ، ولأنها شعار الجاهلية ومن سلك مسلكهم .

والقول الثاني : في تأويل الحديث ، أن المراد بالكفر هو كفر نعمة الله تعالى ، لاقتصاره على اضافة الغيث الى الكواكب ، وهذا فيمن لايعتقد تدبير الكوكب ، ويؤيد هذا التأويل قوله صلى الله عليه وسلم : "أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر" (١) ، وفي الرواية الأخرى : "ما انعمت على عبادي من نعمة الا أصبح فريق منهم بها كافرين" (٢) ، وفي الرواية الأخرى "ما أنزل الله تعالى من السماء من بركة الا أصبح فريق من الناس بها كافرين" (٣) ، فقوله "بها" يدل على أنه كفر بالنعمة والله أعلم" (٤) . انتهى

وفي هذا تربية منه صلى الله عليه وسلم لأصحابه بأن يتفطنوا لايمانهم ويحرصوا عليه ، ويحافظوا عليه من كل مايخدشه أو يؤثر فيه وأن يبتعدوا عن كل مايوصل الى الكفر أو يؤدي اليه سواء من الأقوال أو الأفعال . وهذه الطريقة التي سلكها صلى الله عليه وسلم في معالجة هذا الأمر الخطير وتنبيه الأصحاب عليه بهذا الأسلوب الحكيم لحري بأصحاب الدعوة اليوم أن يسلكوا هذا الطريق ، وأن يستعملوا هذا الأسلوب الذي استعمله الرسول صلى الله عليه وسلم . وأن لايتساهلوا في أي قول أو فعل يصدر من أتباعهم وان قل ، فعليهم سرعة العلاج والاصلاح وتنبيه من وقعت منه مخالفة

---

(١) رواه مسلم في ١ ـ كتاب الايمان ، ٣٢ ـ باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء ١/٥٤ رقم الحديث ٧٣ .
(٢) رواه مسلم في ١ ـ كتاب الايمان ، ٣٢ ـ باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء ١/٥٤ رقم الحديث ٧٢ .
(٣) رواه مسلم في ١ ـ كتاب الايمان ، ٣٢ ـ باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء ١/٥٤ رقم الحديث ٧٢ .
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ٢/٦٠،٦١ .

قولية أو فعلية في الحال ، وخاصة في مايمس عقيدتهم ودينهم .

ولما التقى النبي صلى الله عليه وسلم بالصحابة رضوان الله عليهم في يوم النحر ، خطب فيهم خطبة بليغة مشوقة وفيها يلفت بالسؤال نظرهم ويثير انتباههم لما سيقوله صلى الله عليه وسلم لهم .

عن عبد الرحمن بن أبي بكرة ، عن أبيه ، ذكر النبي صلى الله عليه وسلم قعد على بعيره ، وأمسك انسان بخطامه — أو بزمامه — قال :

"أي يوم هذا ؟" فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه قال : "أليس يوم النحر ؟" قلنا : بلى ، قال : "فأي شهر هذا ؟" فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، فقال : "أليس بذي الحجة" . قلنا : بلى ، قال : "فان دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ليبلغ الشاهد الغائب ، فان الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه" (١) .

ففي هذا الحديث يوجه المربي صلى الله عليه وسلم الخطاب لأصحابه بقوله : "أي يوم هذا ؟" أي هل تعرفون اسم هذا اليوم ، فسكت الصحابة رضوان الله عليهم وفوضوا علم ذلك لله ورسوله لظنهم أنه صلى الله عليه وسلم سيسميه باسم آخر .

---

(١) رواه البخاري في ٣ — كتاب العلم ، ١٠ — باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : "رب مبلغ أوعى من سامع" ٢٩/١ رقم الحديث ٦٧ .
ورواه مسلم في ٢٨ — كتاب القسامة ، ٩ — باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال ١٣٠٥/٣ رقم الحديث ١٦٧٩ .

ثم أجاب صلى الله عليه وسلم بقوله : "أليس يوم النحر" أجابهم بصيغة التقرير ، لعلمه أنهم يعرفون ذلك .

فقال الصحابة رضى الله عنهم : بلى انه يوم النحر .

ثم وجه لهم سؤالا آخر ، فقال : "فأى شهر هذا ؟" أى ما اسم هذا الشهر ، فسكت الصحابة رضى الله عنهم عن الجواب لظنهم أنه سيسميه بغير اسمه . ثم قال صلى الله عليه وسلم "أليس بذى الحجة" . قالوا : بلى انه شهر ذى الحجة .

وجواب الصحابة عن كل سؤال بقولهم : الله ورسوله أعلم أو بسكوتهم مع علمهم بأنه صلى الله عليه وسلم لايخفى عليه مايعرفونه من الجواب ، وأنه ليس مراده صلى الله عليه وسلم مطلق الاخبار بما يعرفونه ، ولهذا قالوا : حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . ففيه اشارة الى تفويض الأمور الكلية الى المشرع سبحانه وتعالى (١) .

وفى هذا دليل على أثر تربيته صلى الله عليه وسلم أصحابه ، وحسن أدب الصحابة رضوان الله عليهم بتفويض الأمور الى عالمها ومشرعها ، وخضوعهم لما يقرر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال القرطبى : "سؤاله صلى الله عليه وسلم عن هذه الأمور وسكوته بعد كل سؤال منها ، كان لاستحضار فهومهم ، وليقبلوا عليه بكليتهم ، وليستشعروا عظمة مايخبرهم عنه ، ولذلك قال بعد هذا : فان دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام ، مبالغة فى بيان تحريم هذه الأشياء" (٢) .

---

(١) انظر فتح البارى ١٥٩/١ .
(٢) فتح البارى ١٥٩/١ بتصرف يسير .

ثم بعد أن استثار همم الصحابة ، ولفت أنظارهم صلى الله عليه وسلم أعطاهم الاجابة الصحيحة التى لم تكن خافية عليهم ، ثم ربط لهم هذه الاجابة عن طريق التشبيه بأمور مهمة فى حياتهم فقال صلى الله عليه وسلم : فان دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا .

"ومناط التشبيه فى قوله "كحرمة يومكم" ومابعده ، ظهوره عند السامعين لأن تحريم البلد والشهر واليوم كان ثابتا فى نفوسهم مقررا عندهم ، بخلاف الأنفس والأموال والأعراض ، فكانوا فى الجاهلية يستبيحونها ، فطرأ الشرع عليهم بأن تحريم دم المسلم وماله وعرضه أعظم من تحريم البلد والشهر واليوم . فلايرد كون المشبه به أخفض رتبة من المشبه ، لأن الخطاب انما وقع بالنسبة لما اعتاده المخاطبون قبل تقرير الشرع" (١) .

ثم قال صلى الله عليه وسلم فى آخر حديثه : "ليبلغ الشاهد الغائب" أى ليبلغ الحاضر فى هذا المجلس والذى سمع مقالتى هذه لمن لم يحضر وغاب عن هذا المجلس جميع ماسمع منى من أحكام حرمة سفك دماء المسلمين بغير حق ، وثلب أعراضهم ، وأن لا يلحقها سوء بالقول أو بالفعل ، وأخذ أموالهم بغير حق ، فان ذلك حرمه الله تعالى أشد من حرمة البلد الحرام مكة المكرمة ، ومن الشهر الحرام وهو ذو الحجة ، ومن اليوم الحرام وهو يوم النحر .

---

(١) فتح البارى ١٥٩/١ .

ثم ختم حديثه صلى الله عليه وسلم بقوله : "فان الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه " أى لعل الغائب الذى بلغته مقالتى هذه عن طريق أحدكم أن يكون أفهم وأحفظ من الشاهد الذى حضر مقالتى ثم بلغها .

وفى هذا الحديث تربية منه صلى الله عليه وسلم لأصحابه على تبليغ العلم ، وحث لهم على حفظ مايحدثهم به ، وأن الفهم ليس شرطا فى الأداء والبلاغ . فرب مبلغ أفهم من سامع.

فياليت دعاة اليوم أن يستفيدوا من هذا التوجيه النبوى الشريف وأن يربوا تلاميذهم وطلابهم بمثل هذا الأسلوب التربوى على عظم حرمة الدماء والأموال والأعراض وجميع الأمور العلمية والعملية .

وفى جلسة من جلساته المباركة يطرح رسول الله صلى الله عليه وسلم سؤالا على أصحابه قاصدا به صلى الله عليه وسلم استخراج ماعندهم من العلم ، ومذكرا لهم بقيمة الايمان الذى يحملونه ، وبكرامة هذا الانسان بسبب ايمانه ، وأنه بغير هذا الايمان لايساوى شيئا ، وشبهه بالشجرة الطيبة وهى النخلة .

عن ابن عمر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "ان من الشجر شجرة لايسقط ورقها وانها مثل المسلم ، حدثونى ماهى ؟ قال : فوقع الناس فى شجر البوادى قال عبد الله : فوقع فى نفسى انها النخلة . ثم قالوا : حدثنا ماهى يارسول الله ؟ قال : هى النخلة " (١) .

---

(١) رواه البخارى فى ٣ ـ كتاب العلم ، ٥ ـ باب طرح الامام المسألة على أصحابه ليختبر ماعندهم من العلم ٢٦/١ رقم الحديث ٦٢ .

فقوله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : "ان من الشجر شجرة لايسقط ورقها ، وانها مثل المسلم ، حدثونى ماهى ؟" أى بينوا لى ماهى تلك الشجرة التى أشبه ماتكون بالمسلم .

فكما ترى أنه صلى الله عليه وسلم طرح السؤال على الحاضرين وحفه ببعض القرائن التى تقرب الاجابة الى الأذهان فوصف الشجرة بأنها لايسقط ورقها ، فالسؤال والحالة هذه يوحى بالاجابة من غير مشقة .

يقول الحافظ ابن حجر : "ينبغى للملغز أن يتفطن لقرائن الأحوال الواقعة عند السؤال ، وأن الملغز ينبغى له أن لايبالغ فى التعمية بحيث لايجعل للملغز بابا يدخل منه ، بل كلما قربه كان أوقع فى نفس سامعه " (١) .

"فوقع الناس فى شجر البوادى" أى ذهبت أفكارهم فى أشجار البادية فجعل كل واحد منهم يفسرها بنوع من الأنواع ، وذهلوا عن النخلة الا عبد الله بن عمر فقد وقع فى نفسه أنها النخلة ، الا أنه لم يقل ذلك حياءا لأنه كان أصغر الحاضرين ، وكان فى المجلس أبوه وأبو بكر وغيرهما من كبار الصحابة رضى الله عنهم (٢) .

فلما عجز القوم عن الاجابة الصحيحة طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم الاجابة ، فأجاب المربى عليه الصلاة والسلام وبين لهم أنها النخلة .

---

(١) فتح البارى ١٤٦/١ .
(٢) فتوقير الكبير ، وتقديم الصغير أباه فى القول ، وأنه لايبادره بما فهمه وان ظن أنه الصواب ، من محاسن الأخلاق وكريم الخصال ، وأن العالم الكبير قد تخفى عليه بعض مايدركه من هو أصغر منه وأقل منه علما ، لأن العلم مواهب يؤتيها الله من يشاء .
انظر : فتح البارى ١٤٧/١ .

"فضرب الأمثال والأشباه لزيادة الافهام ، وتصوير المعانى لترسخ فى الذهن ، ولتحديد الفكر فى النظر فى حكم الحادثة وأن تشبيه الشىء بالشىء لايلزم أن يكون نظيره من جميع وجوهه ، فان المؤمن لايماثله شىء من الجمادات ولايعادله ". (١)

قال القرطبى : "فوقع التشبيه بينهما من جهة أن أصل دين المسلم ثابت ، وأن مايصدر عنه من العلوم والخير قوت للأرواح مستطاب ، وأنه لايزال مستورا بدينه ، وأنه ينتفع بكل مايصدر عنه حيا وميتا ". (٢)

فينبغى استعمال هذا الأسلوب فى التربية الايمانية ، لأن رسول الله استعملها فى بيان الايمان ، فالانسان لايساوى شيئا بغير دينه وايمانه ، وهو بايمانه استحق التكريم والرفعة فى هذه الأرض ، لأنه بهذا الايمان يكون نافعا لنفسه معطاء لغيره ، ولو بكف شره عن الناس ، فهو مثله مثل هذه النخلة الطيبة فان كل مايتعلق بها نافع من ظلها وطيب ثمرها وجودته وتنوعه ولذته ، ومن خشبها وورقها ، وأغصانها ، ونواتها كل هذه منافع وخير وجمال . (٣)

---

(١) فتح البارى ١٤٧/١ بتصرف يسير .

(٢) فتح البارى ١٤٧/١ .

(٣) "قال العلماء : وشبه النخلة بالمسلم فى كثرة خيرها ودوام ظلها وطيب ثمرها ووجوده على الدوام ، فانه من حين يطلع ثمرها لايزال يؤكل منه حتى ييبس ، وبعد أن ييبس يتخذ منه منافع كثيرة ، ومن خشبها وورقها وأغصانها فيستعمل جذوعا وحطبا وعصيا ومخاصر وحصرا وحبالا وأوانى وغير ذلك ، ثم آخر شىء منها نواها وينتفع به علفا للابل ثم جمال نباتها وحسن هيئة ثمرها فهى منافع كلها ، وخير وجمال ، كما أن المؤمن خير كله من كثرة طاعاته ، ومكارم أخلاقه ، ويواظب على صلاته وصيامه وقراءته وذكره والصدقة والصلة وسائر الطاعات وغير ذلك ، فهذا هو الصحيح فى وجه التشبيه ". صحيح مسلم بشرح النووى ١٥٤/١٧ .

هكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخالط أصحابه ويربيهم على كثير من المسائل بصورة مشوقة الى قلوبهم ، وكان يدربهم على التفكر والتأمل والنظر ، ثم يبين لهم بعد ذلك ان لم يفهموا ماأراد ، فيكون ذلك أوقع فى نفوسهم ، وأحفظ لما أراد صلى الله عليه وسلم .

فعلى الدعاة اليوم الاستفادة من منهج الرسول صلى الله عليه وسلم فى تربية من ولاهم الله تعالى تعليمه وتأديبه ، وعليهم أن يدربوهم على طول التفكر والتأمل وحسن النظر فيما يلقى اليهم .

وفى جلسة أخرى يلفت المربى عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، انتباه السامعين من الصحابة رضوان الله عليهم ، وهو يحذرهم من أن يقعوا فى أمر خطير وهو الافلاس فى الدرجات العلى فى الدار الآخرة ، وخسارة المسلم من حسناته ، بسبب عدم ضبطه لجوارحه التى أمره الله بأن يضبطها ويحافظ عليها ولايطلقها الا فى طاعة ربه ومولاه سبحانه وتعالى ، وفى حدود الأوامر والنواهى الشرعية . فيحفظ جوارحه من الشتم والقذف وأكل مال الناس بالباطل ، والتعدى عليهم بغير حق .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أتدرون ماالمفلس ؟" قالوا : المفلس فينا من لادرهم له ولامتاع . فقال : "المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فان فنيت حسناته قبل أن يقضى ماعليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار" (١) .

---

(١) رواه مسلم فى ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، ١٥ - باب تحريم الظلم ١٩٩٧/٤ رقم الحديث ٢٥٨١ .

ففي هذا الحديث يتوجه صلى الله عليه وسلم الى أصحابه بصيغة سؤال فيقول : "أتدرون ما المفلس ؟" .

فيجيب الصحابة رضى الله عنهم بقولهم : المفلس فينا من لادرهم له ولامتاع .

فيجيبون بحسب مايعرفونه عن "المفلس" عرفا ، بأنه الذى لايملك درهما ولامتاعا .

قال فى النهاية : "المتاع : هو كل ماينتفع به من عروض الدنيا قليلها وكثيرها" (١) .

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم معلما ومربيا لأصحابه بأن هذا الافلاس الذى قلتم ليس هو حقيقة الافلاس ، وان كان يطلق عليه عرفا بأنه افلاس ، لأن هذا الأمر وهو الحرمان من المال والمتاع سيزول وينقطع بموت الانسان ، وربما ينقطع بيسار وغنى يحصل للعبد بعد الفقر والحرمان من متاع الدنيا فى حياته قبل موته (٢) . ولذا فهو افلاس مؤقت على كل حال .

وأما الافلاس الحقيقى فهو الافلاس فى الحسنات والدرجات العلى فى الدار الآخرة {يوم لاينفع مال ولابنون الا من أتى الله بقلب سليم} (٣) . يوم يكون القصاص ، فتؤخذ حسناته لغرمائه الذين ظلمهم وتعدى عليهم فى الحياة الدنيا بانتهاك الأموال أو الأعراض أو الأنفس ، حتى اذا فرغت وانتهت حسناته أخذ من سيئاتهم فوضعت عليه ، ثم يلقى فى النار فتتم خسارته وهلاكه وافلاسه ، وهذا هو المفلس فى الحقيقة .

---

(١) النهاية فى غريب الحديث ٢٩٣/٤ .

(٢) انظر : دليل الفالحين ٥٤٠/١ ، المكتبة العلمية ١٤٠٢هـ .

(٣) سورة الشعراء : آية ٨٩

قال بعض العارفين عند هذا الحديث : "انه فيه تشديد وفيه للعقلاء غاية الوعيد ، فان الانسان قل أن تسلم أفعاله وأقواله من الرياء ومكايد الشيطان ، وان سلمت له خصلة فقل أن يسلم من أذية الخلق ، فاذا كان يوم القيامة وقد سلمت له خصلة مع قلة سلامتها ، طلب خصمك تلك الحسنة وأخذها منك بحكم مولاك عليك ، فانه لامال يوم القيامة تؤدى منه ماعليك بل من حسناتك يامغبون ان كنت صائما بالنهار ، قائما بالليل ، جادا فى طاعة الرحمن ، وقل أن تسلم من غيبة المسلمين وأذيتهم وأخذ مالهم ، هذا حال من كان جادا فى الطاعات . فكيف من كان مثلنا جادا فى جمع السيئات من أكل الحرام والشبهات ، والتقصير فى الطاعات والاسراع الى المخالفات" . انتهى (١)

وفى هذا تربية لدعاة اليوم بأن يلاحظوا أخلاق وتصرف من ولاهم الله تعالى تربيته وتعليمه ، فيربوهم على طهارة اللسان من الغيبة والنميمة والشتم والسباب ، والقذف ، ويدربوهم على أكل الحلال ، والابتعاد عن الحرام بكل صوره وأشكاله ، ويحيوا فيهم الخشية والتقوى من الله تعالى حتى يكونوا أفرادا صالحين مصلحين مؤثرين فى الناس من حولهم بسمتهم الحسن ، وتصرفاتهم الرزينة النظيفة ، وجميع أفعالهم وتصرفاتهم .

ويربوهم على التأنى وعدم الاستعجال فى الحكم على المسائل والأشخاص الا بعد أن يجمعوا أطراف الأدلة فى الموضوع وجميع الجرح والتعديل فى الأشخاص ، ثم يحكموا بعد ذلك .

---

(١) دليل الفالحين ١/٥٤١ .

وفى هذا سلامة لهم فى أنهم سلكوا الطريق الصحيح الذى أمرهم به الله تعالى فى كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهو العدل فى كل شىء . قال الله تعالى : {وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا} (١) . وسلامة لغيرهم فى أنهم لم يقولوا الا الحق ، ولم يقرروا الا الواقع .

وفى مرة من المرات يلفت الرسول صلى الله عليه وسلم ، نظر أصحابه الى خطر الغيبة بسؤاله اياهم عنها .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أتدرون ما الغيبة ؟" قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : "ذكرك أخاك بما يكره " ، قيل : أفرأيت ان كان فى أخى ما أقول ؟ قال : "ان كان فيه ماتقول فقد اغتبته ، وان لم يكن فيه فقد بهته" (٢) .

ففى هذا الحديث يطرح المربى صلى الله عليه وسلم على تلاميذه سؤالا قال فيه : "أتدرون ما الغيبة ؟" وذلك لكى يلفت نظرهم الى أهمية حرمة الغيبة فى حياتهم ، ولكى يختبر ماعندهم . ثم يربيهم بعد أن يسمع ماعندهم على المقصود الذى يريد أن يوصله اليهم ، والى الأمر الذى يريد أن يربيهم عليه .

فأجاب الصحابة رضوان الله عليهم كعادتهم فيما لايعلمونه بقولهم : "الله ورسوله أعلم" .

فلما سكت الصحابة أجابهم المعلم صلى الله عليه وسلم بقوله : "الغيبة ذكرك أخاك بما يكره" .

---

(١) سورة البقرة : آية ١٤٣

(٢) رواه مسلم فى ٤٥ ـ كتاب البر والصلة ، والآداب ، ٢٠ ـ باب تحريم الغيبة ٢٠٠١/٤ رقم الحديث ٢٥٨٩ .

قال ابن التين : "الغيبة ذكر المرء بما يكرهه بظهر الغيب" (١) .

والغيبة محرمة ، والدليل قوله تعالى : {ولايغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ، واتقوا الله ان الله تواب رحيم} (٢) .

وحديث أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لما عرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم ، قلت : من هؤلاء ياجبريل؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم" (٣) .

فالغيبة والنميمة محرمتان باجماع المسلمين ، وقد تظاهرت الأدلة على ذلك (٤) .

وقال الحسن البصرى : "ذكر الغير ثلاثة : الغيبة ، والبهتان ، والافك . وكل فى كتاب الله تعالى . فالغيبة أن تقول مافيه ، والبهتان إن تقول ماليس فيه ، والافك أن تقول مابلغك" (٥) .

والغيبة لاتقتصر على اللسان فقط بل كل ماأدى اليها من قول أو فعل أو تعريض أو كتابة أو اشارة أو غمز أو ايماء كل ذلك حرام .

يقول الامام الغزالى : "اعلم أن الذكر باللسان ، انما حرم لأن فيه تفهيم الغير نقصان أخيك ، وتعريفه بما يكرهه ، فالتعريض به كالتصريح ، والفعل فيه كالقول ، والاشارة والايماء والغمز والهمز والكتابة والحركة ، وكل مايفهم

---

(١) فتح البارى ٤٦٩/١٠ .
(٢) سورة الحجرات : آية ١٢
(٣) أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب ، باب الغيبة حديث رقم ٤٨٧٨ ، ٢٦٩/٤ ، وذكره النووى فى كتاب الأذكار ص ٢٩٠ ، دار الفكر ، الطبعة الأولى .
(٤) انظر كتاب الأذكار ص ٢٨٨ .
(٥) احياء علوم الدين ١٦٠٧/٣ ، دار الكتاب العربى .

المقصود ، فهو داخل فى الغيبة ، وهو حرام " (١) .

وبعد أن أجاب الرسول صلى الله عليه وسلم عن الغيبة وبين للأصحاب أنها "ذكرك أخاك بما يكره" فقال أحدهم - رضى الله عنهم - لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أفرأيت ان كان فى أخى ما أقول ؟ فأجاب الرسول بقوله : "ان كان فيه ماتقول فقد اغتبته ، وان لم يكن فيه ماتقول فقد بهته " .

فوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه أنه اذا كان فى الشخص ماقاله عنه فهذه هى الغيبة التى بينها رسول الله فى أول الحديث "وهى ذكرك أخاك بما يكره" ، وأما اذا لم يكن فيه ماقيل عنه ، فهذا هو الباطل بعينه وهو الصاق شىء بأخيك المسلم وهو منه براء .

والبهتان أشد اثما من الغيبة ، لأنه تقول على عرض المسلم بغير علم ولابينة .

هكذا ربى النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه على التحلى بالأخلاق الفاضلة والحسنة ، والبعد كل البعد عن الأخلاق السيئة وعن كل ماليس فيه فائدة ، حتى خرج لنا ذلك الجيل الفريد فى التاريخ كله نتاجا مباركا بسبب تلك العناية التى بذلها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه بتأييد من الله تبارك وتعالى وعون وتوفيق منه سبحانه . ومن أراد التأكد من ذلك فليقرأ سير هؤلاء الأبطال صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتب التراجم وكتب السير فسيجد عجبا عجابا مما اتصف به أولئك الأخيار .

---

(١) احياء علوم الدين ١٦٠٧/٣ .

"وكانوا رضى الله عنهم يتلاقون بالبشر ، ولايغتابون عند الغيبة ، ويرون ذلك أفضل الأعمال ، ويرون خلافه عادة المنافقين ... ويقول بعض أهل العلم : أدركنا السلف وهم لايرون العبادة فى الصوم ولافى الصلاة ، ولكن فى الكف عن أعراض الناس ، وكان يقول عبد الله بن عباس : اذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك ، فاذكر عيوبك . وقال أبو هريرة : يبصر أحدكم القذى فى عين أخيه ، ولايبصر الجذع فى عين نفسه .

وكان الحسن يقول : ابن آدم انك لن تصيب حقيقة الايمان حتى لاتعيب الناس بعيب هو فيك ، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك ، فاذا فعلت ذلك ، كان شغلك فى خاصة نفسك وأحب العباد الى الله من كان هكذا ..." (١) .

---

(١) احياء علوم الدين ٣/١٦٠٤،١٦٠٥ بتصرف يسير .

الطريقة الثانية :

تلقيه صلى الله عليه وسلم الأسئلة المطروحة عليه من قبل بعض الصحابة رضوان الله عليهم ، ثم اجابته عليها بما يفيد السائل والسامع .

وفى هذه الطريقة يسأل النبى صلى الله عليه وسلم فيجيب بما يفيد السائل والسامع فى أمور مهمة فى العقيدة وفى الأخلاق وفى المبادىء الاسلامية ، فمن ذلك سؤال جبريل عليه السلام .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم بارزا يوما للناس ، فأتاه رجل فقال : ما الايمان ؟ قال : الايمان أن تؤمن بالله وملائكته ، وبلقائه ورسله ، وتؤمن بالبعث . قال : ما الاسلام ؟ قال : الاسلام أن تعبد الله ولاتشرك به ، وتقيم الصلاة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان . قال : ما الاحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك . قال : متى الساعة ؟ قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل . وسأخبرك عن أشراطها : اذا ولدت الأمة ربها ، واذا تطاول رعاة الابل البهم فى البنيان ، فى خمس لايعلمهن الا الله . ثم تلا النبى صلى الله عليه وسلم : {ان الله عنده علم الساعة} الآية . ثم أدبر . فقال ردوه . فلم يروا شيئا . فقال : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم" (١) .

---

(١) رواه البخارى فى ٢ ـ كتاب الايمان ، ٣٨ ـ باب سؤال جبريل النبى صلى الله عليه وسلم عن الايمان والاسلام والاحسان وعلم الساعة ، وبيان النبى صلى الله عيوم له ٢٢/١ رقم الحديث ٥٠ .
ورواه مسلم فى ١ ـ كتاب الايمان ، ١ ـ باب بيان الايمان والاسلام والاحسان ووجوب الايمان باثبات قدر الله سبحانه وتعالى ٣٩/١ رقم الحديث ٩ .

وفي حديث جبريل حين جاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم في صورة رجل غريب ، فسأله عن الايمان والاسلام والاحسان وعن وقت الساعة ، مايتضمن عرض عقيدة الايمان وأركان الاسلام ومعيار الاحسان . وهي أمور مهمة ينبغي أن تتقرر في نفوس السامعين ، وليتعلموا كيف يجيبون عنها اذا سئلوا عندما يتصدون للدعوة الى الله تعالى ، وهو مقصود هام من هذه الأسئلة ، ولذا جاء في نهاية الحديث قوله صلى الله عليه وسلم : "هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم" .

وهذا يؤكد ماسبق أن ذكرته من أن السؤال والجواب من الوسائل الهامة للعلم والتعليم .

وفي هذا تربية للدعاة الى الله تعالى بأن يستغلوا فرصة سؤال السائل في تعليم من حولهم من طلبة العلم أو من العامة ماينفعهم في تفقيههم في دين الله تعالى بطريق غير مباشر . وهذا أبلغ في تأثير النفس مما لو كان خطابا مباشرا .

وأن يكون هم الداعية الى الله تعالى شاملا السائل والسامع معا ، وأن لاينحصر همه في افادة السائل دون السامعين .

وفي حديث جبريل هذا من الفوائد أيضا أنه يجوز أن يسأل العالم بما لايجهله السائل لتعليم السامع ، لفعل جبريل عليه السلام . وفيه أيضا أن المسئول ان سئل عما لايعلمه أجاب بأنه لايعلمه وذلك لاينقص من قدره . فان النبي صلى الله عليه وسلم عندما سئل متى الساعة ؟ قال : "ما المسئول عنها بأعلم من السائل" . وهذا من تواضعه صلى الله عليه وسلم ، وحسن خلقه بأن أشار الى أنه لايعلم ذلك ،

ومن هنا ينبغي للداعية الى الله تعالى والعالم أن لايستحيوا اذا سئلوا عما لايعلموا أن يقولوا لانعلم ، فان في ذلك خير كثير لهم ، ولمن اقتدى بهم وسار على طريقهم واهتدى بهداهم قال النووي : "يستنبط منه أن العالم اذا سئل عما لايعلم يصرح بأنه لايعلمه ، ولايكون في ذلك نقص من مرتبته ، بل يكون ذلك دليلا على مزيد ورعه" (١) .

وجبريل عليه السلام عندما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا السؤال مع علمه بأن النبي صلى الله عليه وسلم لايعلم جوابه ، وانما سأله عن ذلك ليكف السامعين عن السؤال عن وقت الساعة ، وأن يتركوا الانشغال بذلك ، ويشتغلوا فيما يكون لهم فيه خير ومنفعة .

قال القرطبي : "ومقصود هذا السؤال كف السامعين عن السؤال عن وقت الساعة ، لأنهم قد أكثروا السؤال عنها كما ورد في كثير من الآيات والأحاديث ، فلما حصل الجواب بما ذكر هنا حصل اليأس من معرفتها ، بخلاف الأسئلة الماضية ، فان المراد بها استخراج الأجوبة ليتعلمها السامعون ويعملوا بها ونبه بهذه الأسئلة على تفصيل مايمكن معرفته مما لايمكن" (٢) .

ومن فوائد هذا الحديث أيضا أن الاجابة قد تتضمن زيادة على السؤال ان اقتضت المصلحة ذلك .

فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للسائل : "وسأخبرك عن أشراطها" أي عن علاماتها . وهي على قسمين : علامات صغرى قبل قيام الساعة ، وعلامات كبرى مقاربة ومضايقة لقيام الساعة . والمقصود في الحديث العلامات الصغرى .

---

(١) ، (٢) فتح الباري ١٢١/١ .

فالجواب قد تضمن زيادة على السؤال ، وذلك للاهتمام به ارشادا للأمة لما يترتب على معرفة ذلك من المصلحة (١) .

ومما يؤكد اهتمام المربى العظيم صلى الله عليه وسلم على تربية أصحابه تربيته لهم على أدب السؤال ، مارواه الصحابى الجليل أنس بن مالك رضى الله عنه بقوله : "نهينا أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شىء ، فكان يعجبنا أن يجىء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع ، فجاء رجل من أهل البادية ، فقال : يامحمد أتانا رسولك ، فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك ، قال : صدق ، قال : فمن خلق السماء ؟ قال : الله . قال : فمن خلق الأرض؟ قال : الله . قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ماجعل ؟ قال : الله . قال : فبالذى خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال ، آلله أرسلك ؟ قال : نعم . قال : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات فى يومنا وليلتنا . قال : صدق . قال : فبالذى أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قال : وزعم رسولك أن علينا زكاة فى أموالنا . قال : صدق . قال : فبالذى أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قال : وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان فى سنتنا . قال : صدق . قال فبالذى أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قال : وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع اليه سبيلا . قال : صدق .

قال : ثم ولى ، وقال : والذى بعثك بالحق لاأزيد عليهن ولاأنقص منهن . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لئن صدق

---

(١) فتح البارى ١٢٤/١ .

ليدخلن الجنة " .(١)

ففي هذا الحديث يخبرنا أنس بن مالك رضى الله عنه بأنهم - أى الصحابة رضى الله عنهم - نهوا بأن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شئ . فكان يعجبهم رضى الله عنهم أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله وهم يسمعون ، فجاء رجل من أهل البادية ، أى ممن لم يكن بلغه النهى عن السؤال ، وكونه عاقلا بأن يكون عارفا بكيفية السؤال وآدابه والمهم منه وحسن المراجعة . لأن هذه هى أسباب عظم الانتفاع بالجواب .(٢)

فجاء رجل من البادية وهو ضمام بن ثعلبة كما جاء فى رواية الامام البخارى ، فوجه الخطاب الى النبى صلى الله عليه وسلم . ومن هنا تبدأ المحاورة بينه وبين الرسول صلى الله عليه وسل والصحابة يستمعون الى ذلك فى سكينة ووقار ، وشدة انتباه للسؤال والجواب .

فقال ضمام بن ثعلبة : يامحمد أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك .

فأجابه الرسول صلى الله عليه وسلم على الفور قائلا : صدق ، أى رسولى الذى أرسلته اليكم صدق فيما قال وأخبركم به .

"وقول ضمام : زعم ، وتزعم مع تصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم اياه ، دليل على أن زعم ليس مخصوصا بالكذب والقول المشكوك فيه بل يكون أيضا فى القول المحقق والصدق

---

(١) رواه مسلم فى ١ - كتاب الايمان ، ٣ - باب السؤال عن أركان الاسلام ٤١/١ رقم الحديث ١٢ .
وروه البخارى فى ٣ - كتاب العلم ، ٧ - باب القراءة والعرض على المحدث ٢٧/١ رقم الحديث ٦٣ .

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ١٦٩/١ .

الذى لاشك فيه ، وقد جاء من هذا كثير فى الأحاديث ، وعن النبى صلى الله عليه وسلم قال : زعم جبريل كذا .

وقد أكثر سيبويه وهو امام العربية فى كتابه الذى هو امام كتب العربية من قوله زعم الخليل ، زعم أبو الخطاب يريد بذلك القول المحقق ، وقد نقل ذلك جماعات من أهل اللغة وغيرهم ، ونقله أبو عمر الزاهد فى شرح الفصيح عن شيخه أبى العباس ثعلب عن العلماء باللغة من الكوفيين والبصريين والله أعلم" . انتهى (١)

ثم سأل ضمام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : فمن خلق السماء ؟ فأجابه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله الله .

ثم قال الرجل : فمن خلق الأرض ؟ فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : الله . فقال ضمام : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ماجعل ؟

فأجابه النبى صلى الله عليه وسلم قائلا : الله .

"قال القاضى عياض : والظاهر أن هذا الرجل - أى ضمام ابن ثعلبة - لم يأت الا بعد اسلامه ، وانما جاء مستثبتا ومشافها للنبى صلى الله عليه وسلم والله أعلم" . (٢)

ثم رجع ضمام بن ثعلبة الى محاورة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا له : فبالذى خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال آلله أرسلك ؟

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : نعم .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ١٧٠/١ .
(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ١٧١/١ .

قال ضمام : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات فى يومنا وليلتنا ، أى أنها متكررة فى كل يوم وليلة .

قال صلى الله عليه وسلم : صدق .

فقال ضمام : فبالذى أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ أى بالصلوات الخمس .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : نعم .

فقال ضمام : وزعم رسولك أن علينا زكاة فى أموالنا .

فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : صدق .

فقال ضمام : فبالذى أرسلك آلله أمرك بهذا ؟

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : نعم .

فقال ضمام : وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان فى سنتنا .

قال صلى الله عليه وسلم : صدق .

فقال ضمام : فبالذى أرسلك آلله أمرك بهذا ؟

فأجاب النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : نعم .

فقال ضمام : وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع اليه سبيلا .

قال صلى الله عليه وسلم : صدق .

وبهذا تكون المحاورة قد انتهت ، وأن ضمام انتهى من مساءلة الرسول صلى الله عليه وسلم فقال بعد ذلك : "آمنت بما جئت به" (١) . كما هى فى رواية الامام البخارى ، وعند مسلم قال : "والذى بعثك بالحق لاأزيد عليهن ، ولاأنقص منهن" (٢) .

فهذه جملة تدل على أنواع من العلم .

---

(١) سبق تخريجه ص ٦٥ .
(٢) سبق تخريجه ص ٦٥ .

قال الامام النووى : "قال صاحب التحرير : هذا من حسن سؤال هذا الرجل وملاحة سياقته وترتيبه ، فانه سأل أولا عن صانع المخلوقات من هو ، ثم أقسم عليه به أن يصدقه فى كونه رسولا للصانع ، ثم لما وقف على رسالته وعلمها أقسم عليه بحق مرسله ، وهذا ترتيب يفتقر الى عقل رصين ، ثم ان هذه الأيمان جرت للتأكيد وتقرير الأمر لالافتقاره اليها كما أقسم الله تعالى على أشياء كثيرة " . انتهى (١)

وقال الحافظ : "وكرر القسم فى كل مسألة تأكيدا وتقريرا للأمر ، ثم صرح بالتصديق ، فكل ذلك دليل على حسن تصرفه وتمكن عقله ، ولهذا قال عمر بن الخطاب فى رواية أبى هريرة : "مارأيت أحدا أحسن مسألة ولاأوجز من ضمام" (٢) .

وفى هذا تربية من النبى صلى الله عليه وسلم للصحابة رضى الله عنهم على تعليم العلم ، وأدب المحاورة ، وأن العلم سؤال وجواب ، وأنه انما نهاهم عن السؤال اذا كان لافائدة فيه ، كسؤال بعضهم عن أبيه هل هو فى الجنة أم فى النار ، وغير ذلك ، فنهوا عن الأسئلة التى لاينبنى عليها عمل .

"والمسألة على وجهين :

أحدهما : ماكان على وجه التبين والتعلم فيما يحتاج اليه من أمر الدين ، فهو جائز مأمور به ، قال الله تعالى {فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون} (٣) ، وقال تعالى : {فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك} (٤) .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ١٧١/١ .
(٢) فتح البارى ١٥١/١ .
(٣) سورة النحل : آية ٤٣
(٤) سورة يونس : آية ٩٤

وقد سأل الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم مسائل فأنزل الله سبحانه وتعالى بيانها فى كتابه ، كما قال الله عز وجل : {يسألونك عن الأهلة} (١) ، وقوله : {يسألونك عن المحيض} (٢) ، وقوله : {يسألونك عن الأنفال} (٣) .

والوجه الآخر : ماكان على وجه التكلف ، فهو مكروه ، فسكوت صاحب الشرع عن الجواب فى مثل هذا زجر وردع للسائل ، فاذا وقع الجواب ، كان عقوبة وتغليظا . والمراد من الحديث هذا النوع من السؤال" (٤) .

وفى الحديث أنه يكتفى من العامة بالاعتقاد المجمل دون تفصيل .

"قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله تعالى : وفى الحديث دلالة لصحة ماذهب اليه أئمة العلماء من أن العوام المقلدين مؤمنون ، وأنه يكتفى منهم بمجرد اعتقاد الحق جزما من غير شك وتزلزل خلافا لمن أنكر ذلك من المعتزلة ، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم قرر ضماما على ما اعتمد عليه فى تعرف رسالته وصدقه ، ومجرد اخباره اياه بذلك ولم ينكر عليه ذلك ، ولاقال يجب عليك معرفة ذلك بالنظر فى معجزاتى والاستدلال بالأدلة القطعية" (٥) .

ولذا فينبغى للدعاة الى الله تعالى أن يوجهوا من ولاهم الله تعالى تربيته وتعليمه ، الى الاشتغال بما هو مفيد ، وأن يبتعدوا عن الخوض فيما لافائدة فيه ، وفيما لاينبنى عليه عمل . فان كل مسألة لاينبنى عليها عمل فى

---

(١) سورة البقرة : آية ١٨٩
(٢) سورة البقرة : آية ٢٢٢
(٣) سورة الأنفال : آية ١
(٤) شرح السنة للامام البغوى ٣١٠/١، ٣١١ ، المكتب الاسلامى ، الطبعة الثانية .
(٥) صحيح مسلم بشرح النووى ١٧١/١ .

الدنيا أو فى الآخرة فالخوض فيها باطل ، فلزم توجيههم وحثهم الىماينفعهم فى دينهم ودنياهم .

ومما يؤكد اهتمام المربى الكبير صلى الله عليه وسلم أيضا بتربية أصحابه على السؤال عما ينفعهم ماورد فى الحديث الذى رواه الصحابى الجليل أنس بن مالك رضى الله عنه أن رجلا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم وهو جالس مع أصحابه ، فسأله عن وقت الساعة .

قال رضى الله عنه : "أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الساعة ، فقال : متى الساعة ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وماذا أعددت لها ؟ قال : لاشىء الا أنى أحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . فقال صلى الله عليه وسلم : أنت مع من أحببت . قال أنس : فما فرحنا بشىء فرحنا بقول النبى صلى الله عليه وسلم : أنت مع من أحببت ، قال أنس : فأنا أحب النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر . وأرجو أن أكون معهم بحبى اياهم وان لم أعمل بمثل أعمالهم (١) " .

وفى هذا الحديث دليل على وجوب الرجوع الى العلماء وسؤالهم عن أمور الدين لكل من جهل أحكامه . قال الله تعالى : {فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون} (٢) .

فأجاب المربى صلى الله عليه وسلم السائل برفق ووجه عنايته وعناية السامعين الى مايعود عليهم جميعا بالفوائد

---

(١) رواه البخارى فى ٦٢ ـ كتاب فضائل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، ٦ ـ باب مناقب عمر بن الخطاب ٢٤١/٤ رقم الحديث ٣٦٨٨ .
ورواه مسلم فى ٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب ، ٥٠ ـ باب المرء مع من أحب ٢٠٣٢/٤ رقم الحديث ٢٦٣٩ .

(٢) سورة النحل : آية ٤٣

العظيمة فقال للسائل : وماذا أعددت لها ؟ أى ما العمل الصالح الذى أعددته لتلقى جزاءه وثوابه اذا قامت القيامة وفى هذا كمال نصح الرسول صلى الله عليه وسلم وشفقته على أمته وارشادهم الى مافيه فوزهم وسعادتهم .

قال الكرمانى : "سلك مع السائل أسلوب الحكيم ، وهو تلقى السائل بغير مايطلب مما يهمه أو هو أهم" (١) . انتهى

وفى هذا تربية للدعاة الى الله تعالى بأن لايكون هم أحدهم السرعة فى الاجابة على السائل ، وانما ينبغى التريث والتؤده فى الجواب وحسن التصرف وتوجيه الجواب لما يعود على السائل والسامعين بما يفيدهم فى دنياهم وآخرتهم ، وأن السؤال عن موعد الساعة لايتعلق به عمل ، وانما يقصد الشارع الحكيم من ذكر الاستعداد لها للفت النظر الى ماهو أولى بالسؤال والاهتمام لما له فائدة على المكلف .

ثم أجاب الرجل على سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : لاشىء الا أنى أحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

أى أنى ما أعددت لها كثير نافلة من صلاة ولاصيام ولاصدقة لأنه لايمكن أن يجتمع فى قلب مسلم حب الله ورسوله وترك الفرائض التى أمر الله بها ورسوله ، لقول الله تعالى : {قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم} (٢) .

قال ابن كثير : "هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية ، فانه كاذب

---

(١) فتح البارى ٥٦٠/١٠ .
(٢) سورة آل عمران : آية ٣١

في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد" (١) ... وقال الحسن البصري وغيره من السلف : زعم قوم أنهم يحبون الله ، فابتلاهم الله بهذه الآية فقال : {قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله}" (٢) .

فتبين من هذا أن قصد الرجل بقوله : "لاشيء الا أني أحب الله ورسوله" : "أي ماأعددت لها كثير صلاة ولاصيام ولاصدقة أي غير الفرائض معناه ماأعددت لها كثير نافلة من صلاة ولاصيام ولاصدقة" (٣) . الا أني شديد الحب لله ورسوله .

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم للرجل ، والصحابة يسمعون : أنت مع من أحببت . وفي هذا التوجيه النبوي تربية للصحابة رضوان الله عليهم على عظم شأن محبة الله ورسوله ، وأنها ملاك الأمر كله ، بل أساسه وقاعدته كما جاء في الحديث الصحيح : "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لايحبه الا لله وأن يكره أن يعود في الكفر بعد اذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار" (٤) .

---

(١) أخرجه البخاري في ٩٧ ـ كتاب الاعتصام ، ٢٠ ـ باب اذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ خلاف الرسول صلى الله عليه وسلم من غير علم فحكمه مردود ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم : "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد" ١٩٨/٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣٥٨/١ ، دار المعرفة ، الطبعة الأولى.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١٨٦/١٦،١٨٧ .

(٤) رواه البخاري في ٢ ـ كتاب الايمان ، ١٤ ـ باب من كره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار من الايمان ١٣/١ رقم الحديث ٢١ .
ورواه مسلم في ١ ـ كتاب الايمان ، ١٥ ـ باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الايمان ٦٦/١ رقم الحديث ٤٣ .

وفي قوله صلى الله عليه وسلم : "أنت مع من أحببت" توجيه عناية الصحابة رضى الله عنهم الى محبة الحق وأهله ليحظوا بالسعادة والفوز من عذاب الله تعالى ، ويكسبوا محبة الله ورضاه ، لأن المرء مع من أحب .

ولذا فرح الصحابة رضى الله عنهم بهذا التوجيه النبوى الكريم أشد الفرح ، كما صور لنا حقيقة ذلك الصحابى الجليل أنس بن مالك رضى الله عنه بقوله : فما فرحنا بشىء فرحنا بقول النبى صلى الله عليه وسلم : "أنت مع من أحببت" ، وفى صحيح مسلم قال أنس : فما فرحنا بعد الاسلام فرحا أشد من قول النبى صلى الله عليه وسلم : "فانك مع من أحببت" (١) .

قوله : "أنت مع من أحببت" قال الحافظ ابن حجر :

"اى ملحق بهم حتى تكون من زمرتهم ، وبهذا يندفع ايراد أن منازلهم متفاوتة ، فكيف تصح المعية ؟ فيقال : ان المعية تحصل بمجرد الاجتماع فى شىء ما ولاتلزم فى جميع الأشياء ، فاذا اتفق أن الجميع دخلوا الجنة صدقت المعية وان تفاوتت الدرجات" (٢) . انتهى

ثم قال أنس : فأنا أحب النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر .

فجمع أنس رضى الله عنه بين النبى صلى الله عليه وسلم وصاحبيه فى المحبة ، ومحبتهما رضى الله عنهما هى من محبة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأن المحبة الصادقة تقتضى موافقة المحبوب فى محبة مايحبه ، وبغض مايبغضه ،

---

(١) سبق تخريجه ص ٧٠ .
(٢) فتح البارى ١٠/٥٥٥ .

وأبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما هما حبيباه وصاحباه صلى الله عليه وسلم ، وقد جمع الله تعالى بين النبى صلى الله عليه وسلم وصاحبيه رضى الله عنهما فى الدنيا فدفنا بجواره صلى الله عليه وسلم ، وهما معه ان شاء الله تعالى فى الجنة ، وهما من أفضل من ولدته النساء بعد الأنبياء والمرسلين ، وأفضلهما أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وبعده عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وبعد عمر فى الفضل عثمان رضى الله عنه ، ثم على رضى الله عنه وعن سائر الصحابة أجمعين ، وذلك لأنه "لاخفاء برجحان رتبة من لازمه صلى الله عليه وسلم ، وقاتل معه ، أو قتل معه تحت رايته ، على من لم يلازمه ، أو لم يحضر معه مشهدا ، وعلى من كلمه يسيرا ، أو ماشاه قليلا ، أو رآه على بعد ، أو فى حالة الطفولية ، وان كان شرف الصحبة حاملا للجميع ، ومن ليس له منهم سماع منه ، فحديثه مرسل من حيث الرواية ، وهم مع ذلك معدودون فى الصحابة ، لما نالوه من شرف الرؤية " (١). انتهى

فعلى الدعاة الى الله تعالى أن يبينوا للناس عامة ، ولطلاب العلم خاصة بأن محبة الله ورسوله ، ليست دعوى باللسان ، ولاهياما فى الوجدان ، وأن الاسلام ليس كلمات تقال باللسان ، ولاشعائر تقام ، ولكنه مع هذا هو طاعة لله والرسول ، وعمل بمنهج الله تعالى الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن محبة الله تعالى تستلزم محبة طاعته ، فانه يحب من عبده أن يطيعه ، والمحب يحب محبوبه

---

(١) شرح النخبة ص ٢٨ ، دار الكتب العلمية .

ولابد ، ومن لوازم محبة الله تعالى أيضا محبة أهل طاعته .

قال شارح الطحاوية : "فمحبة رسول الله وأنبيائه وعباده المؤمنين من محبة الله ، وان كانت المحبة التى لله لايستحقها غيره ، فغير الله يحب فى الله لامع الله ، فان المحب يحب مايحب محبوبه ، ويبغض مايبغض ، ويوالى من يواليه ، ويعادى من يعاديه ، ويرضى لرضاه ويغضب لغضبه ، ويأمر بما يأمر به ، وينهى عما ينهى عنه ، فهو موافق لمحبوبه فى كل حال ، والله يحب المحسنين ، ويحب المتقين ، ويحب التوابين ، ويحب المتطهرين ، ونحن نحب من أحبه الله والله لايحب الخائنين ولايحب المفسدين ولايحب المستكبرين ، ونحن لانحبهم أيضا ، ونبغضهم موافقة له سبحانه وتعالى ، فالمحبة التامة مستلزمة لموافقة المحبوب فى محبوبه ومكروهه وولايته وعداوته" . انتهى (١)

فلابد من بيان ذلك للناس ولطلاب العلم حتى يتميز أهل الدين والعقيدة الصحيحة عن غيرهم ممن أدار ظهره لهذا الدين ومنهجه ، واتبع أهواء الذين لايعلمون من الطواغيت بشتى صورها وأشكالها ، فالولاء لله ولرسوله وللمؤمنين ، والبراء ممن عادى الله ورسوله والمؤمنين .

"وأن الانسان لايكون مؤمنا كامل الايمان الواجب حتى تكون محبته تابعة لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الأوامر والنواهى وغيرها ، فيحب ما أمر به ويكره مانهى عنه ، وقد ورد فى القرآن بمثل هذا المعنى فى غير موضع ،

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٣٢-٤٣٣ ، المكتب الاسلامى ، الطبعة السادسة .

قال تعالى : {فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما} (١) . وقال تعالى : {وماكان لمؤمن ولامؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم} (٢) . وذم سبحانه من كره ماأحب الله وأحب ماكرهه الله ، قال الله تعالى : {ذلك بأنهم كرهوا ماأنزل الله فأحبط أعمالهم} (٣) . وقال : {ذلك بأنهم اتبعوا ماأسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم} (٤) .

فالواجب على كل مؤمن أن يحب ماأحب الله محبة توجب له الاتيان بما وجب عليه منه ، فان زادت المحبة حتى أتى بما ندب اليه منه كان ذلك فضلا ، وأن يكره ماكرهه تعالى كراهة توجب له الكف عما حرم عليه منه ، فان زادت الكراهة حتى أوجبت الكف عما كرهه تنزيها كان ذلك فضلا ، والمحبة الصحيحة تقتضي المتابعة والموافقة في حب المحبوبات وبغض المكروهات ، فمن أحب الله ورسوله محبة صادقة من قلبه أوجب له ذلك أن يحب بقلبه مايحبه الله ورسوله ، ويكره ماكرهه الله ورسوله ، وأن يعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض ، فان عمل بجوارحه شيئا يخالف ذلك ، بأن ارتكب بعض مايكرهه الله ورسوله ، أو ترك بعض مايحبه الله ورسوله مع وجوبه والقدرة عليه ، دل ذلك على نقص محبته الواجبة ، فعليه أن يتوب من ذلك ، ويرجع الى تكميل المحبة الواجبة ، فجميع المعاصي انما تنشأ من تقديم هوى النفوس على محبة الله ورسوله " (٥) . انتهى

---

(١) سورة النساء : آية ٦٥
(٢) سورة الأحزاب : آية ٣٦
(٣) سورة محمد : آية ٩
(٤) سورة محمد : آية ٢٨
(٥) جامع العلوم والحكم لابن رجب ٣٩٦/٢ ، الطبعة الثالثة مؤسسة الرسالة .

سؤال حذيفة عن الخير والشر :

عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما قال : "كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى ، فقلت : يارسول الله ، انا كنا فى جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير شر ؟ قال : نعم . فقلت : هل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال : نعم وفيه دخن . فقلت : ومادخنه ؟

قال : قوم يستنون بغير سنتى ، ويهدون بغير هديى . تعرف منهم وتنكر .

فقلت : هل بعد ذلك الخير من شر ؟

قال : نعم ، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم اليها قذفوه فيها .

فقلت : يارسول الله صفهم لنا .

قال : نعم ، قوم من جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا .

قلت : يارسول الله ، فما ترى ان أدركنى ذلك ؟

قال : تلزم جماعة المسلمين وامامهم .

فقلت : فان لم يكن لهم جماعة ولا امام ؟

قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك" (١) .

فحديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنه نموذج جلى للطريقة الحوارية التى كان يستعملها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تعليم أصحابه رضى الله عنهم ، ومن الملاحظ فى

---

(١) رواه البخارى فى ٦١ ـ كتاب المناقب ، ٢٥ ـ باب علامات النبوة فى الاسلام ٢١٤/٤، ٢١٥ رقم الحديث ٣٦٠٦ .
ورواه مسلم فى ٣٣ ـ كتاب الأمارة ، ١٣ ـ باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفى كل حال ١٤٧٥/٣ رقم الحديث ١٨٤٧ .

هذا الحديث أن الحوار يحتويه الى آخره ، فالطالب وهو هنا "حذيفة بن اليمان" رضى الله عنه يسأل . والمعلم وهو الرسول صلى الله عليه وسلم يجيب . وأن الطالب يبنى على اجابة معلمه صلى الله عليه وسلم سؤالا آخر ، ويطلب الاجابة عليه . والمعلم صلى الله عليه وسلم لايتضجر بل يقابل الأسئلة بصدر رحب ، وبحلم وأناة ملاحظا فى ذلك السامعين كذلك فقد أحاطهم باهتمامه وملاحظته ، وهكذا ينبغى أن يكون المربون مع من يعلمونهم الخير ويبينوا لهم الحق .

فيبدأ الحديث بقول حذيفة رضى الله عنه : كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى .

يوضح الصحابى الجليل حذيفة بن اليمان بقوله السابق ، بأن أكثر الصحابة رضى الله عنهم كانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وجوه الخير التى تكون سببا فى نجاتهم وفلاحهم فى الدنيا والآخرة لكى يعملوا بها ويبلغوها غيرهم .

وأنه رضى الله عنه كان خلاف ذلك ، فانه كان يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشر وطرقه ليجتنبه ويحذر منه ويكون سببا فى دفعه عمن أراد الله له النجاة من عباده بسبب ذلك .

"قال ابن أبى جمرة : فى الحديث حكمة الله فى عباده ، كيف أقام كلا منهم فيما شاء ، فحبب الى أكثر الصحابة السؤال عن وجوه الخير ليعملوا بها ويبلغوها غيرهم ، وحبب لحذيفة السؤال عن الشر ليجتنبه ، ويكون سببا فى دفعه عمن

أراد الله له النجاة " .[1]

ومن ثم فان كل من حبب اليه شئ فانه يفوق فيه غيره في الغالب . ولذا كان حذيفة رضى الله عنه صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى خصه صلى الله عليه وسلم بمعرفة أسماء المنافقين ، وبكثير من الأمور التى وقعت بعد وفاته صلى الله عليه وسلم .

ثم بدأت المحاورة بين الرسول صلى الله عليه وسلم وحذيفة رضى الله عنه بقوله : فقلت : يارسول الله ، انا كنا فى جاهلية وشر .

يشير رضى الله عنه الى ماكان قبل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم من الكفر وعبادة غير الله واتباع غير ما أنزل الله تعالى ، وانتشار القتل والنهب واتيان الفواحش بشتى أنواعها .

ثم تابع قائلا : فجاءنا الله بهذا الخير .

يشير رضى الله عنه الى الايمان بالله تعالى وحده ، واتباع ما أنزل الله تعالى واجتناب الفواحش ببعثة النبى صلى الله عليه وسلم وارساله للناس كافة ، وحصول الأمن والأمان وصلاح الحال بسبب ذلك .

ثم تابع المقصود قائلا : فهل بعد هذا الخير من شر ؟

بعد تلك المقدمة اللطيفة التى قدم بها حذيفة حديثه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، تقدم سائلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل يمكن أن يكون شرا بعد هذا الخير الذى نحن فيه . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : نعم .

---

(١) فتح البارى ١٣/٣٧ .

"والمراد بالشر مايقع من الفتن من بعد قتل عثمان رضى الله عنه وهلم جرا ، أو مايترتب على ذلك من عقوبات الآخرة " .(١)

فبنى حذيفة رضى الله عنه على جواب النبى صلى الله عليه وسلم سؤالا آخر فقال : وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ أى هل بعد هذا الشر الذى سيحدث والفتن التى ستحل بهذه الأمة . هل بعد هذه الأمور من خير يستريح المؤمنون فى ظله .

فأجابه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : نعم وفيه دخن .

"والدخن بالمهملة ثم المعجمة المفتوحتين بعدها نون . وهو الحقد ، وقيل الدغل ، وقيل فساد فى القلب ، ومعنى الثلاثة متقارب . يشير الى أن الخير الذى يجىء بعد الشر لايكون خيرا خالصا بل فيه كدر . وقيل المراد بالدخن : الدخان ، ويشير بذلك إلى كدر الحال ، وقيل الدخن كل أمر مكروه " .(٢) انتهى

ثم بنى الطالب سؤالا آخر فقال : ومادخنه ؟

أى ماكدورة هذا الخير ، فأجاب النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : "قوم يهدون بغير هديى ، تعرف منهم وتنكر" .

أى أنهم لايكونوا على الهيئة والسيرة التى كان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانما فيهم وفيهم . أى أنك تعرف من أعمالهم مايوافق الطريقة المستقيمة ، وأحيانا ترى غير ذلك مما تنكره عليهم وتتعجب منه . والله أعلم .

فقال حذيفة : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟

---

(١) فتح البارى ٣٦،٣٥/١٣ .
(٢) فتح البارى ٣٦/١٣ .

أى هل بعد هذا الخير الذى فيه دخن من شر يجيء بعده .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، دعاة على أبواب جهنم ، من أجابهم اليها قذفوه فيها .

أى دعاة الى غير الحق ، وأطلق عليهم (على أبواب جهنم) باعتبار مايؤول اليه حالهم ، كما يقال لمن أمر بفعل محرم : وقف على شفير جهنم (١) .

فمن أجاب هؤلاء الدعاة الى الباطل صار مآله مآلهم وهى جهنم والعياذ بالله فينبغى الحذر من دعاة الباطل من العلمانيين ، والحداثيين ، والشيوعيين والاشتراكيين والرأسماليين ، وغيرهم من دعاة الباطل فى هذا الزمان .

ولاسيما وأن حذيفة طلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصف هؤلاء الدعاة .

فقال صلى الله عليه وسلم : هم من جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا .

فهم ليسوا غرباء عنا فى الجنس واللسان ، وانما غرباء عنا فى المنهج والمعتقد ، ومن هنا كانت صعوبة الحذر والحيطة . فانهم يدعون الاسلام وقد يأتون ببعض تعاليمه لكى ينخدع الناس بهم ثم يطعنون الاسلام بشبههم وتشكيكاتهم .

"قال القابسى : معناه أنهم فى الظاهر على ملتنا وفى الباطن مخالفون وجلدة الشىء ظاهره ، وهى فى الأصل غشاء البدن (٢)" .

ثم قال حذيفة مستنصحا رسول الله صلى الله عليه وسلم "فما تأمرنى ان أدركنى ذلك ؟" أى ما الذى تنصحنى به يارسول

---

(١) انظر : فتح البارى ٣٦/١٣ .
(٢) فتح البارى ٣٦/١٣ .

الله ان أدركني ذلك الزمان الذي أرى فيه هؤلاء الدعاة الى أبواب جهنم ، والذين هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا .

فنصحه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يلزم جماعة المسلمين وامامهم . وأن في ذلك العصمة والنجاة من شر هؤلاء الدعاة الضالين .

ولكن حذيفة راجع رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا فان لم يكن لهم جماعة ولا امام ؟

فنرى أن حذيفة سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فان لم يكن للمسلمين جماعة تميزهم عن غيرهم ولم يكن لهم امام يسوسهم ويقوم عليهم وانما كانت الغلبة للطغاة أصحاب الأهواء والدعوة الى الباطل . وكان المسلمون مستضعفين لاقوة لهم ولامنعة .

فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : "فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك" .

قال البيضاوي : "المعنى اذا لم يكن في الأرض خليفة فعليك بالعزلة والصبر على تحمل شدة الزمان ، وعض أصل الشجرة كناية عن مكابدة المشقة كقولهم : فلان يعض الحجارة من شدة الألم" (١) .

هكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يدير حلقة العلم ، ويجلس لأصحابه رضوان الله عليهم يتلقى منهم الأسئلة ويجيب عليها بوضوح تام ، وتوجيه سديد ينتفع بمدلوله السائل والسامع على حد سواء بطريقة مشوقة لاغموض فيها

---

(١) فتح الباري ٣٦/١٣ .

ولاتعقيد ، مشوبة بالمحبة الصادقة بين المعلم وطلابه ، وبين الجليس وجلسائه ، وان هذه الصورة الواضحة الصادقة لحرى بدعاة الاسلام والمربين أن يقتبسوها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويدربوا أنفسهم على هذه الروح العالية التى ماعرفها أحد الا استأنس بها ، وسكن اليها ، وسمع توجيهها ، ووقر فى قلبه فحواها .

وعليهم كذلك أن يوسعوا صدورهم لمن سألهم ولمن أحب الاستفادة منهم ، وأن يكونوا مثل رسولهم صلى الله عليه وسلم ، فواضح من هذه الأحاديث السابقة وخاصة حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنه سعة صدره صلى الله عليه وسلم على السائل ومراجعته ، وكثرة تساؤله ، واجابته صلى الله عليه وسلم بما ينفع السائل والسامعين .

وعليهم أيضا أن لايتحرجوا ممن يسألهم عن الشر مخافة الوقوع فيه أو ممن يسألهم عن النظرة المستقبلية للاسلام وللدعوة اليه حسب سنن الله تعالى الجارية . فان لهم قدوة فى المنهج النبوى الكريم .

فعليهم أن يبينوا لمن ولاهم الله تعالى تربيته وتعليمه وتوجيهه خطر دعاة الباطل من العلمانيين والحداثيين والشيوعيين ، والاشتراكيين . وأن يكشفوهم لطلابهم بصفاتهم وأسمائهم اذا استدعى ذلك . وأفعالهم حتى يسلموا من شرورهم ، ويحذروا من سمومهم .

وحتى يتخذوهم أعداء حتى يرجعوا عن غيهم ويتوبوا الى بارئهم .

ثالثا : تخوله صلى الله عليه وسلم لأصحابه ، بالموعظة

فطر الله تعالى النفس الانسانية على حب الخير والرغبة فيه ونشاطها في تحصيله ، ثم انها سرعان ماتمل وتسأم من تكرار الموعظة والترغيب في ذلك .

وان المربي العظيم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم راعى هذا الجانب في تربيته لأصحابه ، فكان يتخولهم بالموعظة خوفا عليهم من السآمة والملل .

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : "كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة في الأيام ، كراهة السآمة علينا " (١) .

فواضح من هذا الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يراعي في موعظته وتوجيهه الحالة النفسية لأصحابه رضوان الله عليهم ، فكان يتخولهم في الموعظة ، أي يتعهدهم بها في مظان القبول ، ولايكلمهم في كل وقت لئلا يسأموا (٢) .

فكان صلى الله عليه وسلم يراعي الأوقات في تذكير الصحابة ، ولايفعل ذلك كل يوم خشية أن يملوا ، وماذلك الا لأن في النفس اقبالا وادبارا ، ومن ثم لابد من تحين فرصة اقبالها ومراعاة حال نشاطها لكي تقبل على الموعظة بكل قواها ، فتتأثر بها ، وتطبق محتواها ، فيكون ذلك أنشط في تطبيقها والتزامها مع المتابعة لذلك .

---

(١) رواه البخاري في ٣ ـ كتاب العلم ، ١٢ ـ باب ماكان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولهم بالموعظة والعلم كي لاينفروا ٢٩/١ رقم الحديث ٦٨ .

(٢) انظر : شرح السنة للامام البغوي ٣١٣/١ .

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : "حدث القوم ماحدجوك بأبصارهم وأقبلت عليك قلوبهم ، فاذا انصرفت عنك قلوبهم ، فلاتحدثهم ، قيل : وماعلامة ذلك ؟ قال : اذا التفت بعضهم الى بعض ورأيتهم يتثاءبون ، فلاتحدثهم" (١) .

قوله : "حدجوك بأبصارهم" أى رموك بها . يريد : حدثهم ماداموا يشتهون حديثك ، فاذا أعرضوا عنك فاسكت (٢) .

ولذلك كان عبد الله بن مسعود يذكر الناس ويعظهم فى كل خميس خشية أن يمل الناس . ولما طلب منه بعضهم أن يذكرهم كل يوم أجابهم بقوله : أنه مايمنعه من ذلك الا أنه يكره أن يملهم ، وأن يدخل عليهم السآمة من كثرة حديثه لهم .

عن أبى وائل قال : كان عبد الله بن مسعود يذكر الناس فى كل خميس ، فقال له رجل : ياأبا عبد الرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم ؟ قال عبد الله بن مسعود : أما انه يمنعنى من ذلك أنى أكره أن أملكم ، وانى أتخولكم بالموعظة كما كان النبى صلى الله عليه وسلم يتخولنا بها ، مخافة السآمة علينا" (٣) .

فكان رضى الله عنه يتعهدهم بالموعظة اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم فانه كان يتعهد الصحابة ، ويطلب أحوال نشاطهم ثم يعظهم وماذلك الا مخافة السآمة عليهم .

---

(١)،(٢) شرح السنة ٣١٣/١،٣١٤ .

(٣) رواه البخارى فى ٣ ـ كتاب العلم ، ١٣ ـ باب من جعل لأهل العلم أياما معلومة ٣٠/١ رقم الحديث ٧٠ .
ورواه مسلم فى ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، ١٩ ـ باب الاقتصاد فى الموعظة ٢١٧٣/٤،٢١٧٤ رقم الحديث ٢٨٢١ .

فياللـه ، مـا أعظم هـذا التوجيه النبوى الكريم ، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتخول الصحابة فى الموعظة خشية أن يملوا .

فاذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يخاف على أصحابه السآمة والملل وهـو رسـول الـلـه ، والكـل يشتاق لحديثه وتوجيهه وتعليمه ، فكيف بغيره ؟

ماكـان أحـد أن يتصـور أن يمل أحد من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن النفوس هى النفوس ، تنشط حينا وتتعب حينا آخر ، ولذا كان صلى الله عليه وسلم يحدثها حال نشاطها واقبالها رحمة بها .

وان هـذا لأبلـغ درس للدعـاة الـى الله تعالى وللوعاظ كـذلك بأن يقتدوا برسولهم صلى الله عليه وسلم ، وأن يحذوا حذوه كما فعل الصحابة رضى الله عنهم .

عـن عكرمـة عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : "حدث النـاس كـل جمعـة مرة ، فان أبيت فمرتين ، فان أكثرت فثلاث مرات ، ولاتمل النـاس هذا القرآن ، ولاألفينك تأتى القوم وهم فـى حـديث مـن حـديثهم ، فتقص عليهم ، فتقطع عليهم حديثهم فتملهـم ، ولكـن أنصت ، فاذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه ، وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه ، فانى عهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لايفعلون ذلك" (١) .

وقـالت عائشـة رضـى الـلـه عنها لعبيد بن عمير : "ألم أحدث أنك تجلس ويجلس اليك ؟

قال : بلـى يا أم المؤمنين .

---

(١) شرح السنة للبغوى ٣١٤/١ .

فقالت : فاياك واملال الناس وتقنيطهم .

وروى أنها قالت له : أقصص يوما ، واترك يوما ، لاتمل الناس" (١) .

"فيستحب ترك المداومة فى الجد فى العمل الصالح خشية الملال ، وان كانت المواظبة مطلوبة . لكنها على قسمين :

(١) اما كل يوم مع عدم التكلف .

(٢) واما يوما بعد يوم ، فيكون يوم الترك لأجل الراحة ليقبل على الثانى بنشاط ، واما يوما فى الجمعة ، ويختلف باختلاف الأحوال والأشخاص .

والضابط الحاجة مع مراعاة وجود النشاط" (٢) .

وكما أنه صلى الله عليه وسلم كان يتخول الصحابة فى الموعظة ، كان أيضا يتحين الفرص المناسبة لوعظهم وتعليمهم ويتخير الأوقات التى تذكر الآخرة كاتباع الجنازة وغيرها .

عن على رضى الله تعالى عنه قال : "كان النبى صلى الله عليه وسلم فى جنازة فأخذ شيئا فجعل ينكت به الأرض . فقال : مامنكم من أحد الا وقد كتب مقعده من النار ، ومقعده من الجنة ، قالوا : يارسول الله : أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟

قال : "اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاء . ثم قرأ : {فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى}" (٣) (٤) . الآية .

---

(١) شرح السنة للبغوى ٣١٤/١ .
(٢) فتح البارى ١٦٣/١ .
(٣) سورة الليل : آية ٥،٦
(٤) رواه البخارى فى ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ باب قوله {فأما من أعطى واتقى} ١٠١/٦ رقم الحديث ٤٩٤٥ .
ورواه مسلم فى ٤٦ ـ كتاب القدر ، ١ ـ باب كيفية الخلق الآدمى فى بطن أمه ٢٠٣٩/٤ رقم الحديث ٢٦٤٧ .

فالنبى صلى الله عليه وسلم تحين ذهاب الصحابة رضى الله عنهم معه لدفن واحد من اخوانهم ، والتأثر والحزن ظاهر على ملامحهم ، وتذكر الآخرة ماثل بين أيديهم ، وهم يشيعون واحدا منهم انتقل من دار الدنيا الى دار الآخرة .

فيحدث الصحابى الجليل على بن أبى طالب أن النبى صلى الله عليه وسلم كان فى جنازة ، فأخذ عودا وهو فى المقبرة فأخذ يخط فى الأرض خطا يسيرا مرة بعد مرة ، وذلك فعل المفكر المهموم (١) .

فوجه الخطاب الى أصحابه قائلا : "مامنكم من أحد الا وقد كتب مقعده من النار ، ومقعده من الجنة " .

أى أن الله تعالى يعلم من منكم من أهل النار ، ومن منكم من أهل الجنة . وهذا الكلام يتناسب مع الحالة التى هم فيها ، فتلفت انتباههم الى مقصوده صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم لما سمع الصحابة قول الرسول صلى الله عليه وسلم بادروا قائلين :

يارسول الله : أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟

أى ألا نتكل على ماقدر لنا فى علم الغيب ونترك مشقة العمل ، فمن كان منا من أهل الجنة دخلها ، ومن كان من أهل النار دخلها ، مادام أن الله تعالى قدر هذه المقادير وعلم من هم أهل الجنة ، ومن هم أهل النار .

فأجابهم النبى صلى الله عليه وسلم بأنه لامشقة فى ذلك لأن كلا ميسر لما خلق له .

---

(١) انظر كتاب عشرون حديثا من صحيح البخارى ص ٢١٩ .

فأمرهم بالعمل ، ونهاهم عن تركه ، وأن من كان منكم من أهل السعادة فان الله تعالى سييسره لعمل أهل السعادة والفلاح . وأن من كان من أهل الشقاء فان الله تعالى سييسره لعمل أهل الشقاء والخذلان .

وأن هذا غيب لايعلمه الا الله تعالى . أما غيره فلاعلم له به .

قال الحافظ ابن حجر : "والفاء معقبة لشيء محذوف تقديره : فاذا كان كذلك أفلا نتكل ؟ وحاصل السؤال : ألا نترك مشقة العمل ، فانا سنصير الى ماقدر علينا . وحاصل الجواب : لامشقة لأن كلا ميسر لما خلق له وهو يسير على من يسره الله . قال الطيبي : الجواب من الأسلوب الحكيم . منعهم عن ترك العمل ، وأمرهم بالتزام مايجب على العبد من العبودية وزجرهم عن التصرف في الأمور المغيبة فلايجعلوا العبادة وتركها سببا مستقلا لدخول الجنة والنار ، بل علامات فقط" (١) .

ففي هذا تربية للصحابة على اتخاذ الأسباب المشروعة من العمل وغيره ، والتعلق بالله تعالى ، والاتكال بعد ذلك على ماسبق في علم الله تعالى (٢) .

---

(١) فتح الباري ٤٩٧/١١ .

(٢) وهذا الحديث أصل في باب القضاء والقدر ، وأنه سبق في علم الله تعالى أن المكلفين فريقان ، فريقا في الجنة وفريقا في السعير .
قال النووي ، قال الامام أبو المظفر السمعاني : "سبل معرفة هذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة دون محض القياس ومجرد العقول ، فمن عدل عن التوقيف فيه ضل وتاه في بحار الحيرة ، ولم يبلغ شفاء النفس ، ولايصل الى مايطمئن به القلب . لأن القدر سر من أسرار الله تعالى التي ضربت من دونها الأستار ، اختص الله به وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم ، لما علمه من الحكمة وواجبنا أن نقف حيث حد لنا ولانتجاوزه ، وقد طوى الله =

وهـو تربيـة للدعاة وطلاب العلم في كل زمان ومكان على ذلك .

= تعالى علم القدر عن العالم ، فلم يعلمه نبي مرسل ولاملك مقرب" . شرح النووي على صحيح مسلم ١٦/١٩٦ .
وهذا أصل من أصول أهل السنة والجماعة ، فالقدر سر الله تعالى في خلقه ولايطلع عليه أحد كائنا من كان غير الله تعالى ، وأن اطلاق العقل في رجاء معرفته والتوصل الى شيء من أسراره دليل الخذلان وسلم الحرمان والبوار والخسران .
قال الطحاوي رحمه الله تعالى : "وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولانبي مرسل والتمعن والنظر في ذلك ذريعة الخذلان ، وسلم الحرمان ودرجة الطغيان ، فالحذر كل الحذر من ذلك نظرا وفكرا ووسوسة ، فان الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه ، ونهاهم عن مرامه . كما قال الله تعالى في كتابه : {لايسأل عما يفعل وهم يسألون} . سورة الأنبياء : آية ٢٣ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٤٩ .
وقال : فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله فيه أنه كائن ليجعلوه غير كائن لم يقدروا عليه ، ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى فيه ليجعلوه كائنا لم يقدروا عليه ، جف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة وماأخطأ العبد لم يكن ليصيبه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه .
شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٦٦ .
وقال : فويل لمن صار لله تعالى في القدر خصيما ، وأحضر للنظر فيه قلبا سقيما لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سرا كتيما ، وعاد بما قال فيه افكا أثيما" .
شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٦٦، ٢٧٤ بتصرف .

رابعا : الرحمة والرفق بالمتعلم

كان النبى صلى الله عليه وسلم واسع الصدر مع أصحابه رضوان الله عليهم فى تعليمهم وتربيتهم ، وخاصة مع من جهل حكما أو أمرا من أمور الاسلام فانه صلى الله عليه وسلم يعلمه ويربيه بدون تعنيف أو تجريح .

ومما يدل على ذلك مارواه الشيخان فى صحيحيهما : عن أبى هريرة رضى الله عنه "أن رجلا دخل المسجد - ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى ناحية المسجد - فصلى ثم جاء فسلم عليه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وعليك السلام ، ارجع فصل فانك لم تصل ، فرجع فصلى ، ثم جاء فسلم ، فقال : وعليك السلام ، فارجع فصل فانك لم تصل . فقال فى الثانية - أو فى التى بعدها - علمنى يارسول الله فقال : اذا قمت الى الصلاة فأسبغ الوضوء ، ثم استقبل القبلة فكبر ، ثم اقرأ بما تيسر معك من القرآن ، ثم اركع حتى تطمئن راكعا ، ثم ارفع حتى تستوى قائما ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ، ثم ارفع حتى تطمئن جالسا ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ، ثم ارفع حتى تطمئن جالسا ، ثم افعل ذلك فى صلاتك كلها" (١) . وقال أبو أسامة فى الأخير "حتى تستوى قائما".

فهذا الحديث يؤكد بيان حرصه صلى الله عليه وسلم وشفقته وسعة صدره على تعليم أصحابه رضى الله عنهم ماينفعهم وتفهيمه لهم مالم يفهموه ، فهذا رجل أعرابى يدخل المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى ناحية المسجد ومعه أصحابه كما جاء فى رواية اسحق بن أبى طلحة قال : "بينما

---

(١) رواه البخارى فى ١٠ - كتاب الأذان ، ٩٥ - باب وجوب القراءة للامام والمأموم فى الصلوات كلها فى الحضر والسفر ٢٠٧/١ رقم الحديث ٧٥٧ .
ورواه مسلم فى ٤ - كتاب الصلاة ، ١١ - باب وجوب قراءة الفاتحة فى كل ركعة ٢٩٨/١ رقم الحديث ٣٩٧ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ونحن حوله " (١) .

وهذا الرجل الذى دخل المسجد هو خلاد بن رافع كما بينه ابن أبي شيبة عن عباد بن العوام (٢) عن محمد بن عمرو عن على ابن يحيى (٣) عن رفاعة أن خلادا دخل المسجد (٤) .

فلما دخل خلاد هذا الى المسجد أخذ يصلى ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرمقه فى صلاته (٥) . ثم جاء فسلم على النبى صلى الله عليه وسلم ، فرد عليه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : "وعليك السلام ، ارجع فصل ، فانك لم تصل" فأمره بأن يعيد صلاته ، لأن صلاته التى صلاها غير صحيحة .

قال القاضى عياض : "فيه أن أفعال الجاهل فى العبادة على غير علم لاتجزىء ، وهو مبنى على أن المراد بالنفى الاجزاء وهو الظاهر" (٦) .

فرجع الرجل فصلى ، ثم جاء فسلم على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : "وعليك السلام ، فارجع فصل فانك لم تصل" .

فأمره باعادة الصلاة مرة ثانية ، فقال فى الثانية أو الثالثة : علمنى يارسول الله ، ويترجح أنه قال ذلك بعد المرة الثالثة وذلك لعدم وقوع الشك فيها ، ولكونه صلى

---

(١) انظر : فتح البارى ٢٧٧/٢ .
(٢) هو عباد بن العوام بن عمرو بن عبد الله بن المنذر الامام المحدث الصدوق أبو سهل الكلابى الواسطى ، حدث عن أبى اسحق الشيبانى والامام أحمد بن حنبل ، توفى وعمره بضع وثمانين ومائة .
سير أعلام النبلاء ٥١١/٨ .
(٣) هو على بن يحيى بن خلاد بن رافع الزرقى الأنصارى المدنى ، روى عن أبيه يحيى بن خلاد وأبى السائب ، وروى عنه بكير بن الأشج وسليمان بن بلال ، وروى له البخارى وأبو داود والنسائى وابن ماجه .
تهذيب الكمال ١٧٣/٢١ .
(٤) مصنف ابن أبى شيبة ٢٨٧/١ ، وانظر : فتح البارى ٢٧٧/٢ .
(٥) كما ورد فى مصنف ابن أبى شيبة ٢٨٧/١ ، وانظر : فتح البارى ٢٧٨/٢ .
(٦) فتح البارى ٢٧٨/٢ .

الله عليه وسلم كان من عادته استعمال الثلاث في تعليمه غالبا .(١)

وهذا يدل على حسن خلقه صلى الله عليه وسلم ولطف معاشرته ، وحسن تعليمه .

وقد استشكل بعض أهل العلم تقرير النبي صلى الله عليه وسلم للصحابي الجليل خلاد بن رافع(٢) على صلاته وهي فاسدة على القول بأنه أخل ببعض الواجبات .

(١) فأجاب المازري :

"بأنه أراد استدراجه بفعل مايجهله مرات لاحتمال أن يكون فعله ناسيا أو غافلا فيتذكره فيفعله من غير تعليم ، وليس ذلك من باب التقرير على الخطأ ، بل من باب تحقق الخطأ "(٣) .

(٢) وقال النووي نحوه قال :

"وانما لم يعلمه أولا ليكون أبلغ في تعريفه وتعريف غيره بصفة الصلاة المجزئة "(٤) .

(٣) وقال ابن الجوزي :

"يحتمل أن يكون ترديده لتفخيم الأمر وتعظيمه عليه ورأى أن الوقت لم يفته ، فرأى ايقاظ الفطنة للمتروك"(٥) .

(٤) وقال ابن دقيق العيد :

"ليس التقرير بدليل على الجواز مطلقا ، بل لابد من انتفاء الموانع . ولاشك أن في زيادة قبول المتعلم لما يلقى

---

(١) انظر : فتح الباري ٢٧٨/٢ .
(٢) خلاد بن رافع بن مالك الخزرجي ، يكنى أبا محمد أخو رفاعة ، ذكرهما ابن اسحاق وغيره في البدريين . وقد ذكر ابن الكلبي أن خلادا قتل ببدر ولم يذكره في شهداء البدريين غيره . قال الحافظ ابن حجر وقيل انه المسيء صلاته .
الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٤٥٣/١ ، تحقيق د.طه محمد الزين ، مكتبة الكليات الأزهرية .
(٣) فتح الباري ٢٨١/٢ .
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ١٠٩/٤ .
(٥) فتح الباري ٢٨١/٢ .

اليه بعد تكرار فعله واستجماع نفسه وتوجه سؤاله مصلحة مانعة من وجوب المبادرة الى التعليم ، لاسيما مع عدم خوف الفوات ، اما بناء على ظاهر الحال ، أو بوحى خاص" .(١)

ومن هنا يتبين أن النبى صلى الله عليه وسلم أراد استدراج الرجل وهو خلاد بفعل مايجهله ثلاث مرات لكى يتأكد أن فعله لم يكن صادرا عن نسيان أو غفلة ، ولو كان كذلك لتذكر فى المرة الثانية أو الثالثة ، أما وانه مازال يقع فى الخطأ نفسه ، دل ذلك على انتفاء المانع وهو هنا الغفلة والنسيان . وتبين أنه جاهل لأركان الصلاة وواجباتها ، مما جعل خلاد رضى الله عنه يتفطن لخطئه ، فطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعلمه الصلاة الصحيحة المجزئة .

وهذا أبلغ وأوقع فى النفس فى تعريفه رضى الله عنه ، وتعريف من حضر من الصحابة رضى الله عنهم بصفة الصلاة المجزئة مما لو علمه فى أول الأمر .

وفيه كذلك تعليم للصحابة على الصبر وسعة الصدر على المخطىء وأن يضبطوا أنفسهم من الانفعال لمجرد وقوع الخطأ .

وكل هذا تربية منه صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضى الله عنهم ، على التريث والتؤده عند تصحيح الخطأ ، والتحقق منه ، والتأكد من انتفاء الموانع من غفلة أو نسيان ، ثم سعة الصدر والتحمل مع الشفقة والرحمة عند تعليم الجاهل بغير تعنيف أو تجريح .

وأنه لحرى بكثير من دعاة اليوم والمربين أن يتأسوا بهذا الخلق الكريم الرفيع فى التعامل مع الآخرين فى تصحيح

---

(١) فتح البارى ٢٨١/٢ .

أخطائهم وفي ارشاداتهم وتوجيهاتهم ، وأن يتحلوا بسعة الصدر والشفقة والرحمة على المخطىء فيبينوا له الصواب مع مراعاة مشاعره وأحاسيسه ، هذا اذا لم يأت بالمخالفة استخفافا أو عنادا ، ثم اعانته على الطاعة والالتزام بمنهج الله القويم .

فلما طلب خلاد رضي الله عنه من الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يعلمه الصلاة الصحيحة علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، فأمره اذا أراد الصلاة أن يسبغ وضوءه فيأتي به تاما بكمال صفته وآدابه ، ثم أمره باستقبال القبلة ، ثم يكبر تكبيرة الاحرام ، ثم يقرأ ماتيسر من القرآن ، ثم يكبر ويركع حتى تطمئن مفاصله ويسترخي ، ثم يرفع من الركوع حتى يستوي أو يعتدل قائما ، ثم يسجد حتى تطمئن مفاصله وتسترخي ، ثم يرفع من السجود حتى يستوي قاعدا على مقعدته ويقيم صلبه (١) . ثم يسجد الثانية حتى يطمئن ساجدا ، ثم أمره بأن يفعل ذلك في صلاته كلها (٢) .

---

(١) انظر : فتح الباري ٢٧٩/٢ .

(٢) واضح في الحديث أنه اشتمل على بيان بعض الواجبات دون السنن ، وأن هناك بعض الواجبات المجمع عليها ، والمختلف فيها لم تذكر في الحديث :
"فمن المجمع عليه : النية ، والقعود في التشهد الأخير وترتيب أركان الصلاة .
ومن المختلف فيه : التشهد الأخير ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيه ، والسلام في آخر الصلاة " .
صحيح مسلم بشرح النووي ١٠٧/٤ بتصرف يسير .
وأجاب ابن دقيق العيد بقوله : "تكرر من الفقهاء الاستدلال بهذا الحديث على وجوب ماذكر فيه وعلى عدم وجوب مالم يذكر ، أما الوجوب فلتعلق الأمر به ، وأما عدمه فليس لمجرد كون الأصل عدم الوجوب بل لكون الموضع موضع تعليم وبيان للجاهل ، وذلك يقتضي انحصار الواجبات فيما ذكر ، ويتقوى ذلك بكونه صلى الله عليه وسلم ذكر ماتعلقت به الاساءة من هذا المصلي ومالم تتعلق به ، فدل على أنه لم يقتصر المقصود على ماوقعت به الاساءة .. فكل موضع اختلف الفقهاء في وجوبه ، وكان مذكورا في هذا الحديث فلنا أن نتمسك به في وجوبه ، وبالعكس . لكن يحتاج أولا الى جمع طرق هذا الحديث واحصاء الأمور المذكورة فيه ، والأخذ بالزائد =

"وفى الحديث أن المفتى اذا سئل عن شىء وكان هناك شىء آخر يحتاج اليه السائل ولم يسأل عنه ، يستحب له أن يذكره له ويكون هذا من النصيحة لامن الكلام فيما لايعنى . وموضع الدلالة أنه قال : علمنى يارسول الله ، أى علمنى الصلاة الصحيحة ، فعلمه الصلاة واستقبال القبلة والوضوء ، وليسا من الصلاة لكنهما شرطان لها" (١) .

"واستدل بهذا الحديث على وجوب الطمأنينة فى أركان الصلاة وبه قال الجمهور" (٢) .

ويظهر لى سعة صدر النبى صلى الله عليه وسلم ورفقه بالجاهل فى تعليمه ورأفته به وحسن تعليمه واللطف به ، وتقريب الصواب الى فهمه (٣) حديث معاوية بن الحكم رضى الله عنه فهو يحدثنا عن موقف حدث له شخصيا مع النبى صلى الله عليه وسلم وبعض الصحابة رضى الله عنهم .

فبينما كانوا يصلون مع النبى صلى الله عليه وسلم احدى الصلوات اذ عطس رجل من الصحابة رضى الله عنهم وهو فى الصلاة ، فشمته معاوية رضى الله عنه وقال له فى الصلاة : يرحمك الله ، ولم يكن يعلم أن الكلام قد حرم على المصلى

= فالزائد . ثم ان عارض الوجوب أو عدمه دليل أقوى منه عمل به ، وان جاءت صيغة الأمر فى حديث آخر بشىء لم يذكر فى هذا الحديث قدمت" . فتح البارى ٢٧٩/٢ .

(١) صحيح مسلم بشرح النوى ١٠٨/٤ .

(٢) فتح البارى ٢٧٩/٢ .

(٣) رواه مسلم فى ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، ٧ ـ باب تحريم الكلام فى الصلاة ونسخ ماكان من اباحته ٣٨١/١ رقم الحديث ٥٣٧ . عن معاوية بن الحكم السلمى قال : "بينا أنا أصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ عطس رجل من القوم ، فقلت : يرحمك الله ، فرمانى القوم بأبصارهم . فقلت : واثكل أمياه ، ماشأنكم تنظرون الى ، فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم . فلما رأيتهم يصمتوننى ، لكنى سكت . فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبأبى هو وأمى ، مارأيت معلما قبله ولابعده أحسن تعليما منه . فوالله ماكهرنى ولاضربنى ولاشتمنى . قال : "ان هذه الصلاة لايصلح فيها شىء من كلام الناس انما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن" .

مادام فى صلاته ، وكان من قبل حلالا ، كما ورد عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : كنا نسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى الصلاة فيرد علينا ، فلما رجعنا من عند النجاشى سلمنا عليه فلم يرد علينا ، فقلنا يارسول الله كنا نسلم عليك فى الصلاة فترد علينا ، فقال ان فى الصلاة شغلا " (١) .

فنظر الصحابة رضى الله عنهم الى معاوية بأبصارهم نظر انكار لفعله ، فاستغرب ذلك منهم وقال ماشأنكم تنظرون الى فأخذ الصحابة رضى الله عنهم يضربون بأيديهم على أفخاذهم ليسكتوه ، "وهذا محمول على أنه كان قبل أن يشرع التسبيح لمن نابه شىء فى صلاته" (٢) . فلما أحس معاوية رضى الله عنه من الصحابة أنهم يريدونه أن يصمت ، لكنه سكت رضى الله عنه . فلما انتهت الصلاة التفت اليه الرسول صلى الله عليه وسلم فلم ينتهره ولم يضربه ولم يشتمه وانما أخذ يعلمه ويصحح خطأه برفق ولين وشفقة ، ثم قال له صلى الله عليه وسلم : "ان هذه الصلاة لايصلح فيها شىء من كلام الناس ، انما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن" (٣) .

وفى هذا دليل على "تحريم الكلام فى الصلاة سواء كان لحاجة أو غيرها ، وسواء كان لمصلحة الصلاة أو غيرها ، فان احتاج الى تنبيه أو اذن لداخل ونحوه سبح ان كان رجلا ، وصفقت ان كانت امرأة ، هذا مذهبنا ومذهب مالك ، وأبى حنيفة رضى الله عنهم والجمهور من السلف والخلف ...

وأما قوله صلى الله عليه وسلم انما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن فمعناه : هذا ونحوه ، فان التشهد

---

(١) رواه مسلم فى ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، ٧ ـ باب تحريم الكلام فى الصلاة ونسخ ماكان من اباحته ٣٨٢/١ رقم الحديث ٥٣٨ .
(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ٢٠/٥ .
(٣) سبق تخريجه ص ٩٦ .

والدعاء والتسليم من الصلاة وغير ذلك من الأذكار مشروع فيها فمعناه : لايصلح فيها شيء من كلام الناس ومخاطباتهم ، وانما هي التسبيح ومافي معناه من الذكر والدعاء وأشباههما مما ورد به الشرع" (١) . انتهى

وفي هذا تربية منه صلى الله عليه وسلم لأصحابه في كيفية حسن تعليم الجاهل واللطف به ، وتقريب الصواب الى فهمه بغير تعنيف ولاتجريح ولاشتم بل برحمة وشفقة ولين كلام ، ولاسيما اذا لم يأت بالمخالفة استخفافا أو عنادا .

وان هذا الخلق العظيم الذي اتصف به رسولنا الأمين محمد صلى الله عليه وسلم والذي شهد له بذلك الله تعالى في قوله : {وانك لعلى خلق عظيم} (٢) ، وشهد له الصحابة رضي الله عنهم ، ومن بينهم معاوية بن الحكم في هذا الحديث الذي نحن بصدده بقوله رضي الله عنه : "فبأبي هو وأمي ، مارأيت معلما قبله ولابعده أحسن تعليما منه" (٣) لحري بدعاة اليوم ومعلمي المستقبل والمربين أن يتخلقوا بهذا الخلق عند معاملاتهم مع الناس ، وخاصة في تعليم الجاهل وهداية المخطيء والضال ، وتصحيح الخطأ ، ومعاشرة التلاميذ ، "لأن الناس ينفرون من الكثيف ، ولو بلغ في الدين مابلغ ، ولله مايجلب اللطف والظرف من القلوب ، فليس الثقلاء بخواص الأولياء . وماثقل أحد على قلوب الصادقين المخلصين الا من آفة هناك ، والا فهذه الطريق تكسو العبد حلاوة ولطافة وظرفا فترى الصادق فيها : من أحلى الناس ، وألطفهم وأظرفهم ، قد

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٢١/٥ .
(٢) سورة ن : آية ٤
(٣) سبق تخريجه ص ٩٦ .

زالت عنه ثقالة النفس ، وكدودة الطبع ، فتراه أكرم الناس عشرة ، وألينهم عريكة ، وألطفهم قلبا وروحا" . انتهى (١)

وقال جرير بن عبد الله رضى الله عنه : "ماحجبنى النبى صلى الله عليه وسلم منذ أسلمت ومارآنى الا تبسم" (٢) .

وقال الله تعالى واصفا نبيه صلى الله عليه وسلم باللين والرحمة على أصحابه : {فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك} (٣) .

فلو كان رسول الله فظا غليظ القلب ـ وحاشاه أن يكون كذلك ـ لانفض الصحابة من حوله مع ماامتاز به من علم باتصاله بالوحى ، وحل لمشكلاتهم ومعضلاتهم . هذا وهو رسول مؤيد بالوحى فكيف بغيره ممن لم يصل ولن يصل الى مرتبة النبى صلى الله عليه وسلم فمن باب أولى ، فعلى الجميع أن يتقوا الله تعالى فى أنفسهم وفى أخلاقهم ، وفى معاملاتهم داخل بيوتهم وخارجها ، وخاصة مع من ولاهم الله تعالى تعليمه وتربيته .

ومما يؤكد ذلك ماأخبرنا به أنس بن مالك رضى الله عنه (٤) أنه بينما الصحابة رضى الله عنهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد ، اذ دخل رجل من أهل البادية ، فقام يبول فى ناحية من المسجد ، فزجره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بألسنتهم ونهوه عن فعله ، "لأن الاحتراز من

---

(١) تهذيب مدارج السالكين ص ٥٧٦ .
(٢) رواه البخارى فى ٥٦ ـ كتاب الجهاد والسير ، ١٦٢ ـ باب من لايثبت على الخيل ٣٢/٤ رقم الحديث ٣٠٣٥ .
ورواه مسلم فى ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، ٢٩ ـ باب من فضائل جرير بن عبد الله رضى الله تعالى عنه ١٩٢٥/٤ رقم الحديث ٢٤٧٥ .
(٣) سورة آل عمران : آية ١٥٩
(٤) رواه البخارى فى ٤ ـ كتاب الوضوء ، ٥٩ ـ باب صب الماء على البول فى المسجد ٧٠/١ رقم الحديث ٢٢٠ .

النجاسة كان مقررا فى نفوس الصحابة رضى الله عنهم ، ولهذا بادروا الى الانكار بحضرته صلى الله عليه وسلم قبل استئذانه ولما تقرر عندهم أيضا من طلب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" (١) .

فانكارهم رضى الله عنهم على الأعرابى كان صادرا من شدة غيرتهم على حرمات الله تعالى ، ووجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولذا فان النبى صلى الله عليه وسلم لم ينكر على الصحابة ، ولم يقل لهم لم نهيتم الأعرابى ؟ وانما أمرهم بتركه والكف عنه للمصلحة الراجحة ، وهو دفع أعظم المفسدتين باحتمال أيسرهما ، وتحصيل أعظم المصلحتين بترك أيسرهما (٢) .

فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يتركوه ولايقطعوا عليه بوله .

"قال العلماء : كان قوله صلى الله عليه وسلم دعوه لمصلحتين :

احداهما : أنه لو قطع عليه بوله تضرر وأصل التنجيس قد حصل فكان احتمال زيادته أولى من ايقاع الضرر به .

والثانية : أن التنجيس قد حصل فى جزء يسير من المسجد فلو أقاموه فى أثناء بوله لتنجست ثيابه وبدنه ومواضع كثيرة من المسجد" (٣) ، ولربما انكشفت عورته أيضا .

فأمرهم النبى صلى الله عليه وسلم بتركه لأنه قد شرع فى المفسدة ، فلو منع منها لزادت هذه المفسدة أو لوقع الضرر عليه فى بدنه كما تقدم بيانه (٤) .

---

(١) فتح البارى ٣٢٤/١ .
(٢) انظر : عمدة القارىء للعينى ١٢٧/٣ ، الطبعة المنيرية
(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ١٩١/٣ .
(٤) انظر : فتح البارى ٣٢٣/١ .

فلما انتهى الأعرابى من بوله دعاه الرسول صلى الله عليه وسلم فجاء اليه والصحابة رضى الله عنهم جلوس يرون صنيع رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الأعرابى .

فقال النبى الكريم صلى الله عليه وسلم للأعرابى معلما وناصحا ومبينا من غير تعنيف ولا ايذاء (١) ، بل برفق وسماحة ، ولاسيما وأن هذا الأعرابى قد وقع فيما وقع فيه جهلا منه بآداب المسجد ، ولم تكن مخالفته استخفافا وعنادا ، كما هو واضح من سياق القصة . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : "ان هذه المساجد لاتصلح لشىء من هذا البول ولا القذر ، انما هى لذكر الله عز وجل والصلاة ، وقراءة القرآن" .

ففى هذا صيانة للمسجد وتعظيم له وتنزيهه عن الأقذار والقذى والبصاق ورفع الأصوات والخصومات والبيع والشراء ومافى معنى ذلك (٢) .

"وظاهر الحصر أنه لايجوز فى المسجد شىء غير ماذكر من الصلاة والقرآن والذكر ، لكن الاجماع على أن مفهوم الحصر منه غير معمول به ، ولاريب أن فعل غير المذكورات ومافى معناها خلاف الأولى . والله أعلم" (٣) .

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد الصحابة رضى الله عنهم فجاء بدلو من ماء فشنه عليه أى فصبه على البول .

---

(١) قال الأعرابى بعد أن فقه : "فقام النبى صلى الله عليه وسلم الى بأبى وأمى فلم يسب ولم يؤنب ، ولم يضرب" . أخرجه أحمد فى المسند بترتيب أحمد شاكر ، وهو تكملة للحديث السابق من رواية أبى هريرة رضى الله عنه ١٣٤/٢٠ برقم ١٠٥٤٠ ، وابن ماجه ١٧٥/١ .
(٢) انظر : صحيح مسلم بشرح النووى ١٩١/٣، ١٩٢ .
(٣) فتح البارى ٣٢٥/١ .

"ففيه المبادرة الى ازالة المفاسد عند زوال المانع لأمرهم عند فراغه بصب الماء وفيه تعيين الماء لازالة النجاسة ، لأن الجفاف بالريح أو الشمس لو كان يكفى لما حصل التكليف بطلب الدلو" (١) .

وفى هذا تربية للصحابة رضى الله عنهم على الرأفة وحسن الخلق فى تعليم الجاهل مايلزمه ويحتاج اليه من غير تعنيف اذا لم يكن ذلك منه عنادا أو استخفافا .

وكذلك تربية لدعاة الأمة ومعلميها على الشفقة والرحمة وحسن الخلق فى تعليم الجاهل وتصحيح الخطأ ، ومتابعة الأفراد وتكوين الشخصية المستقيمة المعتدلة ، وانشاء الدعاة المصلحين من هؤلاء الشباب الراغبين فى الالتزام والهداية ، والصبر على تكوينهم وتهيئتهم لحمل أعباء الدعوة من بعدهم ، وحتى يكونوا خير خلف لخير سلف .

ومما سبق يتضح لى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان واسع الصدر فى معالجة الخطأ . فكان حريصا على ضمان عدة قضايا تربوية مع أصحابه رضوان الله عليهم منها :

(١) حرصه صلى الله عليه وسلم على تصحيح الخطأ الذى وقع ، فلافائدة من تجريح المخطىء وتعنيفه ولاسيما والخطأ قد وقع وانتهى . فكان المهم والحالة هذه هو السعى الى تصحيح ذلك الخطأ وتنبيه السامعين اليه ، حتى يكون فى ذلك حصنا للمخطىء وللحاضرين من الوقوع فيه مرة أخرى .

---

(١) فتح البارى ٣٢٥/١ .

(٢) حرصه صلى الله عليه وسلم فى أن يضمن استمرار سماع واقبال المخطىء اليه لكى يتمكن من تعليمه وتربيته وتصحيح خطأه .

(٣) حرصه صلى الله عليه وسلم على ملازمة الرفق فى كل شىء وخاصة فى تربية أصحابه وعدم تركه الا اذا جاء مايوجب ذلك . كما حدث فى معاملته صلى الله عليه وسلم للثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك .

(٤) حرصه صلى الله عليه وسلم على مراعاة نفوس أصحابه والعناية بهم وبعده عن التحطيم النفسى سواء كان بالاغلاظ القولى أو الفعلى . وأنه صلى الله عليه وسلم لو كان يغلظ على كل جاهل أو مخطىء لما بقى معه أحد ولنفروا وانفضوا من حوله ، لأن كل بنى آدم خطاء . وقد امتدحه الله تعالى على سعة صدره وحلمه وعطفه على أصحابه فقال سبحانه :

{فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك} (١) .

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٥٩

خامسا : مراعاة أحوال المتعلمين وقدراتهم

كان النبى صلى الله عليه وسلم ، يخص بعض الصحابة بنوع من العلم ويأمرهم بأن لايحدثوا العامة به ، خوفا عليهم من أن لايفهموه فيفتتنوا بذلك .

عن أنس بن مالك : أن النبى صلى الله عليه وسلم ومعاذ ابن جبل رديفه على الرحل ، قال : "يامعاذ بن جبل" . قال : لبيك يارسول الله وسعديك ، قال : "يامعاذ" قال : لبيك يارسول الله وسعديك ثلاثا .

قال : "مامن أحد يشهد أن لااله الا الله وأن محمدا رسول الله صدقا من قلبه الا حرمه الله على النار" .

قال : يارسول الله ، أفلا أخبر الناس فيستبشروا ؟

قال : اذا يتكلوا .

وأخبر بها معاذ عند موته تأثما " .(١)

فهذا معاذ بن جبل رضى الله عنه لما كان رديف النبى صلى الله عليه وسلم على حمار – وليس معهم أحد آخر – فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : يامعاذ فأجابه معاذ بقوله : لبيك وسعديك . "أى اجابة بعد اجابة واسعادا بعد اسعاد" .(٢)

ثم ناداه مرة ثانية ، ومرة ثالثة ، ليشد انتباهه ويلفت نظره الى ماسيقوله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) رواه البخارى فى ٣ – كتاب العلم ، ٥٠ – باب من خص بالعلم قوما دون قوم ، كراهية أن لايفهموا ٤٧/١ رقم الحديث ١٢٨ .
ورواه مسلم فى ١ – كتاب الايمان ، ١٠ – باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا ٦١/١ رقم الحديث ٣٢ .

(٢) فتح البارى ٢٢٦/١ .

ثم قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ : "مامن أحد يشهد أن لااله الا الله وأن محمدا رسول الله ، صدقا من قلبه الا حرمه الله على النار" .

"فقوله (صدقا) فيه احتراز عن شهادة المنافق ، وقوله (من قلبه) أى يشهد بلفظه ويصدق بقلبه" . (١)

وقال الطيبى (٢) : قوله "صدقا" أقيم هنا مقام الاستقامة ، لأن الصدق يعبر به قولا عن مطابقة القول المخبر عنه ، ويعبر به فعلا عن تحرى الأخلاق المرضية كقوله تعالى : {والذى جاء بالصدق وصدق به} (٣) أى حقق ماأورده قولا بما تحراه فعلا" . (٤) انتهى

ثم قال الحافظ ابن حجر بعد ايراد قول الطيبى مانصه : "وأراد بهذا التقرير رفع الاشكال عن ظاهر الخبر ، لأنه يقتضى عدم دخول جميع من شهد الشهادتين النار ، لما فيه من التعميم والتأكيد ، لكن دلت الأدلة القطعية عند أهل السنة على أن طائفة من عصاة المؤمنين يعذبون ثم يخرجون من النار بالشفاعة ، فعلم أن ظاهره غير مراد ، فكأنه قال : ان ذلك مقيد بمن عمل الأعمال الصالحة . قال : ولأجل خفاء ذلك لم يؤذن لمعاذ فى التبشير به" . (٥) انتهى

---

(١) فتح البارى ٢٢٦/١ .
(٢) الامام المشهور الحسن بن محمد بن عبد الله الطيبى شارح الكشاف العلامة فى المنقول والعربية ، كان آية فى استخراج الدقائق من القرآن والسنن مقبلا على نشر العلم متواضعا حسن المعتقد شديد الرد على الفلاسفة شديد الحب لله ورسوله كثير الحياء ملازما لاشغال الطلبة فى العلوم الاسلامية .
صنف شرح الكشاف والتفسير وشرح المشكاة .
شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ١٣٧/٦ ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت .
(٣) سورة الزمر : آية ٣٣
(٤) فتح البارى ٢٢٦/١ .
(٥) فتح البارى ٢٢٦/١ .

وقد أجاب العلماء عن الاشكال الواقع فى مثل هذه الاطلاقات التى وردت فى بعض الأحاديث الصحيحة فيمن قال لااله الا الله دخل الجنة ، أو حرم على النار أو نحو ذلك من الأحاديث .

فقال الحافظ المنذرى : "ذهبت طوائف من أساطين أهل العلم الى أن مثل هذه الاطلاقات التى وردت فيمن قال : "لااله الا الله دخل الجنة أو حرم على النار" أو نحو ذلك . كان فى ابتداء الاسلام حين كانت الدعوة الى مجرد الاقرار بالتوحيد ، فلما فرضت الفرائض وحدت الحدود نسخ ذلك ، والدلائل على هذا كثيرة متظاهرة ، والى هذا القول ذهب الضحاك والزهرى وسفيان الثورى وغيرهم .

وقالت طائفة أخرى : لااحتياج الى ادعاء النسخ فى ذلك فان كل ماهو من أركان الدين وفرائض الاسلام هو من لوازم الاقرار بالشهادتين وتتماته . فاذا أقر ثم امتنع عن شىء من الفرائض جحدا أو تهاونا على تفصيل الخلاف فيه حكمنا عليه بالكفر وعدم دخول الجنة" . انتهى (١)

ويقول ابن القيم : "وليس التوحيد مجرد اقرار العبد بأنه لاخالق الا الله وأن الله رب كل شىء ومليكه كما كان عباد الأصنام يقرون بذلك وهم مشركون بل التوحيد يتضمن من محبة الله والخضوع له والذلة له وكمال الانقياد لطاعته واخلاص العبادة له وارادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال والمنع والعطاء والحب والبغض مايحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية الى المعاصى والاصرار عليها . ومن عرف هذا

---

(١) الترغيب والترهيب ٢٢٠/٣ ، دار الفكر ، الطبعة الثانية .

عرف قول النبى صلى الله عليه وسلم : "ان الله حرم على النار من قال لااله الا الله يبتغى بذلك وجه الله" ، وقوله "لايدخل النار من قال لااله الا الله" وماجاء من هذا الضرب من الأحاديث التى أشكلت على كثير من الناس حتى ظنها بعضهم انها منسوخة ، وظنها بعضهم قيلت قبل ورود الأوامر والنواهى واستقرار الشرع ، وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار وأول بعضهم الدخول بالخلود فقال : المعنى لايدخلها خالدا ، ونحو ذلك من التأويلات المستكرهه .

والشارع صلوات الله وسلامه عليه ، لم يجعل ذلك حاصلا لمجرد قول اللسان فقط ، فان هذا خلاف المعلوم من دين الاسلام فان المنافقين يقولونها بألسنتهم وهم تحت الجاحدين لها ، فى الدرك الأسفل من النار .. فلابد من قول القلب وقول اللسان . وقول القلب يتضمن من معرفتها والتصديق بها ومعرفة حقيقة ماتضمنته من النفى والاثبات ، ومعرفة حقيقة الالهية المنفية عن غير الله ، المختصة به ، التى يستحيل ثبوتها لغيره ، وقيام هذا المعنى بالقلب علما ومعرفة ويقينا وحالا مايوجب تحريم قائلها على النار .. وتأمل قيام ماقام فى قلب قاتل المائة من حقائق الايمان التى لم تشغله عند السياق عن السير الى القرية وحملته وهو فى تلك الحال على أن جعل ينتقل بصدره ويعالج سكرات الموت ، فهذا أمر آخر وايمان آخر ، ولاجرم أنه ألحق بالقرية الصالحة وجعل بين أهلها .." (١) .

ولخشية الرسول صلى الله عليه وسلم وخوفه من أن

---

(١) مدراج السالكين ١/٣٣٠-٣٣٢ ، طبعة دار الكتاب العربى.

العامة لن يفهموا مثل هذه الاطلاقات منع معاذا رضى الله عنه لما استأذنه أن يبشر الناس بقوله صلى الله عليه وسلم : "اذا يتكلوا" أى ان أخبرتهم يامعاذ يتكلوا ويتركوا العمل اعتمادا على مافهموه من ظاهر الحديث .

وقد رويت هذه القصة على أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه هو الذى رد أبا هريرة ، وقد أمره النبى صلى الله عليه وسلم أن يبشر الناس بمثل مافى حديث معاذ رضى الله عنه . وقال له ارجع ياأبا هريرة ثم دخل عمر من فوره على النبى صلى الله عليه وسلم فقال له : يارسول الله أنت قلت لأبى هريرة كذا وكذا ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : نعم فقال عمر : لاتفعل يارسول الله ، فانى أخشى أن يتكل الناس فخلهم يعملون . فأقره الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك وقال : فخلهم (١) .

"وهذا معدود من موافقات عمر رضى الله عنه" (٢) .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ماسمع" (٣) .

ومأذلك الا لأن تحديث العامة بكل شئ - مع العلم بأن عقولهم لاتهضم كل شئ ، ولاتستوعبه - مما يؤدى الى تكذيب الخبر ، بحجة أنهم لم يفهموه وأنه فوق مستواهم ، وأنه يؤدى فى كثير من الأحيان الى ترك بعض التكاليف الشرعية وأحكامها ، فتحديث العامة بما يفوق عقولهم ويعلو على أفهامهم مدعاة الى ارتيابهم وتشككهم فى الدين وتحللهم من

---

(١) رواه مسلم فى ١ - كتاب الايمان ، ١٠ - باب أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا ٦٠/١، ٦١ رقم الحديث ٣١ .
(٢) فتح البارى ٢٢٧/١ .
(٣) رواه مسلم فى المقدمة ، ٣ باب النهى عن الحديث بكل ماسمع ١٠/١ رقم الحديث ٥ .

بعض تكاليفه ، ولهذا قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : "حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله " (١) .

فهنا يأمر الامام على كرم الله وجهه بأن يحدث الدعاة والمصلحون والمربون الناس بما يفهمونه وأن لايكون مشتبها عليهم ، فانه ينبغى مراعاة أحوال المكلفين فى الفهم والحفظ وغير ذلك .

وأنه لاينبغى أن يذكر المتشابه من القول عند العامة أو عند طالب العلم المبتدىء والمتوسط حتى لايقعوا فى فتنة كما قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : "ما أنت محدثا قوما حديثا لاتبلغه عقولهم الا كان لبعضهم فتنة " (٢) .

ولما كان نهى النبى صلى الله عليه وسلم لمعاذ بأن لايبشر الناس للمصلحة لاللتحريم ، أخبر به معاذ عند موته خوفا من اثم كتمان العلم (٣) .

"ودل صنيع معاذ على أنه عرف أن النهى عن التبشير كان على التنزيه لاعلى التحريم ، والا لما كان يخبر به أصلا . أو عرف أن النهى مقيد بالاتكال فأخبر به من لايخشى عليه ذلك ، واذا زال القيد زال المقيد ، والأول أوجه لكونه أخر ذلك الى وقت موته " (٤) .

وقال بعضهم : "النهى فى قوله صلى الله عليه وسلم "لاتبشرهم" مخصوص ببعض الناس ، وبه احتج البخارى على أن للعالم أن يخص بالعلم قوما دون قوم ، كراهة أن لايفهموا ،

---

(١) صحيح البخارى ٣ ـ كتاب العلم ، ٥٠ ـ باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهة أن لايفهموا ١/٤٦ رقم الأثر ١٢٧ .
(٢) رواه مسلم فى المقدمة ١/١١ .
(٣) انظر : فتح البارى ١/٢٢٨ .
(٤) نفس المرجع السابق ١/٢٢٧ .

وقد يتخذ أمثال هذه الأحاديث البطلة (١) ، والاباحية ذريعة الى ترك التكاليف ورفع الأحكام ، وذلك يفضى الى خراب الدنيا بعد خراب العقبى . وأين هؤلاء ممن اذا بشروا زادوا جدا فى العبادة ؟ وقد قيل للنبى صلى الله عليه وسلم : "أتقوم الليل وقد غفر الله لك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم (٢) : "أفلا أكون عبدا شكورا" (٣) " .

ولو تتبع العلماء والمربون سيرة الصحابة الكرام رضى الله عنهم ، وخاصة الذين لازموا النبى صلى الله عليه وسلم وفهموا هذا الدين حق الفهم ، لعلموا كيف أنهم كانوا يقلون من رواية الحديث الا للخاصة ، أو مايتعلق منه بالأحكام الشرعية ، وماذلك الا مراعاة منهم لأحوال المكلفين اقتداء برسولهم الأمين صلى الله عليه وسلم .

فهاهو عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان ينهى عن رواية الحديث ، يقول قرظة بن كعب (٤) : "خرجنا نريد العراق ، فمشى معنا عمر الى حرار ، فتوضأ ، فغسل اثنتين ، ثم قال : أتدرون لم مشيت معكم ؟ قالوا : نعم ، نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مشيت معنا ، فقال : انكم تأتون أهل

---

(١) يقال أبطل : اذا جاء بالباطل . والبطلة : السحرة والشياطين .

(٢) رواه البخارى فى ١٩ ، كتاب التهجد ، ٦ باب قيام النبى صلى الله عليه وسلم بالليل حتى ترم قدماه ٥٦/٢ رقم الحديث ١١٣٠ .
ورواه مسلم فى ٥ ، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، ١٨ باب اكثار الأعمال والاجتهاد فى العبادة ٢١٧١/٤ رقم الحديث ٢٨١٩ .

(٣) من كتاب قواعد التحديث للشيخ محمد جمال القاسمى ، طبعة احياء الكتب العربية ص ١٠١ .

(٤) قرظة بن كعب بن ثعلبة بن عمرو الأنصارى الخزرجى ، شهد قرظة أحدا ومابعدها من المشاهد وهو أحد العشرة الذين وجههم عمر مع عمار بن ياسر الى الكوفة من الأنصار وكان فاضلا . وشهد قرظة مع على مشاهده وتوفى فى خلافته فى داره بالكوفة .
أسد الغابة ٤٠٠/٤ .

قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل فلاتصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم ، جودوا القرآن ، وأقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمضوا وأنا شريككم . فلما قدم قرظة قالوا حدثنا ، قال : نهانا عمر بن الخطاب" (١) .

قال ابن عبد البر : "قول عمر ، انما كان لقوم لم يكونوا أحصوا القرآن فخشى عليهم الاشتغال بغيره عنه ، اذ هو الأصل لكل علم" (٢) . انتهى

"وهذا أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه كان من خيرة الصحابة ، وعلى جانب من التفقه فى الدين ، والورع والتقوى دعا النبى صلى الله عليه وسلم لأن يسميه أمين هذه الأمة ، وقد سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا ربما لم يسمعه منه أحد من الصحابة ، أو سمعه بعض الخاصة ، فرأى هذا الأمين أن يطوى هذا الحديث بين الجوانح ، ويضن به على العامة كما ضن به عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن عقول العامة يلابسها الاغترار ، ونفوسهم يلامسها الضعف وحب الشهوات ، فهم بالوعيد أولى ، وبالزامهم ظواهر الشرع أحرى .

ولكن لما ألجأته الضرورة القصوى وهو محصور مع المسلمين فى حمص ، ورأى منهم فتورا عن الحرب لالوهن فى نفوسهم ، أو جبن أصابهم ، كلا ! وانما هو لرهبة الخالق التى تمكنت من أفئدتهم وقلوبهم ، واخافتهم من الموت ، لالذاته ، بل لما بعده ، فقام ، فخطب فيهم وتلا عليهم ذلك

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك ١٠٢/١ وقال : هذا حديث صحيح الاسناد له طرق تجمع ويذاكر بها .
وروواه ابن ماجه ١٢/١ .

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ص ١٧٤ ، دار الكتب الحديثة بالقاهرة .

الحديث وهو[1] : "من مات لايشرك بالله شيئا دخل الجنة" استحثاثا لهممهم ، وتخفيفا لروعهم مما بعد الموت ، رجاء رحمة الله وعفوه عن ذنوب اقترفوها مما دون الشرك ، اذا تابوا وأنابوا . قال لهم هذا ، وهو يظن أن هذا الحديث لايتعدى أسماعهم لاعتقاده أنهم اذا خرجوا لمكافحة الروم ، لايبقى منهم أحد يحدث به ، أو يلابس نفسه أثر منه ، لكثرة من كان على حصارهم من جند الروم . ولما تم الظفر للمسلمين ونجوا من براثن العدو ، ندم على أن حدثهم بذلك الحديث وخشى من أن يعلق فى نفوسهم شىء منه مع أنه علقه على التوبة ، فقام وخطب فيهم فقال : "لاتتكلوا ، ولاتزهدوا فى الدرجات ، فلو علمت أنه يبقى منا أحد لم أحدثكم بهذا الحديث" .

وتالله ان قوما بلغ بهم الايمان الصادق ، واليقين الثابت ذلك المقام ، مقام الرهبة من الله ومن الوقوف بين يدى قدرته بعد الموت ، لقوم عامتهم أعلم بالدين وأخلص فى اليقين من خاصتنا . ومع هذا فقد ندم أبو عبيدة على أن حدثهم بذلك الحديث . فليت شعرى ! كيف يكون الحال بعد ذلك العصر ، وماذا يشترط فى المحدثين وحملة علوم الدين ؟ ألا يشترط الوقوف على مقاصد الاسلام ، والتفقه فى الحديث ، والعلم بحالة المخاطبين ، واجتناب الغلو معهم فى الترغيب والترهيب ، ومراعاة مايلابس عقولهم من القوة والضعف ؟ وأنى يتيسر هذا ، وقد نتج عن كثرة الرواة وحمل الحديث بلاتفقه

---

(١) رواه البخارى فى ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ١ ـ باب فى الجنائز ومن كان آخر كلامه "لااله الا الله" ٨٧/٢ رقم الحديث ١٢٣٨ .
ورواه مسلم فى ١ ـ كتاب الايمان ، ٤٠ ـ باب من لايشرك بالله شيئا دخل الجنة ٩٤/١ رقم الحديث ٩٢ .

فيه ، زيغ العقول عن مقاصد الشرع واجتراء الكذابين على وضع الحديث ، وشحن الكتب الاسلامية بما لايرضاه الله والرسول وهو ماكان يحذره عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ولهذا نهى فى عمره الذى هو خير العصور ، عن الاكثار من رواية الحديث فما بالك بما يلى عمره من العصور ؟" (١) .

هكذا سار الصحابة رضى الله عنهم على هذا المنهج النبوى فى عصرهم ، فامتنعوا عن التحديث بما لاتدركه وتفهمه عامة الناس خشية أن يفتتنوا فيتركوا بعض مافرضه الله عليهم .

وهكذا سار التابعون والأئمة من بعدهم فكانوا يكرهون التحديث بما يكون مثار فتن وقلاقل للعامة بسبب قصورهم فى الفهم ، أو خشية استغلال أصحاب الأهواء والسلاطين والمضللين ظواهر النصوص لتأييد بدعهم وتسويغ ظلمهم وطغيانهم ، وتسلطهم على دعاة الله المخلصين فى الأرض .

فهذا الحسن البصرى ينكر على أنس تحديث الحجاج بقصة العرنيين (٢) لأنه اتخذها وسيلة الى ماكان يفعله من المبالغة فى سفك الدماء ولاحجة له فى ذلك سوى تأويلاته الفاسدة الواهية .

وهذا الامام أحمد بن حنبل يكره التحديث ببعض الأخبار التى يكون ظاهرها الخروج على الأمير (٣) .

---

(١) قواعد التحديث ص ١٧٧، ١٧٨ ، نقلا عن الشيخ رفيق العظم فى كتابه أشهر مشاهير الاسلام .

(٢) العرنيون نفر قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم ، فأسلموا فاجتووا المدينة ، فأمرهم أن يأتوا ابل الصدقة ، فيشربوا من ألبانها وأبوالها ففعلوا ، فصحوا ، فارتدوا وقتلوا رعاتها ، واستاقوا الابل ، فبعث فى آثارهم فأتى بهم فقطع أيديهم وأرجلهم ، وسمل أعينهم ، ثم لم يحسمهم حتى ماتوا . والحديث فى الصحيحين وغيرهما . راجع فتح البارى ١٢/١١١ .

(٣) انظر : فتح البارى ١/٢٢٥ .

والامام مالك بن أنس كان يكره التحديث فى أحاديث الصفات . وأبو يوسف كان يكره التحديث بالغرائب (١) .

وكان ذلك منهم رضى الله عنهم أجمعين محافظة على سلامة العقيدة والدين من أصحاب الهوى ، وحفظ الأمة من أهل الخنا والشغب وأصحاب الفتن .

لأنه كثيرا مايتعلل المبطلون وأصحاب الاباحة بظواهر الأحاديث والتى يكون ظاهرها غير مراد ، فيتحللون بذلك من الأحكام الشرعية ، ويخرجون الى صريح الزندقة والكفر من حيث يشعرون أو لايشعرون ، أمثال العلمانيين والشيوعيين وغيرهم من أصحاب المذاهب الهدامة والأفكار الكفرية فى هذا العصر .

ولذلك أمسك الصحابة رضى الله عنهم عن التحديث وكذلك التابعون رضى الله عنهم ، بما يكون ذريعة للتقصير والتهاون بسبب القصور فى النظر أو يكون سلما لأهل الهوى والبدع ومن شاكلهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله تعالى .

"وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوى البدعة ، وظاهره فى الأصل غير مراد ، فالامساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب" (٢) . انتهى

فعلى الدعاة الى الله تعالى والمربين أن يتأسوا بسلفهم الصالح من الصحابة والتابعين وتابع التابعين فى مراعاة أحوال المكلفين عند الوعظ والارشاد والتعليم وأن يحدثوهم بما يفهمون ويعون ، وأن يبتعدوا عن كل مافيه اشكال عليهم وفوق مستواهم وأفهامهم ، وليسعهم ماوسع

---

(١) انظر : فتح البارى ٢٢٥/١ .
(٢) فتح البارى ٢٢٥/١ .

رسولهم صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام والتابعين الأفاضل ، وأن يتحروا مافيه فائدة للمسلمين ونفعهم فيحدثوهم فيه ويربوهم عليه ، وأن يبتعدوا عن كل مايجلب عليهم الشبهة والفتنة في الدين .

ولايعني ذلك كتم العلم عن بعض الناس ، فان الله تعالى بين في كتابه أن على علماء الأمة ومربيها أن يبينوا الحق للناس وأن لايكتموا منه شيئا . قال تعالى : {إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد مابيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون الا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم} (١) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار" (٢) .

الى غير ذلك من النصوص التي تتوعد كاتم العلم بالعذاب الشديد يوم القيامة .

كما لايعني ذلك أيضا أن هناك علما للخاصة ، وعلما للعامة كلا ، وانما علم الله تعالى واحد ومطالب به الجميع كل على قدر مايستوعب ومايعي منه .

وانما المقصود من ذلك هو التدرج في التعليم والتربية عليه ، وأخذ المكلف خطوة خطوة ونقله من مستوى الى مستوى أعلى منه وهكذا .

فيعطى كل طالب علم مايستوعبه ومايحتاجه على حسب مستواه وادراكه وفهمه ، فاذا ارتفع مستواه العلمي وزاد

---

(١) سورة البقرة : آية ١٥٩-١٦٠

(٢) رواه الترمذي ١١٨/١٠ (وقال حديث حسن) .

فهمه وقوى ادراكه أعطى جرعات أخرى من العلم أرفع من الأولى .

وهكذا يتابع فى كل مرحلة بحسبها ، ويربى على ذلك فيكون هذا التدرج أزكى لنفسه ، وأوعى لعقله ، وأنقى لسلوكه .

وأختم هذا المبحث بما قاله أبو الحسن البصرى لكميل ابن زياد :

"ياكميل ان هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها للخير ، والناس ثلاثة : فعالم ربانى ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع اتباع كل ناعق يميلون مع كل صائح ، لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا الى ركن وثيق ... ثم قال : آه ان هاهنا علما – وأشار الى صدره – لو اصبت له حمله ، بل قد أصبت لقنا (١) يستعمل آلة الدين للدنيا ويستظهر بحجج الله على كتابه ، وبنعمه على معاصيه ، أو حامل حق لابصيرة له فى احيائه ، ينقدح الشك فى قلبه بأول عارض من شبهة لايدرى أين الحق .. ان قال أخطأ وان أخطأ لم يدر ، مشغوف بما لايدرى فهو فتنة لمن فتن به ، وان من الخير كله من عرفه الله دينه وكفى بالمرء جهلا أن لايعرف دينه" (٢) .

ومن هنا تعرف أهمية التدرج فى التربية واختصاص بعض الأفراد دون بعض لمزية الفهم ووضع الكلام فى موضعه واستبصار الأمور وانزالها فى منازلها .

---

(١) لقنا : أى سريع الفهم . لسان العرب ٣٩٠/١٣ ، مادة (لقن) .

(٢) أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية ١٧٦/٢ دار الجيل ، بيروت .

الباب الأول

مراتب تعليمه صلى الله عليه وسلم لأصحابه وتربيته لهم

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : تربيته صلى الله عليه وسلم لهم على العقيدة .

الفصل الثاني : تربيته صلى الله عليه وسلم لهم على العلم والعمل معا .

الفصل الثالث : تربيته صلى الله عليه وسلم لهم على تعليم العلم ونشر الدعوة .

الفصل الأول

تربيته صلى الله عليه وسلم أصحابه على العقيدة

ويشمل أربعة مباحث :

المبحث الأول : البدء بالاعتقاد وأهميته والأدلة على ذلك .

المبحث الثاني : تأسيس الاعتقاد .

المبحث الثالث : حماية الاعتقاد .

المبحث الرابع : نماذج من رجال العقيدة .

المبحث الأول

البدء بالاعتقاد وأهميته والأدلة على ذلك

المبحث الأول

البدء بالاعتقاد وأهميته
والأدلة على ذلك

من المعلوم أن الله عز وجل أنزل كتبه كلها ، وأرسل رسله كلهم ومنهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ليبينوا للناس الاعتقاد الصحيح ، لأن ذلك هو القاعدة الكبرى التي يقوم عليها ماسواها من أوامر الله تعالى ونواهيه .

قال الله تعالى : {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} (١) .

وقال سبحانه : {وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لااله الا أنا فاعبدون} (٢) .

وقال عز وجل : {ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لااله الا أنا فاتقون} (٣) .

وهذا دليل على أن جميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم افتتحوا دعوتهم مع أقوامهم بهذا الأصل العظيم : {اعبدوا الله مالكم من اله غيره} (٤) .

فالعابد لله وحده هو الذي يطيع أمره وأمر رسله ، ويوالي أولياءه المؤمنين المتقين ، ويعادي أعداءه الكافرين .

فما من رسول الا وابتدأ دعوته مع قومه بهذا الأصل العظيم ، وواجههم به ، ودعاهم الى الخضوع والدينونة لله

---

(١) سورة النحل : آية ٣٦
(٢) سورة الأنبياء : آية ٢٥
(٣) سورة النحل : آية ٢
(٤) سورة هود : آية ٦١

وحده ، والاقلاع عما كانوا عليه من الخضوع والدينونة لغيره سبحانه . وأمرهم باخلاص ذلك له وحده لاشريك له . وأوجب الله عليهم الجهاد لتحقيق ذلك الأصل وتقريره فى النفوس . الذى من أجله "نصبت الموازين ووضعت الدواوين ، وقام سوق الجنة والنار ، وبه انقسمت الخليقة الى المؤمنين والكفار ، والأبرار والفجار وأسست الملة ، ولأجله جردت السيوف للجهاد وهو حق الله على جميع العباد" (١) .

ولذلك بين الله تعالى هذا الأصل العظيم فى السور المكية كسورة الأنعام ، والأعراف ، وآل طسم ، وآل حم ، وآل المر ، وسور المفصل وغير ذلك . وفى مواضع كثيرة من السور المدنية ، فهو أصل الأصول وقاعدة الدين (٢) ، لأن الله سبحانه يعلم أنه لاصلاح للبشرية الا بالاعتقاد الصحيح الذى هو توحيد الله وعبادته وحده لاشريك له ، والايمان بالله وبرسوله واتباعه فيما جاء به . .

ولكن الله تعالى شاء بحكمته وتفضله على عباده بأن اكتفى منهم بالاعتقاد المجمل الذى يندرج تحته التفصيل ، وهو "تصديق خبر الرسول صلى الله عليه وسلم جملة وعلى الغيب ، والتزام شرائعه جملة وعلى الغيب" (٣) .

"فقبل منهم فى مبدأ الأمر أن يقروا بألسنتهم وقلوبهم بأن الله سبحانه هو ربهم ومعبودهم بحق ، دون سواه ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو رسول الله وأن جميع ماجاء به

---

(١) الفوائد لابن قيم الجوزية ص ١٤٣ بتصرف يسير ، ط/الثالثة ، تحقيق جابر يوسف .

(٢) انظر : فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ٥٣/١٠ ، دراسات قرآنية للأستاذ محمد قطب ص ٢١ .

(٣) حد الاسلام وحقيقة الايمان للشيخ عبد المجيد الشاذلى ص ١٠ ، طبعة جامعة أم القرى ، مركز البحث العلمى .

من عند ربه حق وصدق ، وواجب العمل به ، وجعل لذلك عنوانا هو الكلمة الطيبة (لااله الا الله ، محمد رسول الله) . فمن قالها بلسانه ، وصدق بها بجنانه ، ولم يقرنها بما ينقضها من القول أو العمل أو الاعتقاد دخل فى دين الله ، وفارق الكفر الذى كان عليه" (١) .

وقد ترد شبهة فى أن أركان الايمان كما وردت بها الأحاديث الصحيحة تزيد على الايمان بالله ، والايمان برسوله وأن شرائع الاسلام المطلوبة من المكلف أكثر من ذلك ، فكيف يكتفى بالشهادتين لدخول المكلف فى الايمان ؟

"والجواب على ذلك أن الايمان نوعان : ايمان مجمل ، وايمان مفصل .

فالأول : هو الايمان بالله وبكل ماجاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير تعرض لتفصيل ماجاء به ، فعندما يشهد العبد (أن لااله إلا الله وأن محمدا رسول الله) يكون قد صدق بكل ماجاءبه الرسول صلى الله عليه وسلم وماأخبر به من أركان الايمان ، وأركان الاسلام وان لم يعرفها بالتفصيل ، فان مقتضى ماصدر منه من الشهادتين أنه اذا بلغه شىء مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم آمن به وصدق .

لكن الذى بلغه التفصيل بالفعل ، فآمن به وعمل به ، يكون أقوى ايمانا وأعظم فضلا عند الله تعالى .

وأما من آمن ايمانا مجملا ، ثم بلغه شىء مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلم يؤمن به كان ناقضا لما

---

(١) كتاب الايمان ، د. محمد نعيم ياسين ص ١٦٢ ، طبعة مكتبة التراث الاسلامى .

صدر منه من الشهادتين ، وكان مرتدا بذلك" .(١)

عن محمد بن عبد الملك المصيصى قال : كنا عند سفيان ابن عيينة فى سنة سبعين ومائة ، فسأله رجل عن الايمان ؟

فقال : قول وعمل . قال : يزيد وينقص ؟ قال : يزيد ماشاء الله وينقص حتى لايبقى منه مثل هذه ، وأشار سفيان بيده .

قال الرجل : كيف نصنع بقوم عندنا يزعمون أن الايمان قول بلا عمل ؟ قال سفيان : كان القول قولهم قبل أن تقرر أحكام الايمان وحدوده .(٢)

ان الله عز وجل بعث نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم الى الناس كلهم كافة أن يقولوا : لااله الا الله ، وأنه رسول الله . فلما قالوها عصموا بها دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله عز وجل ، فلما علم الله عز وجل صدق ذلك من قلوبهم ، أمره أن يأمرهم بالصلاة ، فأمرهم ففعلوا ، فوالله لو لم يفعلوا مانفعهم الاقرار الأول .

فلما علم الله جل وعلا صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأمرهم بالهجرة الى المدينة ، فأمرهم ففعلوا ، فوالله لو لم يفعلوا مانفعهم الاقرار الأول ولاصلاتهم ، فلما علم الله تبارك وتعالى صدق ذلك من قلوبهم أمرهم بالرجوع الى مكة ليقاتلوا آباءهم وأبناءهم حتى يقولوا كقولهم ، ويصلوا صلاتهم ويهاجروا هجرتهم ، فأمرهم ففعلوا ، حتى أتى أحدهم

(١) كتاب الايمان ، ص ١٦٢،١٦٣ فى الهامش .
(٢) سبق الكلام عن أقوال أهل العلم فى هذه القضية فيما سبق ص ١٠٦-١٠٧ .

برأس أبيه فقال : يارسول الله : هذا رأس شيخ الكافرين ، فوالله لو لم يفعلوا مانفعهم الاقرار الأول ولاصلاتهم ولاهجرتهم ، ولاقتالهم ، فلما علم الله عز وجل صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأمرهم بالطواف بالبيت تعبدا ، وأن يحلقوا رؤوسهم تذللا ففعلوا ، فوالله لو لم يفعلوا مانفعهم الاقرار الأول ولاصلاتهم ، ولاهجرتهم ، ولاقتلهم آباءهم ، فلما علم الله عز وجل صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم بها ، فأمرهم ففعلوا حتى أتوا بها قليلها وكثيرها ، والله لو لم يفعلوا مانفعهم الاقرار الأول ، ولاصلاتهم ، ولاهجرتهم ، ولاقتلهم آباءهم ، ولاطوافهم .

فلما علم الله تبارك وتعالى الصدق من قلوبهم فيما تتابع عليهم من شرائع الايمان وحدوده قال عز وجل : قل لهم {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا} (١) .

قال سفيان : فمن ترك خلة من خلال الايمان كان بها عندنا كافرا ، ومن تركها كسلا أو تهاونا بها ، أدبناه وكان عندنا ناقصا ، هكذا السنة أبلغها عني من سألك من الناس" (٢) .

ولقد بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم تربيته لأصحابه بل للناس عامة أفرادا وجماعات بأن يعبدوا الله ولايشركوا به شيئا .

فبدأ بتصحيح الاعتقاد قبل أى شيء آخر ، وماذلك الا لأنه أساس التربية وجوهرها ليتحقق به تطهير النفوس من شوائب

---

(١) سورة المائدة : آية ٣
(٢) كتاب الشريعة لأبي بكر محمد بن الحسين الآجرى ص ١٠٤ ، الطبعة الأولى سنة ١٣٦٩هـ ، تحقيق محمد حامد الفقى ، الناشر : مطبعة أنصار السنة المحمدية بمصر .

الشرك ، والأخلاق السيئة ، وتقوية الايمان الذى يحمل المنهج الربانى وتكاليفه .

وهذا الاعتقاد الذى هو التوحيد ، قد فطر الله تعالى عليه الناس ثم جاءت الشياطين فحولتهم عن هذه الفطرة الى الشرك والضلال . قال الله تعالى : {فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون} (١) .

وقال تعالى : {واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين} (٢) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مامن مولود الا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء" (٣) .

وعن عياض بن حمار المجاشعى رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم فى خطبته : "ألا ان ربى أمرنى أن اعلمكم ماجهلتم مما علمنى ، وانى خلقت عبادى حنفاء كلهم وانهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم (٤) عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى مالم

---

(١) سورة الروم : آية ٣٠

(٢) سورة الأعراف : آية ١٧٢

(٣) رواه البخارى فى ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٧٩ ـ باب اذا أسلم الصبى فمات هل يصلى عليه ، وهل يعرض على الصبى الاسلام ؟ ١١٩/٢ رقم الحديث ١٣٥٨ .

(٤) قال فى لسان العرب : "واجتالهم الشيطان : حولهم عن القصد . وفى الحديث : ان الله تعالى يقول : "انى خلقت عبادى حنفاء فاجتالهم الشيطان" أى استخفهم فجالوا معه" . اللسان ١٣١/١١ .

أنزل به سلطانا " (١) .

وقد وضح سيد قطب تلك الحالة التى كانت عليها البشرية أيام بعثة النبى صلى الله عليه وسلم وقد حولتهم الشياطين عن الحنيفية السمحة وجرفتهم الى الشرك والضلال ، وكيف عالج النبى صلى الله عليه وسلم تلك النفوس ، وكيف صحح تلك الأوضاع الفاسدة . فقال رحمه الله تعالى :

"ولقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والجزيرة العربية نهب مقسم بين الرومان فى الشمال ، والفرس فى الجنوب ، يضعون أيديهم على أخصب بقاع الجزيرة وعلى سواحل البحار ، وعلى موارد الأرزاق والاتجار . وبعث صلى الله عليه وسلم ، والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية السائدة تمثل عهد الرق بمعظم سماته المميزة .

وبعث صلى الله عليه وسلم والأخلاق هى أخلاق الجاهلية فى الخمر والزنا والقمار واللهو والشر والفساد .

فلم يبدأ - ولم يوجهه ربه الى البدء - بشىء من هذا كله ، وقد كان يملك أن يدعو العرب الى وحدة قومية لطرد الرومان والفرس من أخصب بقاع الجزيرة ، ويوجه طاقة القتال فيهم والثارات بينهم الى أعدائهم القوميين ، فيدينوا له بالزعامة وينسوا مابينهم من أحقاد .

وقد يرتفعون عن حياة اللهو الهابط شيئا ما ، وكذلك بعد أن يقودهم من نصر الى نصر يدعوهم الى الاسلام ، والى الاصلاح الاجتماعى والاقتصادى ، ويعالج التفاوت الفاحش بين الطبقات ، وكان يملك منذ البدء أن يقدم للعرب نظاما مفصلا

---

(١) رواه مسلم فى ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، ١٦ - باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار ٢١٩٧/٤ رقم الحديث ٢٨٦٥ .

للمجتمع ، وتشريعات محددة فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والأخلاق . ثم يقول لهم : انظروا هذا خير مما عندكم ، فاتبعونى وتعالوا ننفذ هذا النظام وهذه التشريعات ، فلايكون اتباعهم له اقرارا لله بالعبودية واعترافا لله بالدينونة ، انما يكون ذلك استحسانا لما معه من النظام الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والأخلاقى . ويكونون هم الحكم الذى يستحسن أو يستهجن ، ويقبل أو يرفض مايجيئهم من عند الله ، وينقلب الوضع فبدلا من أن تكون دينونتهم لله هى دينونة الرضى والتسليم بعبوديتهم لألوهيته ، يصبحون هم فى موقف الحكم الذى يقبل أو يرفض حكم الله .

ولكن الله سبحانه كان يعلم ، وكان يعلم نبيه ويوجهه أن هذا ليس هو الطريق ، وأن هذا ليس الأساس . انما الأساس أن يعرف الناس ربهم الحق ، ويدينوا له بالعبودية وحده ، ويتحرروا من عبادة العباد ، ويقبلوا كل مايجيئهم من عند الله ، لأنه من عند الله ، فى استسلام كامل ، هو الاسلام ، وفى رضى بما رضيه الله .. ومن ثم ناط الايمان بألا يجدوا فى أنفسهم حرجا ، وأن يسلموا تسليما .

وكان الله سبحانه يعلم ، وكان يعلم نبيه أن رد الاعتداء على سلطان الله الذى يدعيه العبيد ، والغيرة على جلال الله الذى يتطاول عليه العبيد ، يجب أن يتم قبل رد الاعتداء عن أطراف الجزيرة ، وقبل رد اعتداء بعض الناس على بعض فى الجزيرة . لأنهم لن يردوا الاعتداء عن أنفسهم أبدا وقد ارتضوا الاعتداء على جلال الله .. وأنهم ان تحرروا من المعتدين الغرباء ، فانهم سيستعبدون للمعتدين منهم ، كما يستعبدون لهواهم وشهواتهم ، وكلها عبودية . والعبودية

كلها سواء ، وأنهم ينبغى أن يتحرروا أولا من عبادة العباد جملة ، وعندئذ ينطلقون فى الأرض أحرارا محررين يخرجون من شاء الله تعالى من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، وهذا هو الذى كان ، وهذا هو منهج الله الذى لامنهج لمسلم سواه " (١) .

ومما يدل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتدأ دعوته مع الناس أفرادا وجماعات بتصحيح الاعتقاد قبل أى شىء آخر وأنه قد يذكر بعض الأمور الاسلامية العملية تبعا لها ومعها ، مايلى :

(١) جاء فى السيرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عرض الاسلام على أبى بكر رضى الله عنه ، فقال له :

"يا أبا بكر : انى رسول الله ونبيه بعثنى لأبلغ رسالته وأدعوك الى الله بالحق ، فوالله انه للحق ، أدعوك الى الله وحده لاشريك له ولاتعبد غيره ، والموالاة على طاعته أهل طاعته ، وقرأ عليه القرآن فلم يفر ولم ينكر ، فأسلم وكفر بالأصنام وخلع الأنداد وأقر بحق الاسلام . ورجع وهو مؤمن مصدق وأظهر اسلامه " (٢) .

ففى هذا الخبر دلالة واضحة على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما عرض الاسلام على أبى بكر رضى الله عنه ، بدأ معه بالمفتاح الأول للتربية الايمانية ألا وهو تصحيح الاعتقاد قبل أى شىء آخر وركز عليه ، وأكده بقوله : "فوالله انه للحق" .

---

(١) مقومات التصور الاسلامى للأستاذ سيد قطب ص ١٨٢-١٨٣ ، الطبعة الأولى ، دار الشروق .

(٢) السير والمغازى ، محمد بن اسحاق المطلبى ، دار الفكر الطبعة الأولى ١٣٩/٢ ، السيرة النبوية لابن كثير ٤٣٣/١ الطبعة الحلبية ١٣٨٤هـ ، السيرة الحلبية على برهان الدين ٤٤٤/١ ، الطبعة الحلبية .

وفي هذا دلالة أيضا على أهمية البدء بالاعتقاد الصحيح وأن المربى عليه الصلاة والسلام بين معالمه عند عرضه أول مرة بأن مايدعو اليه حق لاشك فيه ، وأن حقيقة الاعتقاد تتمثل في عبادة الله وحده بلاشريك ، واطراح عبادة ماسواه ، وموالاة أهل طاعته ، والبراءة من أهل الشرك والضلال ، والاقرار بذلك ثم المحافظة على حق الاسلام ايمانا وتصديقا . فأسلم أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، واستجاب لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم وصدق به ، ولم يتردد في ذلك فكفر بالأصنام وخلع الأنداد ، وأقر بحق الاسلام .

ولذلك قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"مادعوت أحدا الى الاسلام الا كانت له عنه كبوة وتردد ونظر الا أبا بكر ماتردد فيه " (١) .

وقال أيضا صلى الله عليه وسلم عن أبي بكر :

"ان الله بعثني اليكم فقلتم كذبت ، وقال أبو بكر صدق وواساني بنفسه وماله " (٢) .

(٢) ومما يؤكد أهمية البدء بالاعتقاد ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبدأ دعوته به ، جواب رسول الله لخالد بن سعيد بن العاص حينما سأله الام تدعو ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"أدعوك الى الله وحده لاشريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وتخلع ماأنت عليه من عبادة حجر لايسمع ولايبصر ، ولايضر ولاينفع ، ولايدرى من عبده ممن لايعبده " .

---

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة عن ابن اسحاق ١٦٤/٢ ، تحقيق د. عبد المعطي قلعجي ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٢) رواه البخاري في ٦٢ ـ كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ٥ ـ باب قول النبي لو كنت متخذا خليلا ٢٣٢/٤ ، رقم الحديث ٣٦٦١ .

قال خالد : فاني أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أنك رسول الله ، فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم باسلامه (١) .

فهنا واضح أن النبى صلى الله عليه وسلم حينما سأله خالد بن العاص عن الأمور التى يدعو اليها . فأخبره ووجه اليه الدعوة مباشرة ، فدعاه الى عبادة الله وحده لاشريك له وأن محمدا رسول الله وأمره باطراح ماينافض التوحيد الخالص ، فأمره بخلع الأنداد ونبذ عبادة ماسوى الله تعالى من حجارة أو غيرها .

فان من صفات المعبود الحقيقى أنه يسمع ويبصر ، وأن بيده الضر والنفع ، ويثيب من أطاعه ، ويعاقب من عصاه .

وأما هذه الأنداد التى تعبد من دون الله تعالى فانها لاتسمع ولاتبصر ، ولاتضر ولاتنفع نفسها فضلا عن غيرها ، ولاتدرى من توجه اليها بالعبادة فتثيبه ولامن لم يعبدها فتعاقبه . وصدق الله العظيم حيث قال سبحانه عنها : {واتخذوا من دونه آلهة لايخلقون شيئا وهم يخلقون ولايملكون لأنفسهم ضرا ولانفعا ولايملكون موتا ولاحياة ولانشورا} (٢) .

وبهذا أقام النبى صلى الله عليه وسلم الحجة وأقام الدليل والبرهان على أن الله هو الذى يستحق العبادة وحده لاشريك له ، فاقتنع خالد بن سعيد رضى الله عنه ، فأسلم وأقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما ، وفرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وسر من اسلامه رضى الله عنه واستجابته لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) رواه البيهقى فى دلائل النبوة ١٧٢/٢-١٧٣ ، دار الكتب العلمية ، وفي البداية والنهاية لابن كثير ٣٢/٢ ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، والسيرة النبوية لابن كثير ٤٤٥/١ .

(٢) سورة الفرقان : آية ٣

(٣) ومما يؤكد أهمية البدء بالاعتقاد كذلك ، وأنها ضرورية في استصلاح البشر لأنها هي المفتاح الأول للتربية ، وأساس قبول الأعمال كما قال تعالى : {فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه أحدا}.(١)

وكما أخبر تعالى عن المشركين الذين لم يقروا بهذا الأصل العظيم أن جميع أعمالهم باطلة مردودة عليهم فقال سبحانه : {وقدمنا الى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا}(٢)

مما يؤكد هذا ماجاء عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وسؤاله النبي صلى الله عليه وسلم لما رآه يصلي هو وزوجته خديجة رضي الله عنها . فقال : يامحمد ماهذا ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : "دين الله الذي اصطفاه لنفسه ، وبعث به رسله ، فأدعوك الى الله وحده لاشريك له ، والى عبادته ، وأن تكفر باللات والعزى" .

فقال علي : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، فلست بقاض شيئا حتى أحدث به أبا طالب ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفشي عليه سره قبل أن يستعلن أمره ، فقال له ياعلي اذا لم تسلم فاكتم . فمكث علي تلك الليلة ثم أوقع الله في قلبه الاسلام ، فأصبح غاديا على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءه فقال : ماذا عرضت علي يامحمد ؟

فقال له : تشهد أن لااله الا الله وحده لاشريك له ، وتكفر باللات والعزى ، وتبرأ من الأنداد" .

---

(١) سورة الكهف : آية ١١٠
(٢) سورة الفرقان : آية ٢٣

ففعل على وأسلم ، ومكث يأتيه على خوف من أبى طالب وكتم على اسلامه ، وكان مما أنعم الله به عليه أنه كان فى حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمره اذ ذاك عشر سنين" .(١)

ففى هذا الخبر دلالة واضحة فى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتدأ دعوته لعلى رضى الله عنه ، ببيان أن الله واحد لاشريك له ، وأنه هو الذى يستحق العبادة وحده بلاشريك وأن الكفر باللات والعزى من مقتضيات التوحيد الأساسية ، وأنه لابد من نبذ الأنداد واطراحها ، والبراءة منها .

ففعل على رضى الله عنه من أول الطريق واستجاب لدعوة المصطفى صلى الله عليه وسلم .

(٤) ومما يؤكد اهتمام النبى صلى الله عليه وسلم بتصحيح الاعتقاد ، والبدء به ، ماقاله لوفد قريش حينما جاؤوا الى عمه أبى طالب يطلبون منه أن يكف عنهم ابن أخيه محمداً صلى الله عليه وسلم . عن ابن عباس رضى الله عنه قال :

"مرض أبو طالب فجاءته قريش ، وجاءه النبى صلى الله عليه وسلم ، وعند أبى طالب مجلس رجل فقام أبو جهل كى يمنعه ، قال : وشكوه الى أبى طالب . فقال : يا ابن أخى ماتريد من قومك ؟

قال : أريد منهم كلمة تدين لهم بها العرب ، وتؤدى اليهم العجم الجزية ، قال : كلمة واحدة ؟ قال : كلمة واحدة .

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ١/٤٢٤-٤٢٨ ، السيرة الحلبية ١/٤٢٤ ، تاريخ الأمم والملوك ، محمد بن جرير الطبرى ٢/٣٠٧-٣١٣ ، المكتبة التجارية ، القاهرة .

فقال : ياعم قولوا لااله الا الله . فقالوا : الها واحدا ؟ ماسمعنا بهذا فى الملة الآخرة ان هذا الا اختلاق .

قال : فنزل فيهم القرآن {ص والقرآن ذى الذكر بل الذين كفروا فى عزة وشقاق . كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص . وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشىء عجاب وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشىء يراد . ماسمعنا بهذا فى الملة الآخرة ان هذا الا اختلاق} . (١) (٢)

فالرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا الخبر يبتدىء دعوته لقريش بقضية تصحيح الاعتقاد قبل أى شىء آخر .

ولذا قال لهم عندما جاؤوا الى عمه أبى طالب يطلبون منه أن يكف عنهم ابن أخيه ، وأن يمنعه من التعرض لهم ولأصنامهم التى يعبدونها من دون الله تعالى . فقال لهم صلى الله عليه وسلم : "قولوا لااله الا الله" التى تعنى التوحيد الخالص لله تعالى وحده لاشريك له ، وترك الشرك فى القول والعمل والاعتقاد ، وفى هذا دلالة واضحة على أن البدء بالاعتقاد منهجه صلى الله عليه وسلم فى دعوته وتربيته .

وأن الاعتقاد الصحيح باب الاسلام الذى لاينجو أحد الا به . ولذا اعترضوا عليه صلى الله عليه وسلم بقولهم : {أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشىء عجاب} (٣) .

وفى هذا دليل على أنهم يعرفون ماتعنى هذه الكلمة الطيبة ، كما أنهم يعرفون أن رسول الله صلى الله عليه

---

(١) سورة ص : آية ١-٧

(٢) رواه الترمذى فى كتاب تفسير القرآن ، باب ومن سورة ص ٣٤١/٥ وقال : هذا حديث حسن .

(٣) سورة ص : آية ٥

وسلم لايطلب منهم مجرد التلفظ بها فقط ، وانما يعرفون أنه يريد منهم العمل بمقتضاها ، الذى هو توحيد الله تعالى واخلاص العبادة له وحده لاشريك له والاقلاع عن الشرك الذى هم عليه بكل صوره وأشكاله . ولهذا ردوا هذه الدعوة المباركة المتمثلة فى الكلمة الطيبة وصدوا عنها ، واعترضوا عليها بأنهم لم يسمعوا بهذا الكلام قبل ذلك فى ملة الآباء والأجداد (١) .

وفى هذا دليل واضح بأنهم رفضوا دين الله تعالى ودعوته ، على علم بها وبما تعنى كلمة (لااله الا الله محمد رسول الله) التى هى مفتاح الاسلام الذى تكون به النجاة والفلاح والفوز يوم القيامة .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرن أحيانا مع الدعوة الى الاعتقاد الصحيح ، الدعوة الى بعض أصول الاسلام العملية كصلة الأرحام ، والصلاة ، والزكاة ، والحج وغير ذلك من الأمور المهمة فى دين الله تعالى . ومما يدل على ذلك مايأتى :

(١) عن عمرو بن عبسة السلمى قال : "كنت وأنا فى الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة وأنهم ليسوا على شىء وهم يعبدون الأوثان فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارا فقعدت على راحلتى فقدمت عليه فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفيا جرآء عليه قومه فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة ، فقلت له مانت (٢) ، قال أنا نبى فقلت : ومانبى؟ قال : أرسلنى الله

---

(١) انظر : تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ١٠٠/٩ .
(٢) قال النووى : "قوله (فقلت له ما أنت) هكذا هو فى الأصول ما أنت ، وانما قال : ما أنت ولم يقل من أنت لأنه سأل عن صفته لاعن ذاته والصفات مما لايعقل" . صحيح مسلم بشرح النووى ١١٥/٦ .

فقلت : وبأى شىء أرسلك ؟ قال : أرسلنى بصلة الأرحام وكسر الأوثان وأن يوحد الله لايشرك به شىء . قلت له : فمن معك على هذا . قال : حر وعبد . قال : ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به " (١) .

ففى هذا الحديث نرى أن عمرو بن عبسة سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نفسه ، فأخبره رسول الله بأنه رسول الله أرسله الى الناس لكى يدعوهم الى التوحيد والاقلاع عن الشرك ، والسعى لتكسير الأوثان واهانتها ، واقامة الحجة عليهم فى أنها لاتنفع ولاتضر بدليل أنها لاتستطيع أن تدفع عن نفسها التكسير والاهانة .

وكذلك أرسله لدعوة الناس بصلة الأرحام وأهميتها فى دين الله تعالى .

وفى هذا "دلالة ظاهرة على الحث على صلة الأرحام ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قرنها بالتوحيد ولم يذكر له حزبات الأمور وانما ذكر مهمها وبدأ بالصلة " (٢) .

(٢) ومما يؤكد ماسبق هذا الخطاب الذى دار بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين أبى ذر الغفارى رضى الله عنه ، عن طريق السؤال من قبل أبى ذر ، وجواب النبى صلى الله عليه وسلم على سؤاله ، كما روى ذلك عبد الرزاق وغيره من طريق مجاهد ، أن أبا ذر رضى الله عنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الايمان ، فتلا عليه قول الله تعالى : {ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن

---

(١) رواه مسلم فى ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، ٥٢ ـ باب اسلام عمر بن عبسة ٥٦٩/١ رقم الحديث ٨٣٢ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ١١٥/٦ .

البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون} (١).

وقال الحافظ ابن حجر : "ورجاله ثقات" (٢).

ففى هذا الحديث نرى أن النبى صلى الله عليه وسلم رد على سؤال أبى ذر رضى الله عنه ، بأن تلا عليه آية جمعت حقيقة الايمان وصفاته ومعالمه ، وضمت مع الاعتقاد الصحيح كثيرا من القضايا العملية كالانفاق على ذوى القربى والمساكين واليتامى وابن السبيل ، وأصحاب الرقاب ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، والوفاء بالعهد ، والصبر عند المصيبة والضر وأقدار الله تعالى . وجعل من حقق ذلك من الصادقين فى ايمانهم. الذين بلغوا فيه كمال الايمان والتقوى .

وفى هذا دليل على أهمية العرض التربوى النبوى المناسب للحالة عند البيان ، فالآية حصرت التقوى وصدق الايمان على أصحاب هذه الصفات الايمانية .

"ووجه الاستدلال بهذه الآية أنها حصرت التقوى على أصحاب هذه الصفات ، والمراد المتقون من الشرك والأعمال السيئة ، فاذا فعلوا وتركوا فهم المؤمنون الكاملون" (٣).

---

(١) سورة البقرة : آية ١٧٧

(٢) ذكر هذا الحديث الحافظ ابن حجر فى فتح البارى بعد ذكره للآية {ليس البر أن تولوا وجوهكم} التى ذكرها الامام البخارى بدون ايراد هذا الحديث لأنه ليس على شرطه . فتح البارى ١/٥٠،٥١ .

(٣) فتح البارى ١/٥١ بتصرف قليل .

وفى اجابة النبى صلى الله عليه وسلم لأبى ذر رضى الله عنه بهذه الآية التى جمعت أصول الاعتقاد الصحيح وبدأت به قبل تكاليف النفس والمال ، دليل على أهمية البدء بالاعتقاد وأن بقية تعاليم الاسلام وفروعه تابعة لهذا الأصل العظيم ، ويؤمر بها مع الأمر بالاعتقاد الصحيح وربطها به ، لأنه الأصل والأساس فى قبولها عند الله تعالى . قال ابن كثير رحمه الله تعالى :

"فان من اتصف بهذه الآية فقد دخل فى عرى الاسلام كلها ، وأخذ بمجامع الخير كله ، وهو الايمان بالله تعالى ، وأنه لااله الا هو ، وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسوله ... هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا فى ايمانهم لأنهم حققوا الايمان القلبى بالأقوال والأفعال ، فهؤلاء هم الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات" (١) .

ويقول الأستاذ سيد قطب :

"وهكذا تجمع آية واحدة بين أصول الاعتقاد ، وتكاليف النفس والمال ، وتجعلها كلا لايتجزأ ، ووحدة لاتنفصم . وتضع على هذا كله عنوانا واحدا هو "البر" أو هو "جماع الخير" أو هو "الايمان" كما ورد فى بعض الأثر .

والحق أنها خلاصة كاملة للتصور الاسلامى ولمبادىء المنهج الاسلامى المتكامل لايستقيم بدونها اسلام ... أولئك الذين صدقوا ربهم فى اسلامهم . صدقوا فى ايمانهم واعتقادهم وصدقوا فى ترجمة هذا الايمان والاعتقاد الى مدلولاته

---

(١) تفسير ابن كثير ٢٠٩،٢٠٧/١ ، دار المعرفة ١٣٨٨هـ .

الواقعية فى الحياة " (١) .

(٣) ومما يدل على ماسبق أيضا ماروواه أبو أيوب رضى الله عنه أن أعرابيا عرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى سفر فأخذ بخطام ناقته أو بزمامها ، ثم قال : يارسول الله أو يامحمد أخبرنى بما يقربنى من الجنة ومايباعدنى من النار ، قال : فكف النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم نظر فى أصحابه ، ثم قال : "لقد وفق أو لقد هدى" قال : كيف قلت قال : فأعاد . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "تعبد الله لاتشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصل الرحم ، دع الناقة " (٢) .

ففى هذا الحديث يشد النبى صلى الله عليه وسلم انتباه الصحابة رضى الله عنهم الى سؤال الأعرابى له عن مايقربه من الجنة ومايباعده عن النار ، بنظره صلى الله عليه وسلم اليهم وقوله : لقد وفق بسؤاله هذا . وطلب صلى الله عليه وسلم من الأعرابى أن يعيد سؤاله مرة ثانية ، وقد انتبه السامعون لسماع السؤال واستعدوا لمعرفة الجواب ، ثم أجاب صلى الله عليه وسلم على سؤال الأعرابى مبتدءا بقضية الاعتقاد "تعبد الله لاتشرك به شيئا " ثم قرن ذلك باقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصلة الرحم . وفى هذا تربية للصحابة رضوان الله عليهم على أهمية البدء بالاعتقاد وأنه ينتقل معه الى غيره .

---

(١) فى ظلال القرآن ١٦٢،١٦١/١ ، دار الشروق ، الطبعة الرابعة ١٣٩٧هـ ، وانظر : دراسات قرآنية ص ٣٠٣ .
(٢) رواه مسلم فى ١ - كتاب الايمان ، ٤ - باب بيان الايمان الذى يدخل به الجنة وأن من تمسك بما أمر به دخل الجنة ٤٢/١-٤٣ رقم الحديث ١٣ .

قال الامام النووى رحمه الله تعالى :

"المراد بالعبادة : الطاعة مطلقا ، فيدخل جميع وظائف الاسلام فيها ، فعلى هذا يكون عطف الصلاة وغيرها من باب ذكر الخاص بعد العام ، تنبيها على شرفه ومزيته كقوله تعالى : {واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح}(١) ونظائره . وأما قوله صلى الله عليه وسلم : "لاتشرك به" فانما ذكره بعد العبادة لأن الكفار كانوا يعبدونه سبحانه وتعالى فى الصورة ويعبدون معه أوثانا يزعمون أنها شركاء فنفى هذا"(٢) . والله أعلم .

(٤) ومما يؤكد ماسبق حديث بشير بن الخصاصية(٣) قال : "أتيت النبى صلى الله عليه وسلم لأبايعه ، فاشترط على شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وأن أقيم الصلاة ، وأن أوتى الزكاة ، وأحج حجة الاسلام ، وأن أصوم رمضان ، وأن أجاهد فى سبيل الله .

فقلت : يارسول الله ، أما اثنتين فوالله ماأطيقهما : الجهاد والصدقة . فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم يده ثم حركها ، وقال : فلاجهاد ولاصدقة ، فبم تدخل الجنة اذا ؟ قلت : أبايعك ، فبايعته عليهن كلهن"(٤) .

---

(١) سورة الأحزاب : آية ٧

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ١٦٢/١ .

(٣) بشير بن الخصاصية : اختلفوا فى نسبه فقالوا بشير بن يزيد بن معبد ، وقيل بشير بن معبد بن شراحيل . روى عن النبى أحاديث صالحة وهو من المهاجرين من ربيعة ، روى عنه أبو المثنى العبدى .
أسد الغابة ٢٢٩/١ .

(٤) رواه الامام أحمد فى مسنده ٢٢٤/٥ .
ورواه الحاكم فى المستدرك ٨٠/٢ وقال : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه ، وبشر بن الخصاصية من المذكورين فى الصحابة من الأنصار رضى الله عنهم .
ورواه الطبرانى فى الكبير ٤٤/٢ .

ففي هذا الحديث يتحدث الصحابي الجليل بشير بن الخصاصية عن دخوله الى الاسلام ومبايعة النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك ، فبدأ الرسول بقضية الاعتقاد أولا فاشترط عليه "شهادة أن لااله الا الله وأن محمدا رسول الله" قبل أمره بالصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد ، لأن هذه الأمور تبع للأمر الأول وهو عبادة الله وحده بلاشريك ، فهو مفتاح الأعمال كلها وسر قبولها عند الله تعالى . وأن مابعدها تبع لها . ولذلك قرن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك باقامة الصلاة وايتاء الزكاة ، وأداء الحج ، وصيام رمضان ، والجهاد في سبيل الله تعالى . وجعل ذلك من الايمان ومن أسباب دخول الجنة .

وفي الحديث من الفوائد سعة صدره صلى الله عليه وسلم وحلمه مع من يخاطبه ويراجعه ، وتحمله لذلك بصدر رحب ونفس راضية مما جعل الصحابة يقبلون عليه ويحبونه صلى الله عليه وسلم .

(٥) ومما يؤكد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرن مع الدعوة الى الاعتقاد الصحيح بعض التعاليم الاسلامية من صلاة وزكاة وصيام ماورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال "ان وفد عبد القيس لما أتوا النبي صلى الله عليه وسلم قال من القوم - أو من الوفد - (١) ؟

فقالوا : ربيعة . قال : مرحبا بالقوم أو - بالوفد - غير خزايا ولاندامى . فقالوا : يارسول الله ، انا لانستطيع

---

(١) قال صاحب التحرير : "الوفد الجماعة المختارة من القوم ليتقدموهم في لقي العظماء والمصير اليهم في المهمات . واحدهم وافد ، قال : ووفد عبد القيس هؤلاء تقدموا قبائل عبد القيس للمهاجرة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا أربعة عشر راكبا" .
صحيح مسلم بشرح النووي ١٨١/١ .

أن نأتيك الا فى الشهر الحرام وبيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر ، فمرنا بأمر فصل نخبر به من وراءنا ، وندخل به الجنة . وسألوه عن الأشربة ، فأمرهم بأربع ، ونهاهم عن أربع .

أمرهم : بالايمان بالله وحده . قال : أتدرون ما الايمان بالله وحده ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، وأن تعطوا من المغنم الخمس .

ونهاهم عن أربع : عن الحنتم (١) ، والدباء (٢) ، والنقير (٣) ، والمزفت ، وربما قال : المقير (٤) .

وقال : احفظوهن وأخبروا بهن من وراءكم " (٥) .

ففى قصة وفد عبد القيس تبرز قضية الاعتقاد جلية واضحة حيث بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بأمرهم "بشهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله" فأمرهم بها قبل أى شىء آخر ، وفى هذا تربية لوفد عبد القيس وللسامعين من

---

(١) الحنتم : الواحدة حنتمة . وقد اختلف فيه ، فأصح الأقوال وأقواها أنها جرار خضر . هامش صحيح مسلم ٤٦/١

(٢) الدباء : هو القرع اليابس ، أى الوعاء منه . نفس المرجع السابق ٤٦/١ .

(٣) النقير : جذع ينقر وسطه . نفس المرجع السابق ٤٦/١ .

(٤) المقير : هو المزفت ، وهو المطلى بالقار وهو الزفت . المرجع السابق ٤٦/١ .

"وأما معنى النهى عن هذه الأربع فهو أنه نهى عن الانتباذ فيها ، وهو أن يجعل فى الماء حبات من تمر أو زبيب أو نحوهما ليحلو ويشرب ، وانما خصت هذه بالنهى لأنه يسرع اليها الاسكار فيها ، فيصير حراماً نجساً" . من كلام الشيخ محمد فؤاد عبد الباقى فى هامش صحيح مسلم ٤٦/١ .

(٥) رواه البخارى فى ٢ ـ كتاب الايمان ، ٤١ ـ باب أداء الخمس من الايمان ٢٣/١ رقم الحديث ٥٣ .

ورواه مسلم فى ١ ـ كتاب الايمان ، ٦ ـ باب الأمر بالايمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وشرائع الدين والدعاء اليه والسؤال عنه ، وحفظه وتبليغه من لم يبلغه ٤٦/١ رقم الحديث ١٧ .

الصحابة رضوان الله عليهم على أهمية قضية الاعتقاد الصحيح وأنها ليست قضية عابرة انتهت ، أو أن ينتقل عنها الى غيرها ، بل يبدأ بها قبل غيرها ثم يذكر مابعدها من الأمور تبعا لها ومعها .

ولهذا فان المربى العظيم عليه الصلاة والسلام ، قرنها باقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، واعطاء الخمس من الغنيمة ، ونهاهم عن بعض الأشربة ، ثم أمرهم بحفظ ما أمرهم به ، ومانهاهم عنه ، ثم أمرهم ثانية بابلاغ هذه الأوامر وفى مقدمتها الاعتقاد الصحيح المتمثل فى شهادة "لااله الا الله وأن محمدا رسول الله" ، وتلك النواهى الأربع التى ذكرها لهم الى من ورائهم من أقوامهم ، وبيان ذلك لهم ودعوتهم الى التمسك بها وتطبيقها .

وفى الحديث حث على العلم وحفظه وتطبيقه ، وفيه أيضا حث على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

(٦) ومما يؤكد ماسبق أيضا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فى مكة لوفد بنى شيبان : "أدعوكم الى شهادة أن لااله الا الله ، وحده لاشريك له ، وأن تؤوونى وتنصرونى حتى أؤدى عن الله الذى أمرنى به . فان قريشا قد تظاهرت على أمر الله ، وكذبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحق..." (١)

---

(١) البداية والنهاية ١٥٨/٣، ١٥٩ .

ففي هذا النص ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا وفد بني شيبان ابتداء الى الاعتقاد الصحيح وقرنه بطلب النصرة والايواء في الوقت نفسه لكي يؤدي دعوة الله تعالى التي أمره بتبليغها للناس كافة . وكذلك أعلن تسفيه أحلام قريش وأنهم تظاهروا على أمر الله الذي جاءهم به ، وكذبوه واستغنوا بالباطل عن الحق المبين .

(٧) ومما يدل على ذلك أيضا مارواه عبادة بن الصامت رضي الله عنه – وكان شهد بدرا ، وهو أحد النقباء ليلة العقبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وحوله عصابة من أصحابه :

"بايعوني على أن لاتشركوا بالله شيئا ، ولاتسرقوا ، ولاتزنوا ، ولاتقتلوا أولادكم ، ولاتأتون ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولاتعصوا في معروف . فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو الى الله ، ان شاء عفا عنه ، وان شاء عاقبه ، فبايعناه على ذلك" (١) .

ففي هذا الحديث طلب الرسول صلى الله عليه وسلم من الأنصار أن يبايعوه على عدم الاشراك بالله تعالى ، وعلى الابتعاد عن السرقة ، وعن الزنا ، وعن قتل الأولاد خشية الفقر أو العار ، ونهاهم كذلك عن البهتان والافتراء أيا

---

(١) رواه البخاري في ٢ – كتاب الايمان ، ١١ – باب ١٢/١ رقم الحديث ١٨ .
ورواه مسلم في ٢٩ – كتاب الحدود ، ١٠ – باب الحدود كفارات لأهلها ١٣٣٣/٣ رقم الحديث ١٧٠٩ .

كان نوعه ، وعن معصيته صلى الله عليه وسلم فى أى معروف يأمرهم به .

فمن الملاحظ أن المربى عليه الصلاة وأتم التسليم بدأ البيعة بقضية الاعتقاد ، وهو توحيد الله وعدم الشرك به سبحانه ، وقرن به دعوتهم الى الاقلاع والابتعاد عن المعاصى من سرقة ، وزنا ، وقتل ، وبهتان وافتراء ، ثم وعدهم بعد ذلك بالأجر من الله تعالى لمن وفى بذلك والتزم به ، ووكل أمرهم الى الله تعالى ، فمن خالف شيئا مما أمرهم به ، فعوقب عليه فى هذه الحياة الدنيا فهو كفارة له .

ومن ستره الله تعالى ولم يكشف أمره ، فأمر ذلك الى الله تعالى فان شاء غفر له ، وان شاء عذبه على ما ارتكب من مخالفة . وبهذا تمت البيعة ، وبايعوه على ذلك والتزموا بمقتضى تلك البيعة رضى الله عنهم وأرضاهم .

وفى هذا تربية للصحابة رضوان الله عليهم ، ولاسيما وهم حوله يسمعون ويرون أحداث المبايعة المباركة .

ومن مجموع هذه الأدلة يتبين لى أن أصل الأصول وقاعدة الدين ورأس الاسلام مطلقا "شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم" ، ولذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يبدأ بتحقيقها والدعوة اليها قبل أى شىء آخر مع الأفراد والجماعات .

وكان صلى الله عليه وسلم يجعلها فى مقدمة الأعمال بل أفضلها لأن قبول الأعمال مترتب على قبولها وتحققها فى القلب .

كيف لا وهى التى لايدخل العبد فى الاسلام الا بها ، ولايكون مقبولا عند الله تعالى الا بالاستمرار عليها ، ولايخرج

من الاسلام الا بما ينقضها اما بجحود لما دلت عليه أو باستكبار عما استلزمته . ولذلك لم يبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء قبلها ولايقبل الله تعالى من أحد شيئا دونها ، لأنها قاعدة الدين وأصله . فبشهادة "أن لا اله الا الله" يعرف المكلف معبوده ومايجب له ، وبشهادة "أن محمدا رسول الله" يعرف كيف يعبده ومن أى طريق يصل اليه .

اذ محال أن يؤمن أحد بالعبادة قبل أن يعرف معبوده سبحانه وكيفية عبادته على الوجه المطلوب .

لأنه في الحقيقة لايستحق العبادة الا الله وحده لاشريك له . ولايعبد الله تعالى الا بما شرعه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، فبشهادة "أن لا اله الا الله" توحيد المعبود الذى ماخلق الخلق الا ليعبدوه وحده لاشريك له كما قال سبحانه : {وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون} (١) .

وبشهادة "أن محمدا رسول الله" توحيد الطريق الذى لايوصل الى الله تعالى الا منه ، ولايقبل الله دينا ممن ابتغى غيره ورغب عنه ، كما قال تعالى : {ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين} (٢) .

فعبادة الله تعالى هى أمر جامع لكل مايحبه الله ويرضاه اعتقادا وقولا وعملا (٣) .

"فالعبودية لله وحده هى شطر الركن الأول فى العقيدة الاسلامية المتمثل فى شهادة "أن لا اله الا الله" .

والتلقى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى كيفية هذه العبودية هو شطرها الثانى المتمثل فى شهادة "أن محمدا

---

(١) سورة الذاريات : آية ٥٦
(٢) سورة آل عمران : آية ٨٥
(٣) مقتبس من كتاب معارج القبول للشيخ حافظ الحكمى ٤٧،٤٦/٢ ، الطبعة السلفية .

رسول الله " والقلب المؤمن المسلم هو الذى تتمثل فيه هذه القاعدة بشطريها ، لأن كل مابعدهما من مقومات الايمان ، وأركان الاسلام ، انما هو مقتضى لهما ، فالايمان بملائكة الله وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وكذلك الصلاة والزكاة والصيام والحج . ثم الحدود والتعازير والحل والحرمة والمعاملات والتشريعات والتوجيهات الاسلامية .. انما تقوم كلها على قاعدة العبودية لله وحده ، كما أن المرجع فيها كلها هو مابلغه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه " .(١)

فمن هذا تعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم فى العهد المكى والعهد المدنى كذلك لم يثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه بدأ دعوته وتربيته بغير هذا الأصل العظيم ، فلم يخاطب أحدا فى قضية "اثبات وجود الله تعالى" لأنها كانت قضية مسلمة لديهم ، فلم يكن من أمته صلى الله عليه وسلم أحد يجحد وجود الخالق وينكره .

فلم يثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه دعا لاثبات وجود الله تعالى ، كما أنه لم يثبت كذلك عنه صلى الله عليه وسلم أنه سئل أو أجاب على سؤال له صلة بقضية اثبات وجود الله تعالى ولو مرة واحدة . فما ثبت أن أحدا سأله عن هل الله موجود أم غير موجود ؟ لافى العهد المكى ولافى العهد المدنى ، لامن الصحابة رضوان الله عليهم ولامن غيرهم . فلم يثبت تاريخيا ولاعلميا أن اثبات وجود الله تعالى كان مدار

---

(١) معالم فى الطريق لسيد قطب ص ١١٥ ، الطبعة الثالثة ، دار الشروق .

حديث بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين غيره من الناس .(١)

وانما الذى ثبت فى القرآن الكريم عكس ذلك تماما ، فقد أخبرنا الله تعالى فى كتابه أن العرب كانوا مقرين بوجود الله تعالى ، بل وبربوبيته ، الا أنهم لم يقدروه حق قدره .

"فكانوا يؤمنون بالله كصانع أتم عمله واعتزل وتنازل عن مملكته لأناس خلع عليهم خلعة الربوبية ، فأخذوا بأيديهم أزمة الأمر وتولوا ادارة المملكة وتدبير شئونها وتوزيع أرزاقها الى غير ذلك من مصالح الحكومة المنظمة ، فكان ايمانهم بالله لايزيد على معرفة تاريخية ، وكان ايمانهم بالله واحالتهم خلق السموات والأرض لايختلف عن جواب تلميذ من تلاميذ فن التاريخ يقال له : من بنى هذا القصر العتيق ؟ فيسمى ملكا من الملوك الأقدمين من غير أن يخافه ويخضع له ، فكان دينهم عاريا عن الخشوع لله ودعائه ، وماكانوا يعرفون عن الله مايحببه اليهم ، فكانت معرفتهم مبهمة غامضة قاصرة مجملة ، لاتبعث فى نفوسهم هيبة ولامحبة " .(٢)

فلم يكن اثبات وجود الله تعالى قضية نقاش ، لأن الله تعالى فطر الخلق على معرفته والايمان بوجوده ، وأخذ عليهم وهم فى ظهر أبيهم آدم عليه السلام الميثاق على أنه ربهم وخالقهم ، فقال عز وجل : {وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا :

---

(١) انظر : الدعوة الاسلامية فى عهدها المكى للدكتور رؤوف شلبى ص ٩٦ ، طبعة دار القلم ، الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٠٠ ، لأبى الحسن الندوى ، طبعة دار الأنصار ، الطبعة العاشرة ١٣٩٣هـ .

بلى شهدنا " .(١)

وأثر هذا الاستشهاد ملاحظ فى الواقع ، فالبشر يتجهون توجها فطريا الى الله سبحانه وتعالى ، ولو لم يدلهم عليه أحد . يتوجهون فطرة الى عبادة الله ، ولكنهم كثيرا مايقعون فى الضلال فى تصورهم لهذا الخالق سبحانه ، فيتخيلونه على غير حقيقته ، ويتخيلون وجود آلهة أخرى معه ثم يتقدمون بالعبادة له على ماتهوى أنفسهم بغير ماتعبدهم به تعالى ، وماذلك الا من تزيين الشيطان لهم .(٢)

قال الله تعالى : {ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله} .(٣)

وقال سبحانه : {قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون سيقولون لله . قل : أفلا تذكرون ؟ قل : من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون لله . قل : أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولايجار عليه ان كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله . قل : فأنَّى تُسحرون} .(٤)

ففى هذه الآيات دليل على اقرار المشركين بوجود الله تعالى ، وأن انحرافهم كان يحدث من ناحية الاعتقاد فى أن مع الله تعالى آلهة أخرى .

كما قال الله تعالى : {ومايؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون} .(٥)

"أى ومايؤمن أكثر الناس الا وهم مشركون . والمراد بـ"أكثر الناس" أهل الشرك من العرب . وهذا ابطال لما

---

(١) سورة الأعراف : آية ١٧٢
(٢) انظر : دراسات قرآنية ص ٢٦ .
(٣) سورة لقمان : آية ٢٥
(٤) سورة المؤمنون : آية ٨٤-٨٩
(٥) سورة يوسف : آية ١٠٦

يزعمونه من الاعتراف بأن الله خالقهم كما فى قوله تعالى : {ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله} (١) ، وبأن ايمانهم بالله تعالى كالعدم لأنهم لايؤمنون بوجود الله الا فى تشريكهم معه غيره فى الالهية .

والاستثناء من عموم الأحوال ، فجملة "وهم مشركون" حال من "أكثرهم" والمقصود من هذا تشنيع حالهم . والأظهر أن يكون هذا من قبيل تأكيد الشىء بما يشبه ضده على وجه التهكم . واسناد هذا الحكم الى "أكثرهم"باعتبار أكثر أحوالهم وأقوالهم لأنهم قد تصدر عنهم أقوال خلية عن ذكر الشريك . وليس المراد أن بعضا منهم يؤمن بالله غير مشرك معه الها آخر" (٢) .

وأما بالنسبة لقول الله تعالى : {وقالوا : ماهى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا الا الدهر} (٣) .

فليس فى هذه الآية مايدل على أن هؤلاء الدهريين ينكرون وجود الله تعالى ، وانما تدل على أنهم ينكرون اليوم الآخر ويكذبون بالبعث ، ويبطلون الجزاء الأخروى (٤) . وينسبون الاماتة الى الدهر ، أى مرور الليالى والأيام ، بدلا من أن ينسبوا ذلك الى الفاعل الحقيقى وهو الله تعالى . كما أنه ليس فى الآية مايمنع من أن يكونوا مؤمنين بوجود الله تعالى .

"فالمشركون أصناف منهم هؤلاء ، ومنهم من كان يثبت الصانع وينكر البعث ، ومنهم من كان يشك فى البعث ولايقطع

---

(١) سورة لقمان : آية ٢٥

(٢) تفسير التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور ٦٤،٦٣/١٣ ، الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م تونس . وانظر تفسير القاسمى محاسن التأويل ٣٦٠٤/٩ ، طبعة الحلبى ، التفسير المنير ، د. وهبة الزحيلى ٨١،٧٨/١٣ ، دار الفكر المعاصر ، الطبعة الأولى .

(٣) سورة الجاثية : آية ٢٤

(٤) انظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٧٠/١٦ ، دار احياء التراث العربى ، محاسن التأويل ٥٣٢٥/١٤ ، التحرير والتنوير ٣٦١/٢٥ .

بانكاره " . (١)

وأما بالنسبة للشيوعيين "فليسوا - برغم الحادهم - استثناء من القاعدة ، وانما الالحاد مفروض عليهم فرضا بالحديد والنار ، كالنظام الشيوعى ذاته (٢) ، ولو خلى بينهم وبين أنفسهم لكان ضلالهم فى أمر العقيدة كضلال بقية الضالين من البشرية ، يعرفون الله ولكن على غير حقيقته ، ويعبدونه ولكن على هوى أنفسهم " (٣) .

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى :

"ولن نعجب اذا رأينا القرآن الكريم لايكاد يقف أمام قضية الاعتقاد بـ"وجود الله تعالى" بينما الحديث كله عن توحيد الله سبحانه ، والتعريف بصفاته ، وذلك أن قضية وجود الله تعالى .. لم تكن ولن تكون قضية جديدة من قضايا العقيدة . فالفطرة - حتى فى انحرافها وجاهليتها لاتكاد تلم بهذا الخاطر العارض الشاذ الذى انتهى اليه بعض الشاردين من الكنيسة فى أوروبا فى القرون الثلاثة الأخيرة وهم قلة ، وضجة الالحاد المطلق أعلى بكثير من حقيقتها ، وقيمتها أقل بكثير من مظهرها " (٤) . انتهى

ومن الأدلة السابقة تعلم أن توحيد العبادة هو أول واجب على المكلف لأنه أساس الدين وأصل الاسلام .

قال القسطلانى فى ارشاد السارى عن الايمان :

"انه أول مايذكر من المقاصد الدينية لأنه ملاك الأمر كله ، ولأن الباقى منها مبنى عليه مشروط به ، وهو أول واجب

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٦/١٧٢ .
(٢) والذى فرضها عليهم يعلم أن هناك الها لكن هواه وحبه للسيطرة جعله يفرض هذا النظام الماكر .
(٣) دراسات قرآنية ص ٢٧ بتصرف قليل .
(٤) مقومات التصور الاسلامى ص ١٠٩ .

على المكلف" (١) .

خلافا لما قاله أهل الكلام من المعتزلة والأشعرية وغيرهم من أن أول واجب على المكلف النظر فى الأدلة العقلية على وجود الله تعالى أو القصد الى النظر أو الشك ، فهذا القول تبطله جميع الأدلة من الكتاب والسنة . وذلك لأن أصل العلم الالهى على الاطلاق ومبدأه ، الايمان بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم ، والاهتداء بما جاء فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

"ولاسبيل الى ذلك الا باتباع الوحى الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فيجب أن يتبع ، وأن يكون هو الأصل المعول عليه فى معرفة عبادة الله تعالى ، والايمان به ، وبرسله ، وملائكته ، وكتبه ، واليوم الآخر ، والايمان بأسمائه وصفاته وعبادته بها ، خلافا لطريقة المتكلمين ، الذين جعلوا عمدتهم عقولهم فى اثبات وجود الله تعالى ، بناء على حدوث الكون ، ثم اثبات صفاته نفيا واثباتا بالقياس العقلى ، ثم اثبات النبوات ثم بعد ذلك يتكلمون فى السمعيات .

وهذه طريقة المعتزلة ، والكرامية ، والكلابية ، والأشعرية ، غير أن الأشعرية سلكوا هذه الطريقة فى الأصول الاعتقادية العلمية دون العملية .

وأما المعتزلة فلم يفرقوا بين العقيدة والعمل فى القياس العقلى . حتى انهم ينظرون الى القدر المشترك فى الأفعال بين الرب والعباد ، فما كان حسنا من العباد فى

---

(١) ارشاد السارى ٨٥/١ بتصرف يسير ، طبعة مؤسسة الحلبى .

نظرهم ، فهو عندهم حسن من الله تعالى ، وماكان قبيحا منهم فهو من الله تعالى قبيح ، ولهذا سماهم أهل السنة مشبهة الأفعال ، نفاة الصفات" (١) .

ولذا فان الامام البخارى رحمه الله تعالى ابتدأ صحيحه ببدء الوحى ونزوله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، والذى يحمل به الهدى والنور ، ثم ثناه بكتاب الايمان الذى هو الاقرار بالوحى والانقياد له ، ثم ثلثه بكتاب العلم الذى هو معرفة ماجاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم وفقهه . وهذا هو الترتيب الحقيقى .

والمطلع على أقوال أهل الكلام يعجب أشد العجب مما جعلوه أصلا للدين ، وبنوا عليه أن من لم يعرفه فليس بمسلم (٢) .

قال القرطبى : "ولو لم يكن فى الكلام الا مسألتان هما من مبادئه لكان حقيقا بالذم :

احداهما : قول بعضهم ان أول واجب الشك ، اذ هو اللازم عن وجوب النظر أو القصد الى النظر .

ثانيتهما : قول جماعة منهم ان من لم يعرف الله بالطرق التى رتبوها والأبحاث التى حرروها لم يصح ايمانه ، حتى لقد أورد على بعضهم أن هذا يلزم منه تكفير أبيك وأسلافك وجيرانك ، فقال لاتشنع على بكثرة أهل النار ، قال وقد رد بعض من لم يقل بهما على من قال بهما بطريق من الرد النظرى وهو خطأ منه .

فان القائل بالمسألتين كافر شرعا ، لجعله الشك فى الله واجبا ، ومعظم المسلمين كفارا حتى يدخل فى عموم كلامه

---

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخارى ص ٤٣ ، عبد الله محمد الغنيمان ، مكتبة الدار بالمدينة المنورة ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ .
(٢) انظر : شرح كتاب التوحيد من صحيح البخارى ص ٤٠ .

السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، وهذا معلوم الفساد من الدين بالضرورة ، والا فلايوجد فى الشرعيات ضرورى" (١) .

فالصواب ماجاء فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فهما الحجة الدامغة على جميع المناهج الأرضية التى مرجعها عقول البشر الضعاف المهازيل .

والناظر فى الكتاب والسنة يرى أن أول واجب على المكلف معرفته والاقرار به هو "شهادة أن لااله الا الله ، وأن محمدا رسول الله" .

"فأما القرآن العزيز فليس فيه أن النظر أول الواجبات ولافيه ايجاب النظر على كل أحد ، وانما فيه الأمر بالنظر لبعض الناس ، وهذا موافق لقول من يقول : انه واجب على من لم يحصل له الايمان الا به ، بل هو واجب على كل من لايؤدى واجبا الا به . وهذا أصح الأقوال . فقوله تعالى : {أولم يتفكروا فى أنفسهم ماخلق الله السموات والأرض ومابينهما الا بالحق وأجل مسمى وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون} (٢) وهذا بعد قوله : {ولكن أكثر الناس لايعلمون . يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون} (٣) .

ثم قال تعالى : {أولم يتفكروا فى أنفسهم} (٤) فالضمير عائد الى {الذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون} . وقوله تعالى : {أولم يتفكروا مابصاحبهم من جنة ان هو الا نذر مبين . أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وماخلق الله من شىء وأن عسى أن يكون

---

(١) فتح البارى ١٣/٣٥٠ .
(٢) سورة الروم : آية ٨
(٣) سورة الروم : آية ٦،٧
(٤) سورة الروم : آية ٨

قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون} (١) .

فهذا مذكور بعد قوله تعالى : {والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لايعلمون . وأملى لهم ان كيدى متين} (٢) .

ثم قال سبحانه : {أولم يتفكروا مابصاحبهم} ، فالضمير عائد الى المكذبين فانه قال تعالى : {أولم يتفكروا مابصاحبهم من جنة} ثم قال تعالى : {أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وماخلق الله من شىء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون} . فقول هؤلاء المتكلمين كأبى المعالى وغيره : "أول مايجب على العاقل البالغ ، باستكمال سن البلوغ أو الحلم شرعا القصد الى النظر الصحيح المفضى الى العلم بحدوث العالم" .

هو فى الأصل من كلام المعتزلة ، وهو كلام مخالف لما أجمع عليه أئمة الدين ، ولما تواتر عن سيد المرسلين ، بل لما علم بالاضطرار من دينه" (٣) .

وأما بالنسبة للنبى صلى الله عليه وسلم فلم يثبت عنه أنه :

"دعا أحدا من الخلق الى النظر ابتداء ، ولاالى مجرد اثبات الصانع بل أول مادعاهم اليه الشهادتان ، وبذلك أمر أصحابه . كما قال فى الحديث المتفق على صحته لمعاذ بن جبل رضى الله عنه ، لما بعثه الى اليمن : "انك تأتى قوما من أهل الكتاب ، فادعهم الى شهادة أن لااله الا الله ، وأنى رسول الله ، فان هم أطاعوا لذلك ، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، فان هم أطاعوا لذلك

---

(١) سورة الأعراف : آية ١٨٤، ١٨٥
(٢) سورة الأعراف : آية ١٨٢، ١٨٣
(٣) درء تعارض العقل والنقل ٨/٨-١٠ لشيخ الاسلام ابن تيمية الطبعة الأولى ، طبعة جامعة الامام محمد بن سعود .

فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم ، فان هم أطاعوا لذلك فاياك وكرائم أموالهم " (١) .

وكذلك سائر الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم موافقة لهذا ، كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة وابن عمر : "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لااله الا الله وأني رسول الله ، فاذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله " .

وفي حديث ابن عمر : "حتى يشهدوا أن لااله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة " (٢) .

وهذا مما اتفق عليه أئمة الدين ، وعلماء المسلمين ، فانهم مجمعون على ماعلم بالاضطرار من دين الرسول ، أن كل كافر فانه يدعى الى الشهادتين ، سواء كان معطلا ، أو مشركا أو كتابيا ، وبذلك يصير الكافر مسلما ، ولايصير مسلما بدون ذلك .

كما قال أبو بكر بن المنذر : "أجمع كل من أحفظ عنه من أهل العلم على أن الكافر اذا قال : أشهد أن لااله الا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وأن كل ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم حق ، وأبرأ الى الله من كل دين يخالف دين الاسلام وهو بالغ صحيح يعقل ، أنه مسلم ، فان رجع

---

(١) رواه البخاري في ٩٨ ـ كتاب التوحيد ، ١ ـ باب ماجاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أمته الى توحيد الله ٢٠٧/٨ رقم الحديث ٧٣٧٢ .
ورواه مسلم في ١ ـ كتاب الايمان ، ٧ ـ باب الدعاء الى الشهادتين وشرائع الاسلام ٥١/١ رقم الحديث ١٩ .

(٢) رواه البخاري في ٢ ـ كتاب الايمان ، ١٧ ـ باب فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ١٤/١ رقم الحديث ٢٥ .
ورواه مسلم في ١ ـ كتاب الايمان ، ٨ ـ باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لااله الا الله محمد رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويؤمنوا بجميع ماجاء به النبي صلى الله عليه وسلم ٥١/١ رقم الحديث ٢٠ .

بعد ذلك فأظهر الكفر كان مرتدا ، يجب عليه مايجب على المرتد " .(١)

ومن هنا تدرك أن التركيز على قضية الاعتقاد والبدء بها قبل غيرها فى القرآن الكريم وفى منهج النبى صلى الله عليه وسلم فى دعوته وتربيته لم يكن سببه أن العرب فى ذلك الوقت لم يكونوا يؤمنون بالله الواحد ، وانما لأن الاعتقاد الصحيح هو السبيل الوحيد لاصلاح البشرية كما علم الله سبحانه وتعالى {ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير}(٢) . ومن ثم فان الحديث عن قضية الاعتقاد لم ينقطع حتى فى العهد المدنى وكان قد تربى على الاعتقاد الصحيح الصافى جيل كامل على يدى المربى الأول العظيم صلى الله عليه وسلم ، بعضه تربى قبل الهجرة خلال ثلاثة عشر عاما فى مكة ، وبعضه تربى بعد الهجرة فى المدينة وقدموا أنفسهم فداء لهذا الاعتقاد الكريم ، وآثروا الموت فى سبيله ، ومع هذا كله فقد كانوا يخاطبون فى أمر الاعتقاد فى القرآن الكريم مثل قوله تعال : {يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ، والكتاب الذى نزل على رسوله}(٣) . وقوله تعالى : {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته}(٤) .

وفى السنة كما ذكرته آنفا .

وفى هذا دليل واضح على أن هذا الاهتمام بأمر الاعتقاد فى القرآن والسنة "كان سببه الأهمية الخاصة لهذا الموضوع ذاته ، وأن الحديث عنه ليس درسا يعطى ثم يمضى عنه الى

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٧٠٦/٨ .
(٢) سورة الملك : آية ١٤
(٣) سورة النساء : آية ١٣٦
(٤) سورة الحديد : آية ٢٨

غيره ، وانما هو درس يعطى على الدوام والاستمرار ثم يمضى معه الى غيره " (١) .

ولذا ظل الحديث عن قضية الاعتقاد مستمرا بلا انقطاع حتى آخر آية نزلت من القرآن الكريم ، وهى قوله تعالى :

{واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون} (٢) .

وحتى آخر خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته كما روتها عائشة رضى الله عنها قالت : قال النبى صلى الله عليه وسلم فى مرضه الذى لم يقم منه : "لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . قالت عائشة : لولا ذلك لأبرز قبره خشى أن يتخذ مسجدا " (٣) .

وقال صلى الله عليه وسلم : "لاتتخذوا قبرى وثنا يعبد " (٤) .

كل ذلك حرصا منه صلى الله عليه وسلم على المحافظة على الاعتقاد الصحيح عند الصحابة ، وللفت أنظارهم الى أهمية العقيدة الصافية الخالصة وخطورة الشرك بالله تعالى.

وأختم هذا المبحث بكلام قيم للأستاذ سيد قطب قال رحمه الله تعالى :

"ومن هنا ندرك لماذا نالت قضية الألوهية والعبودية كل هذه العناية فى المنهج القرآنى الكريم ، ولماذا تقدمت فى

---

(١) دراسات قرآنية ص ٢١-٢٢ بتصرف يسير .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٨١

(٣) رواه البخارى فى ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٦١ ـ باب مايكره من اتخاذ المساجد على القبور ١١٢/٢ رقم الحديث ١٣٣٠ .
ورواه مسلم فى ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، ٣ ـ باب النهى عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها ، والنهى عن اتخاذ القبور مساجد ٣٧٦/١ رقم الحديث ٥٢٩ .

(٤) رواه مالك فى الموطأ ص ٦٥ .

المنهج النبوى على كل اصلاح وكل تنظيم . ولماذا كانت هذه الحقيقة هى قاعدة التصور الاسلامى . ولماذا كانت هى مناط الكفر ، والاسلام فى هذا الدين ، انه تقدير الله الذى لايخطىء وميزان الله الذى لايميل . ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : "بدأ هذا الدين غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء" (١) .

ولقد بدأ هذا الدين بالتوحيد الخالص فى وجه جاهلية الشرك الشاملة . ولقد عاد هذا الدين غريبا كما بدأ ، وعاد يواجه جاهلية الشرك الشاملة – فى صورها الجديدة – بالتوحيد الخالص من جديد .. فمن هم ياترى أولئك الغرباء السعداء بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لهم بالحسنى ؟ والذين يحملون راية التوحيد الخالص فى وجه جاهلية الشرك الشاملة من جديد ؟ ليبدأوا الجولة الثانية كما بدأ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الجولة الأولى ؟ ليخرجوا من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله الواحد ؟ ان الراية تنتظر العصبة المؤمنة . وهذا القرآن حاضر ، وريح الجنة يفوح من بعيد لا بل من قريب" (٢) .

والى المبحث الثانى وهو "تأسيس الاعتقاد فى نفوس الصحابة رضوان الله عليهم" مستمدا العون من الله تعالى .

---

(١) رواه مسلم فى ١ ، كتاب الايمان ، ٦٥ باب بيان أن الاسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا وانه يأرز بين المسجدين ١/١٣٠ رقم الحديث ١٤٥ .

(٢) مقومات التصور الاسلامى ص ١٨٥،١٨٦ .

المبحث الثانى

تأسيس الاعتقاد

المبحث الثانى

تأسيس الاعتقاد

أسس رسول الله صلى الله عليه وسلم الايمان بالله وبرسالته واليوم الآخر فى نفوس أصحابه رضوان الله عليهم ، وكان صريحا فى الدعوة الى ذلك لايكنى ولايلوح ولايلين ولايحابى ولايداهن فى شىء مما أمره الله بابلاغه حتى حسم مادة الشرك من نفوس أصحابه بالتربية الحكيمة والمتابعة المتواصلة والاختيار الموفق . فأسس تلك الدار الكريمة "دار الأرقم بن أبى الأرقم" التى جعلها صلى الله عليه وسلم مقرا لتربية أصحابه على الاعتقاد الصحيح وتأسيسهم عليه بعيدا عن تأثير الجاهلية من حولهم .

يقول الشيخ أبو الأعلى المودودى رحمه الله تعالى :

"انظروا قليلا فى ماتحرى النبى صلى الله عليه وسلم من التدرج والترتيب للبلوغ الى هذه الغاية ، فقد قام بدعوة الناس - أولا وقبل كل شىء - الى الايمان وأحكمه فى قلوبهم ، وأتقنه على أوسع القواعد وأرحبها ، ثم نشأ فى الذين آمنوا تعليمه وتربيته طبقا لمقتضيات هذا الايمان تدرجا بالطاعة العملية - أى الاسلام - والطهارة الخلقية - أى التقوى - وحب الله والولاء له - أى الاحسان - ثم شرع بسعى هؤلاء المؤمنين المخلصين المنظم المتواصل فى تحطيم النظام الفاسد للجاهلية القديمة واستبدال نظام صالح به ، قام على القواعد الخلقية والمدنية المقتبسة من القانون الالهى المنزل من الرب تعالى . ثم لما أصبح هؤلاء الذين آمنوا ولبوا دعوته من كل وجهة - بقلوبهم وأذهانهم ونفوسهم

وأخلاقهم وأفكارهم وأعمالهم - مسلمين متقين محسنين بالمعنى الحقيقي ، وانصرفوا بأنفسهم الى ذلك العمل الذى ينبغى لعباد الله المخلصين الأوفياء أن ينصرفوا اليه اذن ، وبعد كل ذلك أخذ النبى صلى الله عليه وسلم يرشدهم الى مايزين حياة المتقين المحسنين من الآداب والعادات المهذبة فى الهيئة والملبس والمأكل والمشرب والمعيشة والقيام والجلوس وما الى ذلك من الشؤون الظاهرة ، وكأننى به - صلى الله عليه وسلم - فتن الذهب ونقاه من الأوساخ والأقذار أولا ، ثم طبع عليه بطابع الدينار ، ودرب المقاتلين أولا ، ثم كساهم زى القتال . وهذا هو التدرج الصحيح المرضى عند الله فى هذا الباب كما يبدو لكل من تأمل القرآن والحديث وتبصر فيهما " (١) .

هكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتخب الأخيار العقلاء ويدعوهم الى الاسلام ويعرض عليهم العقيدة التى جاء بها من ربه عز وجل ، وعاونه على ذلك صديقه الحميم أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، الذى ماتردد عندما عرض عليه الرسول صلى الله عليه وسلم الاسلام (٢) ، وانما استجاب لنداء الله منذ أن سمعه (٣) ، فأخذ يدعو الى الاسلام من وثق به من قومه .

ومكث صلى الله عليه وسلم منذ أن أنزل الله عليه الوحى الى أن بدأ قومه بالدعوة وأعلنها ثلاث سنين يدعو من يثق به سرا ويتصل بمن اتبعه واستجاب له سرا لمواصلة الدعوة وتثبيتها ، واستكمال التربية للقيادة المختارة

---

(١) الأسس الأخلاقية للحركة الاسلامية ص ٧٢ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .
(٢) انظر ص ١٢٩ من هذه الرسالة .
(٣) انظر : سيرة ابن هشام ٢٥٠/١ ، تحقيق مصطفى السقا ، ابراهيم الأبيارى ، عبد الحفيظ شلبى ، دار الكنوز الأدبية .

بعيدا عن جاذبية المجتمع حيث لم يأمره الله عز وجل باعلان الدعوة والصدع بها (١) .

والحكمة فى سرية الدعوة فى أول أمرها - والله أعلم - لتحقيق التدرج بالنسبة للداعية الأول صلى الله عليه وسلم بحيث لو كلف بالصدع بالدعوة من أول يوم لكان فى ذلك من المشقة والعناء الشىء الكثير (٢) .

وكذلك ليتحقق التدرج بالنسبة للمدعوين فلاتصل الدعوة الى أسماع العامة الا وقد كان لها أتباع وأنصار يكونون ردءا وسندا لها بعد حفظ الله وعونه .

ومن ثم استطاع صلى الله عليه وسلم خلال هذه الفترة الزمنية الوجيزة أن يستقطب عددا من الأتباع والأنصار من أقاربه وأصدقائه حيث تمكن من مساراتهم وعرض العقيدة عليهم وتربيتهم حتى أصبحوا عونا له على توسيع دائرة الدعوة وانتشار الاعتقاد الصحيح وانحسار الشرك وكثرة الأتباع والأنصار (٣) .

فقد كان صلى الله عليه وسلم يتخير الأشخاص أولا ثم يتولى تربيتهم بالقرآن الكريم وبسيرته العطرة صلى الله عليه وسلم فيغرس فى نفوسهم العقيدة ويؤسسهم عليها بعيدا عن الضغط الاجتماعى من حولهم .

فعرفهم بربهم وخالقهم سبحانه معرفة أكسبتهم محبته وطاعته وامتثال أمره واجلاله والخضوع له والانقياد لحكمه .

فغذى أرواحهم بالقرآن الكريم فكان يتلو عليهم مايتنزل عليه من ربه ، فرباهم على الايمان والخضوع لله رب

---

(١) انظر : سيرة ابن هشام ١/٢٨٠ .
(٢) الغرباء الأولون ص ١٧ ، للشيخ سلمان بن فهد العوده ، دار ابن الجوزى ، الطبعة الأولى .
(٣) انظر : نفس المرجع ص ١١٨ .

العالمين ، وهذب أخلاقهم فكان يأمرهم بالصدق والأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهاهم عن الفحشاء في القول والعمل ، وعن كل مايدنس النفس الطاهرة من قول الزور وأكل مال اليتيم ، حتى كانوا خير أمة أخرجت للناس {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله } (١) .

يقول الأستاذ سيد قطب :

"ولقد كنت - وأنا أراجع سيرة الجماعة المسلمة الأولى أقف أمام شعور هذه الجماعة بوجود الله سبحانه ، وحضوره في قلوبهم وفي حياتهم ، فلا أكاد أدرك كيف تم هذا ؟ كيف أصبحت حقيقة الألوهية حاضرة في قلوبهم وفي حياتهم على هذا النحو العجيب ؟ كيف امتلأت قلوبهم وحياتهم بهذه الحقيقة هذا الامتلاء ؟ كيف أصبحت هذه الحقيقة تأخذ عليهم الفجاج والمسالك والاتجاهات والآفاق ، بحيث تواجههم حيثما اتجهوا وتكون معهم أينما كانوا وكيفما كانوا ؟

كنت أدرك طبيعة وجود هذه الحقيقة ، وحضورها في قلوبهم وفي حياتهم . ولكني لم أكن أدرك كيف تم هذا ؟ حتى عدت الى القرآن أقرؤه على ضوء موضوعه الأصيل ، تجلية حقيقة الألوهية وتعبيد الناس لها وحدها بعد أن يعرفوها . وهنا فقط أدركت كيف تم هذا كله .

أدركت - ولا أقول أحطت - سر الصناعة ، عرفت أين صنع ذلك الجيل المتفرد في تاريخ البشرية وكيف صنع . انهم

---

(١) سورة آل عمران : آية ١١٠

صنعوا هاهنا ، صنعوا في هذا المنهج (على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فغرس في نفوسهم معرفة أن)(١) الله هو الأول والآخر ، والله هو الظاهر والباطن ، والله هو الخالق والرازق ، والله هو المسيطر والمدبر ، والله هو الرافع والخافض ، والله هو المعز والمذل ، والله هو القابض والباسط ، والله هو المحيي والمميت ، والله هو النافع والضار ، والله هو المنتقم الجبار ، والله هو الغفور الودود ، والله هو العلى الكبير ، والله هو القريب المجيب والله هو الذى يحول بين المرء وقلبه ، والله هو الذى يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ،والله هو العليم بذات الصدور ، وهو معهم أينما كانوا .وعنده مفاتح الغيب لايعلمها الا هو ، وهو الذى ينزل الغيث من بعد ماقنطوا وينشر رحمته . وهو الذى يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، ويخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ولاملجأ من الله الا اليه . ومالهم من دونه من وال ، وكلهم آتيه يوم القيامة فردا وهكذا وهكذا ، جعلت هذه الحقيقة تملأ على الناس حياتهم ، وتواجههم في كل درب ، وتتراءى لهم في كل صوب ، وتأخذ على أنفسهم أقطارها ، وتعايشهم وتساكنهم بالليل والنهار ، وبالغدو والأسحار ، وحين يستغشون ثيابهم ، وحين تهجس سرائرهم ، وحين يستخفون من الناس ، بل حين يستخفون من نفوسهم التى بين جنوبهم"(٢) .

(١) ومما يدل على أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يغرس الاعتقاد الصحيح في نفوس أصحابه رضوان الله عليهم

---

(١) مابين القوسين من كلامى .
(٢) مقومات التصور الاسلامى ص ١٩٠-١٩١ .

ويربيهم عليه ، مادار بينه وبين حصين والد عمران ، فقد دخل حصين والد عمران على النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما رآه قال لأصحابه : "أوسعوا للشيخ" .

فقال حصين : ماهذا الذى بلغنا عنك ؟ انك تشتم آلهتنا فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : "ياحصين كم تعبد من اله ؟"

قال : سبعة ، ستة فى الأرض وواحد فى السماء .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "فاذا أصابك الضر فمن تدعو ؟"

قال حصين : الذى فى السماء .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "فاذا هلك المال من تدعو ؟"

قال حصين : الذى فى السماء .

فقال صلى الله عليه وسلم : "فيستجيب لك وحده وتشرك معه ؟" ياحصين أسلم تسلم" . فأسلم .

فقام اليه ولده عمران رضى الله عنه فقبل رأسه ويديه ورجليه . فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : "بكيت من صنيع عمران ، دخل حصين وهو كافر فلم يقم له عمران ولم يلتفت ناحيته ، فلما أسلم وفى حقه ، فدخلنى من ذلك الرقة ".

فلما أراد حصين الخروج ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "شيعوه الى منزله" فلما خرج من سدة الباب – أى عتبته – رأته قريش ، قالوا : قد صبأ وتفرقوا عنه" (١) .

---

(١) أورده الحافظ ابن حجر فى الاصابة ٣٣٧/١ ، وذكره صاحب السيرة الحلبية ٤٥٥/١ .

ففي قصة اسلام حصين رضى الله عنه ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألزمه بما أقر به من التفرد بالربوبية لله تعالى ، وأن يعمل بمقتضاه ويلتزم لازمه من توحيد العبادة ، وأن يكفر بما يناقض ذلك ، لأن توحيد الربوبية هو أعظم حجة على توحيد العبادة ، وبه احتج الله تعالى فى كتابه فى كثير من المواضع على وجوب افراده تعالى بالعبادة لتلازم التوحيدين ، فانه لايكون الاله مستحقا للعبادة الا اذا كان خالقا رازقا مالكا متصرفا مدبرا لكل الأمور ، حيا بصيرا قيوما عليما حكيما غنيا عما سواه ، مفتقرا اليه كل من عداه ، وهذه صفات الله تعالى التى لاتنبغى الا له ولايشاركه فيها أحد ، ومن ثم فهو الذى يستحق العبادة وحده ولاتجوز لغيره . وأن فى صرفها لغيره يكون الشرك والكفر والضلال . (١)

هكذا أسس رسول الله صلى الله عليه وسلم الاعتقاد الصحيح فى نفوس أصحابه حتى قدروا الله حق قدره ، ثم عبدوه حق عبادته عن طريق قيام الحجة بالحوار الهادىء اللطيف . فقد كان دأبه صلى الله عليه وسلم اقناع الداخل فى الاسلام بالحق الذى بعثه الله به ، وايضاح الحجة والدليل على ذلك بالحوار المقنع .

وفى هذا النص فوائد غير ماتقدم : ففيه حسن تعامل النبى صلى الله عليه وسلم مع المخالف لتهيئة نفسه لسماع كلام الله تعالى والدعوة اليه . وتدريب الأصحاب الذين حضروا

---

(١) انظر : معارج القبول ٣٥٠/٢ ومابعدها .

هذا الحوار على حسن التعامل وطريقة الدعوة الصحيحة وتأسيسها فى النفوس .

وفيه احياء لقضية الولاء والبراء فى نفوس الصحابة رضوان الله عليهم ، ولفت أنظارهم الى أهمية ذلك ، وأنه من أصول الاعتقاد الصحيح وقواعده وذلك ببكائه صلى الله عليه وسلم من صنيع الصحابى الجليل عمران بن حصين الذى حقق الولاء والبراء فى هذه الجلسة المباركة ، وهو تطبيق عملى لما تعلمه من رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل .

فلم يأبه رضى الله عنه بأبيه حينما دخل وهو كافر . فلما أسلم أعطاه حقه كاملا من البر والصلة والولاء ، فقبل رأسه ويديه ورجليه وفرح باسلامه فرحا شديدا .

وفيه أيضا اهتمامه صلى الله عليه وسلم بمن قبل الحق وآمن به فقد أمر صلى الله عليه وسلم أصحابه بتشييع حصين رضى الله عنه ومرافقته إلى منزله .

وفى هذا تربية للمربين بأن يستفيدوا من هذا المنهج التربوى الذى فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تربيته وتعليمه لأصحابه رضوان الله عليهم .

(٢) ومما يؤكد ذلك أيضا ماروته أم سلمة بنت أمية بن المغيرة ، زوج النبى صلى الله عليه وسلم بقولها : "لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا فيها خير جار النجاشى ، أمنا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى لانؤذى ، ولانسمع شيئا نكرهه ... الى أن قالت : ثم أرسل الى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا اليه ، ثم قال بعضهم لبعض : ماتقولون للرجل اذا جئتموه ؟ قالوا : نقول والله ماعلمنا ، وماأمرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم

كائنا في ذلك ماهو كائن ، فلما جاؤوا وقد دعا النجاشي أساقفته ، فنشروا مصاحفهم حوله .

سألهم فقال لهم : ماهذا الذى فارقتم به قومكم ولم تدخلوا به فى دينى ولافى دين أحد من هذه الملل ؟ فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب . فقال له : أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ، ونعبده ونخلع ماكنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولانشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة ، والصوم .

قالت : فعدد عليه أمور الاسلام . فصدقناه ، وآمنا به ، واتبعناه على ماجاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، ولم نشرك به شيئا وحرمنا ماحرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ..." (١) .

ففى هذه المناقشة التى دارت بين النجاشى وبين الصحابى الجليل جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه ، يظهر لنا

---

(١) رواه الامام أحمد فى مسنده ١/٢٠١-٢٠٣ ، ٥/٢٩٠-٢٩٣ ، ورواه الهيثمى فى مجمع الزوائد ٦/٢٧-٣٠ وقال : ورجاله رجال الصحيح الا ابن اسحاق ، وقد صرح بالسماع فهو صحيح .
وذكره ابن هشام فى السيرة النبوية ١/٣٣٤-٣٣٨ .

جليا مدى العناية الكبرى التى كان يبذلها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تربية أصحابه وتأسيسهم على الاعتقاد الصحيح وربط قلوبهم بالله تعالى وحده لاشريك له .

والتى عرفناها من خلال الأثر التربوى الذى ظهر واضحا فى تكوين ذلك الجيل الفريد من الطليعة الأولى فى الدعوة أمثال جعفر بن أبى طالب ، وأصحابه . فان جعفر رضى الله عنه شرح للنجاشى حقيقة هذا الدين الذى رباهم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلمهم اياه فى الدار المباركة دار الأرقم .

فكان "يجلس فيه النبى صلى الله عليه وسلم وحوله صفوة السبق الى الهدى ودين الحق ، يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم بما يعلمه الله من وحيه وتنزيل كتابه ، ويؤدبهم بأدبه النفسى الذى رباه الله عليه ، ونشأه على هديه ، ويفقههم فى الدين ، ويرشدهم الى مراشد الحياة ومحاسنها ، ويلقنهم بسمته ودله ، وحركاته وسكناته ، ونطقه وصمته ، منازع الصبر والمصابرة ، وضبط النفس ، وشجاعة القلوب ، ونقاء الباطن ، وتحمل فوادح البلاء ، والحلم مع المقدرة ، والصفح والمغفرة ، اعدادا لما ينتظرهم من شدائد الحياة ، ومرارة الكفاح ، وعنف النضال فى سبيل نشر دعوتهم الى الحق وتبليغ رسالة نبيهم صلى الله عليه وسلم الى الدنيا بأقطارها ، وأجيالها ، أحمرها وأسودها" (١) .

هكذا كان يربيهم صلى الله عليه وسلم ، على الاعتقاد الصحيح ويؤسسهم عليه حتى اذا صلب ورسخ فى قلوبهم ، أخذ

---

(١) محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم منهج ورسالة بحث وتحقيق الشيخ محمد الصادق عرجون ١٥٦/٢ ، دار القلم دمشق ، الطبعة الأولى ، وانظر الرحيق المختوم ص ١٠٤ ، للشيخ صفى الرحمن المباركفورى ، طبعة الجامعة السلفية – الهند ، الطبعة الثالثة .

يربيهم على اثاره فى نفوسهم وفى الحياة من حولهم ، فصحح صلى الله عليه وسلم أخلاقهم وسلوكهم ومنهج حياتهم وفق المنهج الربانى الذى جاء به من عند ربه ، حتى كانوا رضوان الله عليهم خير أمة أخرجت للناس بما اتصفوا به من ايمان راسخ ، ويقين صادق وأخلاق فاضلة ، وسلوك مستقيم ، ومسارعة لما يحبه الله ويرضاه والثبات عليه مهما كلفهم ذلك من مشقة وعنت .

فعلى الدعاة والمربين أن يبذلوا جهدهم فى تأسيس الاعتقاد الصحيح فى نفوس من ولاهم الله تربيته وتعليمه ، وأن يستفيدوا من هذا النص فى التعرف على المنهج التربوى الذى كان يربى النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه عليه والذى يتمثل فى :

التربية على الاعتقاد الصحيح ، وترسيخ التوحيد الخالص فى نفوس الناس ، وخلع كل عبادة لغير الله تعالى من حجارة وأوثان وغير ذلك من أنواع المعبودات .

وتزكية النفوس بغرس الفضائل والأخلاق الحسنة من صدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء وغيرها مما يحبه الله ويرضاه .

والسعى لاقتلاع الفواحش ماظهر منها ومابطن من قول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الحرام بكل أنواعه وأشكاله ، وقذف المحصنات وغير ذلك مما يكرهه الله تعالى ويأباه .

(٣) ومما يؤكد ماسبق مارواه البخارى رحمه الله تعالى ، عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

"تعالوا ، بايعونى على أن لاتشركوا بالله شيئا ، ولاتسرقوا ولاتزنوا ولاتقتلوا أولادكم ، ولاتأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولاتعصونى فى معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فى الدنيا فهو له كفارة ، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله ، فأمره الى الله ، ان شاء عاقبه ، وان شاء عفا عنه . قال : فبايعناه على ذلك" (١) .

وبعد أن تمت البيعة وانتهى الموسم ، أرسل النبى صلى الله عليه وسلم مع هؤلاء المبايعين أول سفير فى الاسلام الى المدينة ليعلم المسلمين فيها شرائع الاسلام ، ويفقههم فى الدين ، وليقوم بنشر الاسلام بين الذين لم يدخلوا فيه ، واختار لهذه السفارة شابا من شباب الاسلام ، ومن السابقين الأولين ذلكم هو مصعب بن عمير العبدى رضى الله عنه .

ونزل مصعب على أسعد بن زرارة ، وأخذا ينشران الاسلام فى أهل المدينة بجد وحماس ، حتى لم يبق دار من دور الأنصار الا وفيها رجال ونساء مسلمون ، الا ماكان من دار بنى أمية ابن زيد وخطمة ووائل ، كان فيهم قيس بن الأسلت الشاعر ، وكانوا يطيعونه فوقف بهم عن الاسلام حتى كان عام الخندق سنة خمس من الهجرة .

وقبل حلول موسم الحج التالى - أى حج السنة الثالثة عشرة - عاد مصعب بن عمير الى مكة يحمل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بشائر الفوز والنصر ، ويقص عليه خبر قبائل أهل المدينة ، ومافيها من مواهب الخير ، ومالها من قوة

---

(١) سبق تخريجه ص ١٤٣ .

ومنعة (١) .

فواضح في هذا الحديث أن الداعية الأول عليه صلوات الله وسلامه ، بدأ مبايعته للأنصار بدعوتهم الى الله تعالى وعدم الاشراك به والالتزام بطاعته ، وترك معصيته ، ورباهم على ذلك حتى تأسس الاعتقاد الصحيح في نفوسهم ، قبل أن يطلب منهم الحماية والنصرة لنفسه .

فقرأ عليهم القرآن وعرض عليهم الاسلام فآمنوا به وأذعنوا لما عرضه عليهم والتزموا بما أخذه عليهم من طاعة الله وترك معاصيه ، ثم أرسل معهم شابا من السابقين الى الاسلام وممن تربى على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم ، ذلكم هو مصعب بن عمير الذى انغرس الايمان في قلبه وتأسست معالمه في نفسه وفكره وتحول من ذلك الشاب المترف البذخ الى ذلك الشاب المؤمن المجاهد الذى باع نفسه لله ولرسوله يبتغي بذلك الجنة ومافيها من نعيم مقيم . فكان رضي الله عنه قدوة صالحة لمن أرسل اليهم ومعهم ، فتابع من بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيعة العقبة بتعليمهم شرائع الاسلام ، وتفقيههم أمور هذا الدين ، فرباهم كما تربى رضي الله عنه ونجح في ذلك بسبب تأسيه بالنبي صلى الله عليه وسلم في التربية والتعليم .

وبذلك انغرس الاعتقاد الصحيح في نفوس المؤمنين ، وارتبطت قلوبهم بالله الواحد لاشريك له ، واشتاقوا الى لقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لينصروه ويعززوه

---

(١) انظر : سيرة ابن هشام ٤٣٥/١، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨ ، ٩٠/٢ ، زاد المعاد ٥١/٢ ، لابن قيم الجوزية ، مؤسسة الرسالة الطبعة الثالثة والعشرون .

ويوقروه حتى يبلغ ما أنزل اليه من ربه ، وبعد أن أنهى مهمته رضى الله عنه جاء يزف البشرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما وفقه الله من عمل جاد مثمر ، وأنه مامن دار من دور الأنصار الا وقد دخلها الاسلام ، وارتفع فيها ذكر الله تعالى .

ومن هنا يتضح لى أهمية التربية والمتابعة ، فقد اهتم المربى العظيم محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، بتربية أصحابه ومتابعتهم حتى ظهر أثر هذه التربية وهذه المتابعة فى تصرف أصحابه رضوان الله عليهم ، ومن بينهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه الذى كان الساعد الأيمن لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الدعوة الى الله تعالى والتربية على ذلك .

ودخل بدعوته أناس كثير فى دين الله تعالى ، بسبب ما اتصف به من أخلاق عالية اقتبسها من مربيه ومعلمه صلى الله عليه وسلم .

وكذلك مصعب بن عمير رضى الله عنه ، فقد كان له أثر واضح فى أهل المدينة ، فقد نشر الاسلام وربى عليه كثيرا من أبناء الأنصار وعلمهم معالم التوحيد ، ومبادىء الاسلام وأصوله وقواعده .

وماذلك الا بما اتسم به هؤلاء الدعاة الأخيار من أخلاق عالية وحلم وشفقة وسعة صدر على الآخرين ، وتحبيب الايمان فى النفوس عن طريق الاقناع والمحاورة واقامة الحجة والبرهان على مايدعون اليه ، وهذا مااقتبسوه من مربيهم ومعلمهم صلى الله عليه وسلم عن طريق القدوة المباركة الصادقة التى تمثل بها صلى الله عليه وسلم ، وعن طريق التوجيه المباشر والتعليم لهم وتربيتهم على ذلك وصبره وحلمه صلى الله عليه

وسلم عليهم ، ومتابعته لما غرسه فى نفوسهم من تعاليم قرآنية وأحاديث نبوية ، وسيرة عطرة من سلوكه صلى الله عليه وسلم .

ومن هذا النص يظهر لى أيضا أثر الصحبة أيا كان نوعها فصحبة الأخيار لها أثر قوى فى النفوس من حيث الاقبال على الخير وتعاليمه ، والبعد عن الشر ومفاسده . وبهذه الصحبة الخيرة تتربى النفوس وتزكو ، وترتفع عن سفاسف الأمور وحقيرها ، وتتعلق بمعالى الأمور وأسماها .

وهذا واضح من صحبة أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير رضى الله عنهما .

وأما صحبة الأشرار فتؤدى الى الفساد فى الخلق والدين وتصد عن الصراط المستقيم ، وتحط من قدر النفوس وتؤدى بها الى سفاسف الأمور وأحقرها . وهكذا .

وهذا واضح من صحبة قيس بن الأسلت الشاعر لدار بنى أمية بن زيد وخطمة ووائل .

ويظهر لى كذلك من النص أهمية اختيار المكان المناسب لنشر الدعوة والخير . وهذا واضح من اختيار النبى صلى الله عليه وسلم المدينة بعد بيعة العقبة الأولى .

(٤) ومما يدل على تربية النبى صلى الله عليه وسلم وتأسيس المعتقد الصحيح فى أسماء الله وصفاته فى نفوس أصحابه رضوان الله عليهم ، مارواه جابر بن عبد الله السلمى بقوله : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه الاستخارة فى الأمور كلها كما يعلم السورة من القرآن يقول : "اذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل : اللهم انى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ،

وأسألك من فضلك ، فانك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب اللهم فان كنت تعلم هذا الأمر - ثم تسميه بعينه - خيرا لى فى عاجل أمرى وآجله - قال : أو فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى - فاقدره لى ويسره لى ، ثم بارك لى فيه . اللهم ان كنت تعلم أنه شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى - أو قال فى عاجل أمرى وآجله - فاصرفنى عنه ، واقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى به "(١) .

ففى هذا الحديث يخبر جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم الاستخارة ، أى كيفية صلاتها ودعائها ، وهذا من تمام شفقته صلى الله عليه وسلم بأصحابه ، وحرصه على حضور الخير لهم، ودفع الشر عنهم كما يعلمهم السورة من القرآن ، وفى هذا بيان لشدة اهتمامه صلى الله عليه وسلم ، بالاستخارة والعناية بها ، وهذا من مزايا الاسلام الظاهرة لكل عاقل ، فان الملجأ الحقيقى للمسلم والحصن الحصين له هو الله تعالى وحده لاشريك له ، فهو العالم بكل شىء من خير أو شر ، والقادر على كل شىء ، من جلب نفع أو دفع ضر . فاللجوء اليه من مقتضيات الايمان به والاعتراف بألوهيته وتفرده فى أسمائه وصفاته .

وفى هذا تربية للصحابة رضوان الله تعالى عليهم لما كان يعمله العرب فى الجاهلية ، فانهم كانوا اذا هم أحدهم

---

(١) رواه البخارى فى ١٩ - كتاب التهجد ، ٢٥ - باب ماجاء فى التطوع مثنى مثنى ٢/٦٤ رقم الحديث ١١٦٢ .

بأمر أو حزبه شيء يذهب أحدهم "يستقسم بالأزلام ، أو يذهب يزجر الطير ليستدل بطيرانه أو نعابه على ماسيحمل له في المستقبل ، أو ذهب الى الكهنة واخوان الشياطين ، وهذا كله رجم بالغيب وشرك بالله ، فعوضه الاسلام عن ذلك بالفزع الى من بيده أزمة الأمور كلها ، ومن يملك الخير والشر ، فيقدمون بين يدى ذلك ركعتين ، لتكونا وسيلة بين يدى الطلب ثم يتوجهون الى ربهم بهذا الدعاء الذى فيه التوسل اليه تعالى بأسمائه وصفاته ، وتوحيد الطلب والنية والقصد" (١) .

وفي هذا تعظيم لله تعالى وتعظيم لقدرته سبحانه ، وأنه سبحانه عرّف عباده بصفاته وعجائب مخلوقاته ، وأنه هو المعبود وحده سبحانه المتصف بصفات الكمال والجمال على مايليق بجلاله سبحانه وتعالى وعظيم سلطانه .

وبمثل هذا يعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يترك باب مايعتقده الأصحاب والأمة من بعدهم في ربهم سبحانه من الايمان بأسمائه وصفاته ، ومايجب له سبحانه ، وماينبغي أن ينزه عنه سبحانه بدون ايضاح وبيان .

قال الشيخ الفاضل محمد الأمين الشنقيطي عليه رحمة الله تعالى :

"واعلموا أن هنا قاعدة أصولية أطبق عليها من يعتد به من أهل العلم ، وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم ، لايجوز في حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة ولاسيما في العقائد ، ولاسيما لو مشينا على فرضهم الباطل أن ظاهر آيات الصفات الكفر . فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يؤول الاستواء

---

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري ٢٠٥/١ .

(بالاستيلاء) ولم يؤول شيئا من هذه التأويلات ، ولو كان المراد بها هذه التأويلات لبادر النبى صلى الله عليه وسلم الى بيانها لأنه لايجوز فى حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة فالحاصل أنه يجب على كل مسلم أن يعتقد هذا الاعتقاد الذى يحل جميع الشبه ، ويجيب عن جميع الأسئلة وهو : أن الانسان اذا سمع وصفا وصف به خالق السموات والأرض نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، امتلأ صدره من التعظيم فيجزم بأن ذلك الوصف بالغ من غايات الكمال والشرف والعلو مايقطع جميع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين ، فيكون القلب منزها معظما له جل وعلا غير متنجس بأقذار التشبيه فتكون أرض قلبه قابلة للايمان والتصديق بصفات الله التى تمدح بها أو أثنى عليه بها نبيه صلى الله عليه وسلم على غرار {ليس كمثله شىء وهو السميع البصير} (١) . والشر كل الشر فى عدم تعظيم الله تعالى وأن يسبق فى ذهن الانسان أن صفة الخالق تشبه صفة المخلوق فيضطر المسكين أن ينفى صفة الخالق بهذه الدعوى الكاذبة . ولابد فى هذا المقام من نقط يتنبه اليها طالب العلم :

أولا : أن يعلم طالب العلم أن جميع الصفات من باب واحد اذ لافرق بينها البتة لأن الموصوف بها واحد وهو جل وعلا لايشبه الخلق فى شىء من صفاتهم البته ، فكما أنكم أثبتم له سمعا وبصرا لائقين بجلاله لايشبهان شيئا من أسماع الحوادث وأبصارهم فكذلك يلزم أن تجروا هذا بعينه فى صفة الاستواء والنزول والمجىء الى غير ذلك من صفات الجلال والكمال التى

---

(١) سورة الشورى : آية ١١

أثنى الله بها على نفسه .

واعلموا أن رب السموات والأرض يستحيل عقلا أن يصف نفسه بما يلزمه محذور أو يلزمه محال أو يؤدى الى نقص . كل ذلك مستحيل عقلا . فان الله لايصف نفسه الا بوصف بالغ من الشرف والعلو والكمال مايقطع جميع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين على حد قوله : {ليس كمثله شىء وهو السميع البصير} .

الثاني : أن يعلموا أن الصفات والذات من باب واحد فكما أننا نثبت ذات الله جل وعلا اثبات وجود وايمان لااثبات كيفية مكيفة فكذلك نثبت لهذه الذات الكريمة المقدسة صفات اثبات وايمان ووجود لااثبات كيفية وتحديد .

واعلموا أن آيات الصفات كثير من الناس يطلق عليها اسم المتشابه ، وهذا من جهة غلط ومن جهة قد يسوغ كما يثبته الامام مالك بن أنس . أما المعانى فهى معروفة عند العرب كما قال الامام مالك بن أنس رحمه الله : الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول ، والسؤال عنه بدعة . كذلك يقال فى النزول : النزول غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والسؤال عنه بدعة . وأفرده فى جميع الصفات لأن هذه الصفات معروفة عند العرب الا أن ماوصف به خالق السموات والأرض منها أكمل وأجل وأعظم من أن يشبه شيئا من صفات المخلوقين كما أن ذات الخالق جل وعلا حق ، والمخلوقون لهم ذوات ، وذات الخالق جل وعلا أكمل وأنزه وأجل من أن تشبه شيئا من ذوات المخلوقين . فعلى كل حال ، الشر كل الشر فى تشبيه الخالق بالمخلوق ، وتنجيس القلب بقذر التشبيه ، فالانسان المسلم اذا سمع صفة وصف بها الله أول مايجب عليه أن يعتقد أن تلك

الصفة بالغة من الجلال والكمال مايقطع أوهام علائق المشابهة بينها وبين المخلوقين فيكون أرض قلبه طيبة طاهرة قابلة للايمان بالصفات على أساس التنزيه على نحو : {ليس كمثله شىء وهو السميع العليم}" (١) .

(٥) ومما يؤكد ماسبق مارواه البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم بارزا يوما للناس ، فأتاه رجل فقال : ما الايمان ؟ قال : "الايمان أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وبلقائه ، ورسله ، وتؤمن بالبعث" . قال : ما الاسلام ؟

قال : "الاسلام أن تعبد الله ولاتشرك به ، وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان ، قال : ماالاحسان ؟

قال : "أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك" . قال : متى الساعة ؟

قال : "ماالمسؤول عنها بأعلم من السائل ، وسأخبرك عن أشراطها . اذا ولدت الأمة ربها ، واذا تطاول رعاة الابل البهم فى البنيان . فى خمس لايعلمهن الا الله ، ثم تلا النبى صلى الله عليه وسلم : {ان الله عنده علم الساعة} الآية . ثم أدبر . فقال ردوه . فلم يروا شيئا . فقال : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم" (٢) .

ففى هذا الحديث تربية للصحابة رضوان الله تعالى عليهم على الاعتقاد الصحيح وتعليم لهم أمور هذا الدين الحنيف .

---

(١) منهج دراسات لآيات الأسماء والصفات ص ٢٠-٢٢ ، طبعة الجامعة الاسلامية ، الطبعة الثالثة .
(٢) سبق تخريجه ص ٦١ .

فان سبب مجىء جبريل عليه السلام الى النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة حوله جلوس - ثم سؤال جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاسلام والايمان والاحسان وعن الساعة وهو الواسطة بين الله تعالى وبين رسله ، فهو الذى ينزل بالآيات والأوامر بأمر ربه عليهم - هو تعليم الصحابة

وتربيتهم على الاعتقاد الصحيح بربط قلوبهم بالله تعالى وغرس ذلك فى نفوسهم وتأسيسهم عليه حتى تتطهر قلوبهم فلايبقى فيها لغيره سبحانه نصيب ، فتخلص نفوسهم من حظ نفوسهم ببركة متابعة النبى صلى الله عليه وسلم المتواصلة والعميقة فى تربيتهم وتعليمهم ، والصبر عليهم حتى أصبحوا جيلا فريدا بحق ، ولذلك لفت الرسول صلى الله عليه وسلم أنظار الصحابة بقوله : "هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم".

فكان تعليما عميقا واضحا بحق ، ذا سلطان على أرواحهم وعقولهم ، وجوارحهم ، وذا تأثير عميق فى أخلاقهم وسلوكهم ، وذا سيطرة على الحياة من حولهم ومايتصل بها .

فحققوا الايمان الذى علمهم اياه رسولهم ومعلمهم صلى الله عليه وسلم وأسسهم عليه "فآمنوا بالله الذى له الأسماء الحسنى والمثل الأعلى ، آمنوا برب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، الخالق البارىء المصور ، العزيز الحكيم الغفور الودود ، الرءوف الرحيم ، له الخلق والأمر ، بيده ملكوت كل شىء يجير ولايجار عليه ، الى آخر ماجاء فى القرآن من وصفه ، يثيب بالجنة ويعذب بالنار ، ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، يعلم الخبء فى السموات والأرض ، ويعلم

خائنة الأعين وماتخفى الصدور ، الى آخر ماجاء فى القرآن من قدرته وتصرفه وعلمه ، فانقلبت نفسيتهم بهذا الايمان الواسع العميق الواضح انقلابا عجيبا ، فاذا آمن أحد بالله وشهد أن لااله الا الله انقلبت حياته ظهرا لبطن ، تغلغل الايمان فى أحشائه وتسرب الى جميع عروقه ومشاعره ، وجرى منه مجرى الروح والدم ، واقتلع جراثيم الجاهلية وجذورها ، وغمر العقل والقلب بفيضانه وجعل منه رجلا غير الرجل وظهر منه من روائع الايمان واليقين والصبر والشجاعة ومن خوارق الأفعال والأخلاق ماحير العقل والفلسفة وتاريخ الأخلاق ، ولايزال موضع حيرة ودهشة منه الى الأبد ، وعجز العلم عن تعليله بشىء غير الايمان الكامل العميق" (١) .

(٦) ومما يؤكد اهتمام النبى صلى الله عليه وسلم بتأسيس الاعتقاد فى نفوس أصحابه ماجاء عن معاوية بن الحكم السلمى قال : قلت يارسول الله ، أمور كنا نصنعها فى الجاهلية ، كنا نأتى الكهان ، قال صلى الله عليه وسلم : "فلاتأتوا الكهان" . قال : قلت : كنا نتطير ، قال : "ذاك شىء يجده أحدكم فى نفسه فلايصدنكم" ، قلت : ومنا رجال يخطون ، قال : "كان نبى من الأنبياء يخط ، فمن وافق خطه (٢) فذاك" (٣) .

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٠١ .

(٢) "قوله : "من وافق خطه فذاك" أى من وافق خطه ، فهو مباح ولكن لاطريق لنا الى العلم اليقينى بالموافقة ، فلايباح لأن الاباحة تكون بتيقن الموافقة ، ولاسبيل اليها ، ولذا اتفق العلماء على النهى عن هذا الصنيع وعدوه حراما صرح بذلك غير واحد من الأئمة " .
من كلام الشيخ شعيب الأرناؤوط محقق زاد المعاد فى هامش زاد المعاد ٣/٦٥٥ .
وقال : والعيافة : زجر الطير ، والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها . والكهانة : تعاطى خبر الكائنات فى المستقبل . والخط : خط الرمل . نفس المرجع ٣/٦٥٥ .

(٣) رواه مسلم فى ٣٩ ـ كتاب السلام ، ٣٥ ـ باب تحريم الكهانة واتيان الكهان ٤/١٧٤٨ رقم الحديث ٥٣٧ .

ففى هذا الحديث يتبين أن الكهانة والتطير من عمل أهل الجاهلية ، ولذلك نهى النبى صلى الله عليه وسلم عنها وأخبر معاوية أنها لاتضر ولاتنفع ، وأن تأذيه وتشاؤمه منها انما هو فى نفسه وعقيدته لافيهما ، وانما وهمه وخوفه واشراكه هو الذى يصده لما يراه ويسمعه . فبين صلى الله عليه وسلم لأصحابه الأمر وأوضح لهم فسادهما ليعلموا أن الله سبحانه وتعالى بيده كل شىء وأن ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن . وأنه سبحانه "لم يجعل لهم عليها علامة ، ولافيها دلالة ، ولانصبها سببا لما يخافونه ويحذرونه" (١) ، وفى هذا تربية لهم على الاعتقاد الصحيح لتطمئن قلوبهم وتسكن نفوسهم وتتعلق بالله وحده لاشريك له .

وبهذه التربية قطع النبى صلى الله عليه وسلم مادة الشرك وحسم أثره من نفوسهم وفكرهم لكى تكون نفوسهم صافية وقلوبهم خالصة لله وحده ليس فيها لغيره نصيب .

(٧) ومما يدل على ذلك أيضا مارواه الامام أحمد والترمذى وابن جرير من طرق عن عدى بن حاتم رضى الله عنه ، أنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم - وفى عنقه صليب من فضة - وهو يقرأ هذه الآية {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله} (٢) .

قال : فقلت : انهم لم يعبدوهم . فقال : بلى انهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم اياهم .

---

(١) انظر : فتح المجيد ص ٢٦٨ .
(٢) سورة التوبة : آية ٣١

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ياعدى مايفرك أيفرك أن تقول : لااله الا الله ، فهل تعلم من اله سوى الله ؟" قال : قلت : لا .

قال : ثم تكلم ساعة ، ثم قال : "أيفرك أن يقال : الله أكبر ، وهل تعلم شيئا أكبر من الله ؟ " قال : قلت : لا .

قال : "فان اليهود مغضوب عليهم ، وان النصارى ضالون قال : فقلت : انى حنيف مسلم . قال : فرأيت وجهه ينبسط فرحا . قال : ثم أمرنى فأنزلت عند رجل من الأنصار ، وجعلت أغشاه ، آتيه طرفى النهار" (١) .

لقد وضح رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث لعدى بن حاتم مفهوم العبادة ، وأن أخذ التحليل والتحريم من غير الله تعالى . أى التحاكم الى غير الله تعالى والتشريع من دونه مالم يأذن به سبحانه شرك مخرج من الملة وليست العبادة مقصورة على الصلاة والصيام فقط . وانما هى أعم من ذلك كله ، فهى تشمل الخضوع والتذلل والاستسلام لله تعالى ، والانقياد لأحكامه على مايرضيه سبحانه وتعالى (٢) .

ثم بين صلى الله عليه وسلم لعدى رضى الله عنه الاعتقاد الصحيح ممثلا فى توحيد الربوبية وتوحيد العبادة وتوحيد الأسماء والصفات .

فقال له : أيفرك أن تقول : لااله الا الله ، فهل تعلم من اله سوى الله ؟ فقال عدى : لا .

---

(١) رواه الترمذى فى كتاب تفسير القرآن ، فى باب : ومن سورة فاتحة الكتاب ١٨٦/٥ وقال : هذا حديث حسن غريب . ورواه أحمد فى المسند ٣٧٨/٤ ، وانظر تفسير ابن كثير ٣٤٨/٢، ٣٤٩ ، وسيرة ابن هشام ٥٧٨/٢-٥٨١ .

(٢) انظر : العبودية لشيخ الاسلام ابن تيمية ص ٢٢-٢٣ ، دار الكتاب العربى ، الطبعة الأولى .

ثم قال له : أيضرك أن يقال : الله أكبر ؟ وهل تعلم شيئا أكبر من الله ؟ فقال عدى : لا .

فواضح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ربط بين أجزاء التوحيد الثلاثة وأن بينهما تلازما فى الحقيقة ، فانغرس الايمان فى قلب عدى رضى الله عنه ، وفى فكره وتأسست معالم الاعتقاد الصحيح عنده ، وأخذ يختلف على رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعلم منه ويتربى على يديه ، وهذا واضح فى قول عدى : "وجعلت أغشاه آتيه طرفى النهار" .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى :

"قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما فى تفسير قول الله تعالى : {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله} (١) انهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا ، وقال السدى : استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، ولهذا قال تعالى : {وماأمروا الا ليعبدوا الها واحدا} أى الذى اذا حرم الشىء فهو الحرام ، وماحلله فهو الحلال ، وماشرعه اتبع ، وماحكم به نفذ {لااله الا هو سبحانه عما يشركون} أى تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد ، لااله الا هو ولارب سواه" (٢) .

وهذا الحديث : "يثبت أن اليهود والنصارى لم يتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا بمعنى الاعتقاد فى ألوهيتهم ، ولاأنهم تقدموا لهم بالشعائر التعبدية ، وانما اتخذوهم أربابا بمعنى قبلوا منهم التشريع من دون الله ، فأخذوا منهم الحلال والحرام اللذين هما حق الله تعالى ... فهذا

---

(١) سورة التوبة : آية ٣١
(٢) تفسير ابن كثير ٣٤٩/٢ .

الحديث دليل قاطع فى أن قبول التشريع من الأحبار والرهبان – ومثلهم كل أحد غير الله ورسوله ، متى كان يشرع من عند نفسه لامن شريعة الله تعالى – هو عبادة لهم وهو اتخاذهم أربابا من دون الله الشأن فيه كالشأن فى اتخاذ المسيح ربا بمعنى الاعتقاد فى ألوهيته وتقديم الشعائر التعبدية له سواء بسواء" (١) .

وفى الحديث من الفوائد غير ماتقدم :

ففيه ملاحظة المربى لحال المدعو ، ونشأته وفكره وتراثه وثقافته وقومه . فعلى المربى ملاحظة ذلك فى تربيته ودعوته ، فانها عناصر تعين على التربية والتعليم ، وتعطى صورة للمربى عن هذا المدعو عن طريقها يستطيع غرس الأمور التى يرغب ايصالها اليه . فالرسول صلى الله عليه وسلم قد لاحظ هذه الأمور فى تربيته لعدى بن حاتم ، وعلم صلى الله عليه وسلم أنه على الدين النصرانى ، وبنى تربيته وتعليمه عليها ، ثم عالج انحرافه وبدأ بأهمها وهو تصحيح الاعتقاد وتعريفه بأخص صفات الله تعالى ومنها ألوهيته سبحانه وأحقيته فى التحليل والتحريم ، وأنه هو الكبير المتعال سبحانه وتعالى . وأخبره بأن اليهود قد غضب الله عليهم لأنهم علموا الحق الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعملوا به ، وأعرضوا عنه وصدوا من أراد اتباعه .

وأن النصارى قد ضلوا عن الحق المبين والصراط المستقيم بسبب جهلهم بالله تعالى وبما يريده منهم ، فأعرضوا عن تعلم ماجاء به النبى صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) مقومات التصور الاسلامى ص ١٦٦ بتصرف .

وتنسكوا لله تعالى على حسب ماأملته عليهم أهواؤهم وشهواتهم .

وبهذا كشف صلى الله عليه وسلم الشبهة التى كانت عالقة فى ذهن عدى رضى الله عنه بموضوع عبادة الأحبار والرهبان عن طريق الحوار والتدرج الموصل الى النتيجة الصحيحة والتى اقتنع بها ، وأسلم رضى الله عنه لوضوح الحق له ووصول القناعة الى نفسه . وهكذا ينبغى أن يكون الدعاة والمربون ، وأن يأخذوا هذا القبس النورانى من نبيهم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

ومن خلال النصوص السابقة يتبين أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يهتم بغرس الاعتقاد الصحيح فى نفوس أصحابه ويغذى أرواحهم بما نزل عليه من قرآن ، ويربى نفوسهم بما يمليه عليهم من أخلاق حسنة ، ومزايا عالية .

"فلم يزل الرسول صلى الله عليه وسلم يربيهم تربية دقيقة عميقة . ولم يزل القرآن يسمو بنفوسهم ويذكى جمرة قلوبهم . ولم تزل مجالس الرسول صلى الله عليه وسلم تزيدهم رسوخا فى الدين وعزوفا عن الشهوات . وتفانيا فى سبيل مرضاة الله وحنينا الى الجنة ، وحرصا على العلم وفقها فى الدين ومحاسبة للنفس ، يطيعون الرسول فى المنشط والمكره ، وينفرون فى سبيل الله خفافا وثقالا . قد خرجوا مع الرسول للقتال سبعا وعشرين مرة فى عشر سنين ، وخرجوا بأمره لقتال العدو أكثر من مائة مرة ، فهان عليهم التخلى عن الدنيا ، وهانت عليهم رزيئة أولادهم ونسائهم فى نفوسهم ، ونزلت الآيات بكثير مما لم يألفوه ولم يتعودوه ، وبكل مايشق على النفس اتيانه فى المال والنفس والولد والعشيرة فنشطوا وخفوا

لامتثال أمرها ، وانحلت العقدة الكبرى عقدة الشرك والكفر ، فانحلت العقد كلها وجاهدهم الرسول جهاده الأول فلم يحتج الى جهاد مستأنف لكل أمر ونهى ، وانتصر الاسلام على الجاهلية فى المعركة الأولى ، فكان النصر حليفه فى كل معركة ، وقد دخلوا فى السلم كافة بقلوبهم وجوارحهم وأرواحهم كافة ، لايشاقون الرسول من بعد ماتبين لهم الهدى ولايجدون فى أنفسهم حرجا مما قضى ، ولايكون لهم الخيرة من بعد ما أمر أو نهى . حدثوا الرسول عما اختانوا أنفسهم ، وعرضوا أجسادهم للعذاب الشديد اذا فرطت منهم زلة استوجبت الحد ، نزل تحريم الخمر والكؤوس المتدفقة على راحاتهم ، فحال أمر الله بينها وبين الشفاه المتلمظة والأكباد المتقدة ، وكسرت دنان الخمر فسالت فى سكك المدينة ، حتى اذا خرج حظ الشيطان من نفوسهم ، بل خرج حظ نفوسهم من نفوسهم وأنصفوا من أنفسهم انصافهم من غيرهم . وأصبحوا فى الدنيا رجال الآخرة وفى اليوم رجال الغد ، لاتجزعهم مصيبة ، ولاتبطرهم نعمة الله ولايشغلهم فقر ، ولايطغيهم غنى ، ولاتلهيهم تجارة ولاتستخفهم قوة ، ولايريدون علوا فى الأرض ولافسادا ، وأصبحوا للناس القسطاس المستقيم . قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين .

وطأ لهم أكناف الأرض ، وأصبحوا عصمة للبشرية ووقاية للعالم وداعية الى دين الله ، واستخلفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عمله ولحق بالرفيق الأعلى قرير العين من أمته ورسالته " (١) .

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٩٨-٩٩ .

المبحث الثالث

حماية الاعتقاد

المبحث الثالث

حماية الاعتقاد

بعد أن عرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ربى أصحابه على الاعتقاد الصحيح وحققه فى نفوسهم وأوضحه لهم أشد وضوح حتى لم يبق فى معرفته أى التباس أو اشتباه ، فعرفهم بربهم تعالى بأسمائه وصفاته ، ومايجب له ومايستحقه ومايحمد ويمجد به ، ويثنى عليه حتى فهموه ، واعتقدوه على ماأراد منهم صلى الله عليه وسلم ، وعملوا به -

فإنه مع ذلك كله كان حريصا أشد الحرص على حراسة هذا الاعتقاد وحمايته من أى شىء يشوبه أو يكدره .

فكان يلاحظ تصرفات أصحابه فى أقوالهم وأفعالهم ، وكان يتابع مايجد من أمورهم .

فكان اذا سمع أو رأى منهم أو من أحدهم قولا أو فعلا يتنافى مع التوحيد أو يضعفه ، فانه يسرع فى نهيهم وزجرهم عن ذلك ، ويبين لهم الصواب فيما يقولونه أو يفعلونه .

وماذلك الا لاهتمامه صلى الله عليه وسلم وحرصه على حماية جناب التوحيد فى نفوس أصحابه رضوان الله عليهم مما يشوبه أو يشوه حقيقته من الأقوال أو الأفعال التى قد تزيله أو تنقصه .

فمن ذلك تحذيره صلى الله عليه وسلم من خلط المنهج الأصيل المتمثل فى الكتاب والسنة بالمناهج الأخرى .

ومنها تحذيره صلى الله عليه وسلم من اتخاذ القبور مساجد ، ومن اتخاذ الصور والتماثيل .

ومنها تحذيره من الغلو فى المدح المفضى الى الشرك .

فقد كان صلى الله عليه وسلم حريصا على حماية منهج التلقى المتمثل فى الكتاب والسنة ، من أن يختلط بغيره من المناهج الأخرى .

فقد تعبدهم الله تعالى بما فيهما ، وألزمهم بالتحاكم اليهما ، والحكم بهما ، وحذر من الخروج عنهما الى المناهج الأرضية المحرفة والقاصرة .

فعن عبد الله بن ثابت رضى الله عنهما ، قال : جاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله انى أمرت بأخ يهودى من بنى قريظة فكتب لى جوامع من التوراة ، ألا أعرضها عليك ؟

قال : فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال عبد الله بن ثابت : قلت له : ألا ترى ماوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فقال عمر : رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا

قال : فسرى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال : "والذى نفسى بيده ، لو أصبح موسى عليه السلام ، ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم ، انكم حظى من الأمم ، وأنا حظكم من النبيين" (١) .

وفى رواية جابر بن عبد الله أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى بيد عمر بن الخطاب ورقة من التوراة ، فقال : "أمتهوكون يا ابن الخطاب ؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لو كان موسى حيا ماوسعه الا اتباعى" (٢) .

---

(١) رواه الامام أحمد فى مسنده ٣٨٧/٣ .
(٢) رواه الامام أحمد فى مسنده ٣٨٧/٣ .

ففي هذا الحديث يظهر حرص النبي صلى الله عليه وسلم على حماية منهج التلقي المتمثل في القرآن الكريم وسنته صلى الله عليه وسلم الصحيحة ، اللذين يستقي منهما ذلك الجيل المبارك ، من أن يختلط بغيره فيضلوا .

وماذلك الا لحماية جناب التوحيد من أن تشوبه شائبة الشرك ، وفي هذا تربية منه صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضوان الله عليهم على المحافظة على هذا النبع الصافي من أن يختلط بغيره من مناهج البشر الأرضية المحضة أو التي أدخلوها على ما أنزل الله تعالى زورا وبهتانا ، فيفسد بذلك وتفسد حياتهم تبعا لذلك . ولذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه من أن يسألوا أهل الكتاب عن شيء من أمور دينهم ، لأن عندهم مايغنيهم عن ذلك ما ان تمسكوا به لن يضلوا أبدا ، كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"لاتسألوا أهل الكتاب عن شيء ، فانهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، وانكم اما أن تصدقوا بباطل ، واما أن تكذبوا بحق ، وانه والله لو كان موسى حيا بين أظهركم ماحل له الا أن يتبعني" (١) .

وقال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما :

"يامعشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم أحدث الأخبار بالله تقرؤونه لم يشب ، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا

---

(١) مسند الامام أحمد ٣٣٨/٣ ، ورجال سنده ثقات ، الا مجالدا فقد ضعف ، انظر : التقريب لابن حجر ٢٢٩/٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

ماكتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب ، فقالوا : هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا . أفلا ينهاكم ماجاءكم من العلم عن مساءلتهم ولاوالله مارأينا منهم رجلا قط يسألكم عن الذى أنزل عليكم" (١) .

"هؤلاء هم أهل الكتاب ، وهذا هو هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التلقى عنهم فى أى أمر يختص بالعقيدة والتصور ، أو بالشريعة والمنهج ، ولاضير – وفق روح الاسلام وتوجيهه – من الانتفاع بجهود البشر كلهم فى غير هذا من العلوم البحتة ، علما وتطبيقا ، مع ربطها بالمنهج الايمانى من ناحية الشعور بها ، وكونها من تسخير الله للانسان ، ومن ناحية توجيهها والانتفاع بها فى خير البشرية ، وتوفير الأمن لها والرخاء ، وشكر الله على نعمة المعرفة ونعمة تسخير القوى والطاقات الكونية ، شكره بالعبادة ، وشكره بتوجيه هذه المعرفة وهذا التسخير لخير البشرية .

فأما التلقى عنهم فى التصور الايمانى ، وفى تفسير الوجود ، وغاية الوجود الانسانى ، وفى منهج الحياة وأنظمتها وشرائعها ، وفى منهج الأخلاق والسلوك أيضا . أما التلقى فى شيء من هذا كله ، فهو الذى تغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأيسر شيء منه ، وهو الذى حذر الله الأمة المسلمة عاقبته وهى الكفر الصراح" (٢) .

هكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص على حماية النبع الصافى الذى يستقى منه ذلك الجيل فى نشأته

---

(١) رواه البخارى فى ٥٢ – كتاب الشهادات ، ٢٩ – باب لايسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها ٢١٨،٢١٧/٣ رقم الحديث ٢٦٨٥ .

(٢) طريق الدعوة فى ظلال القرآن ٥٦،٥٥/٢ ، أحمد فايز ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ .

ونموه من أن يختلط مع نبع آخر ، وماذلك الا حماية لجناب الاعتقاد الصحيح الذى رباهم عليه أولا . ولأن فى هذا المنهج القرآنى والنبوى حياة لهم ، وخلوصا لقلوبهم ولعقولهم ولتصوراتهم من أى مؤثر خارجى ثانيا .

ومن ذلك تحذيره صلى الله عليه وسلم تحذيرا شديدا من اتخاذ القبور مساجد ، لأن ذلك وسيلة من وسائل الوقوع فى الشرك ، لأن الشيطان يزين للناس أن اتخاذ القبور مساجد والعكوف عندها قربة الى الله تعالى ، ودليل على محبة الأنبياء والصالحين ، وأن الدعاء عندها مستجاب ، فيستدرجهم بهذا الى عبادة هؤلاء المقبورين ، والتوجه اليهم بالدعاء والاستغاثة ، وطلب الحوائج منهم ، فيحدث الشرك بالله تعالى الذى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم محذرا منه ومنذرا من الوقوع فيه .

ولذلك فان نبى الله صلى الله عليه وسلم حسم مادة الشرك بنهيه وتحذيره أصحابه من اتخاذ القبور مساجد وفى مقدمتها قبره صلى الله عليه وسلم ، ولعن من فعل ذلك لأنه طريق الى الشرك بالله تعالى وخدش فى الاعتقاد الصحيح كبير .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : "لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح خميصة له على وجهه ، فاذا اغتم بها كشفها ، فقال - وهو كذلك - : "لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يحذر ماصنعوا . ولولا ذلك أبرز قبره ، غير أنه خشى أن يتخذ مسجدا " (١) .

---

(١) سبق تخريجه ص ١٥٧ .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : "لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج" (١) .

لكى ينفر أصحابه عن هذا الفعل المؤدى الى الوقوع فى الشرك .

وعندما ذكرت أم حبيبة وأم سلمة رضى الله عنهما لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة فى الحبشة فيها تصاوير قال صلى الله عليه وسلم : "ان أولئك اذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة" (٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم ، محذرا من اتخاذ المساجد على القبور : "اللهم لاتجعل قبرى وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" (٣) .

وقال صلى الله عليه وسلم : "لاتجلسوا على القبور ، ولاتصلوا اليها" (٤) .

---

(١) رواه النسائى فى كتاب الجنائز ، باب التغليظ فى اتخاذ السرج على القبور ٩٤/٤ . وأبو داود فى كتاب الجنائز ، باب زيارة النساء القبور ٢١٨/٣ ، والترمذى كتاب الصلاة ، باب كراهية أن يتخذ على القبر مسجدا ١٣٦/٢ ، وابن ماجه فى الجنائز ، باب النهى عن زيارة النساء للقبور ٥٠٢/١ ، وأحمد فى المسند ٢٢٩/١، ٢٨٧، ٣٢٤ ، ٤٤٢/٣، ٤٤٣ ، والحاكم ٣٧٤/١ .

(٢) رواه البخارى فى ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٤٨ ـ باب هل تنبش قبور مشركى الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد ؟ ١٢٧/١ رقم الحديث ٤٢٧ .
ورواه مسلم فى ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، ٣ ـ باب النهى عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهى عن اتخاذ القبور مساجد ٣٧٥/١ رقم الحديث ٥٢٨ .

(٣) الموطأ للامام مالك ، كتاب قصر الصلاة فى السفر ، باب جامع الصلاة ١٧٢/١ وهو عنده مرسل ، ولفظ أحمد ٢٤٦/٢ "اللهم لاتجعل قبرى وثنا ، ولعن الله قوما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" ، وأبو نعيم فى الحلية ٣١٧/٧ .

(٤) رواه مسلم ١١ ـ كتاب الجنائز ، ٣٣ ـ باب النهى عن الجلوس على القبر والصلاة عليه ٦٦٨/٢ رقم الحديث ٩٧٢.

وقال صلى الله عليه وسلم : "لاتجعلوا بيوتكم قبورا ، ولاتجعلوا قبرى عيدا ، وصلوا على فان صلاتكم تبلغنى حيث كنتم " (١) .

وفيه بيان بأن القبور ليست أماكن للصلاة ، ولذلك نهى أصحابه أن يجعلوا بيوتهم قبورا ، وفى هذا حث لكثرة النوافل فى البيوت وأن نكثر عليه من الصلاة والتسليم حيثما كنا فانها ستبلغه ، لقوله صلى الله عليه وسلم : "ان لله ملائكة سياحين يبلغونى من أمتى السلام " (٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم : "لاتشدوا الرحال الا الى ثلاثة مساجد : مسجدى هذا ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى" (٣) .

كل ذلك من باب سد الذرائع التى تؤدى الى الشرك حفاظا على جناب التوحيد من أن يخالطه شرك فيفسده .

ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه باقتلاع وسائل الشرك من الأرض ، بهدم الأبنية المشرفة والقباب المرتفعة على القبور وتسويتها ، وطمس الصور والتماثيل .

عن أبى الهياج الأسدى قال : قال لى على بن أبى طالب : "ألا أبعثك على مابعثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أن لاتدع تمثالا الا طمسته ، ولاقبرا مشرفا الا سويته " (٤) .

---

(١) رواه أبو داود ، كتاب المناسك ، باب زيارة القبور ٢١٨/٢ ، باسناد حسن ، وأحمد ٣٥٧/٢ .
(٢) رواه النسائى فى كتاب السهو ، باب السلام على النبى صلى الله عليه وسلم ٤٣/٣ ، وأحمد ٤٥٢/١ .
(٣) رواه مسلم فى ١٥ ـ كتاب الحج ، ٧٤ ـ باب سفر المرأة مع محرم الى حج وغيره ٩٧٥/٢ رقم الحديث ٨٢٧ .
(٤) رواه مسلم فى ١١ ـ كتاب الجنائز ، ٣١ ـ باب الأمر بتسوية القبر ٦٦٦/٢ رقم الحديث ٩٦٩ .

وكان صلى الله عليه وسلم حريصا على نظافة بيته من وسائل الشرك فكان لايترك في بيته شيئا فيه تماثيل أو تصاوير أو تصاليب . ولاغرابة في ذلك فهو القدوة الذي أمرنا بالقدوة به ، في قوله تعالى : {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا} (١) .

عن عائشة رضي الله عنها : "أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يترك في بيته شيئا فيه تصاليب الا نقضه" (٢) .

وعنها رضي الله عنها أيضا أنها قالت : "قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر ، وقد سترت سهوة لي بقرام فيه تماثيل ، فلما رآه هتكه ، وتلون وجهه ، وقال : "ياعائشة أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله . قالت : فقطعناه فجعلنا منه وسادة أو وسادتين" (٣) .

وقال صلى الله عليه وسلم قبل أن يلتحق بالرفيق الأعلى بخمس ليال : "ألا وان من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ، ألا فلاتتخذوا القبور مساجد ، فاني أنهاكم عن ذلك" (٤) .

"والحديث يدل على تحريم اتخاذ قبور الأنبياء والصلحاء مساجد ، قال العلماء : انما نهى النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن اتخاذ قبره وقبر غيره مسجدا خوفا من المبالغة في

---

(١) سورة الأحزاب : آية ٢١

(٢) رواه البخاري في ٧٧ ـ كتاب اللباس ، ٩٠ ـ باب نقض الصور ٨٥/٧ رقم الحديث ٥٩٥٢ .

(٣) رواه البخاري في ٧٧ ـ كتاب اللباس ، ٩١ ـ باب ماوطىء من التصاوير ٨٦/٧ رقم الحديث ٥٩٥٤ .

(٤) رواه مسلم في ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، ٣ ـ باب النهي عن بناء المساجد على القبور ٣٧٧/١ رقم الحديث ٥٣٢ .

تعظيمه والافتتان به ، وربما أدى ذلك الى الكفر كما جرى لكثير من الأمم الخالية " .(١)

وعن أبى واقد الليثى قال : "خرجنا مع النبى صلى الله عليه وسلم الى حنين ، ونحن حدثاء عهد بكفر ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها ، وينوطون بها أسلحتهم ، يقال لها ذات أنواط ،(٢) فمررنا بسدرة فقلنا يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر انها السنن ، قلتم والذى نفسى بيده ، كما قالت بنو اسرائيل لموسى {اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون}(٣) لتركبن سنن من كان قبلكم " .(٤)

وفى هذا الحديث دلالة على أن التبرك بالأشخاص والأشجار والقبور واعتقاد نفعهم فى جلب نفع أو دفع ضر ، أو العكوف عندهم أو الذبح لهم أو التحاكم اليهم شرك مخرج من الملة وناقض من نواقض هذا الدين . فلابد من الحذر والتوقى من الوقوع فيه ، وأنه لايستبعد وقوع الشرك فى هذه الأمة ، بسبب استحسان سبب من أسبابه ، فقد ظن بعض الصحابة القريبى عهد بالكفر ذلك الطلب حسنا فطلبوه من النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى بين لهم أن ذلك كقول بنى اسرائيل .

فمن باب أولى أن يخفى على كثير ممن هم دونهم فى العلم والفضل بأضعاف مضاعفة مع غلبة الجهل وبعد العهد من

(١) نيل الأوطار للشوكانى ١٣٩/٢ ، دار الفكر ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ .
(٢) قال ابن الأثير : "سألوه أن يجعل لهم مثلها ، فنهاهم عن ذلك . وأنواط : جمع نوط وهو مصدر سمى بها المنوط" النهاية فى غريب الحديث والأثر ١٢٨/٥ .
(٣) سورة الأعراف : آية ١٣٨
(٤) رواه الترمذى فى كتاب الفتن ، باب ماجاء لتركبن سنن من كان قبلكم ٤١٣/٤ وقال : هذا حديث حسن صحيح . ورواه أحمد فى مسنده ٢١٨/٥ .

آثار النبوة (١) .

فليتفطن لذلك ، وليحرص على العلم الذى يكون مانعا من الوقوع فى الشرك وأسبابه باذن الله تعالى وتوفيقه .

وعن ثابت بن الضحاك رضى الله عنه قال : "نذر رجل أن ينحر ابلا ببوانة (٢) ، فسأل النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال "هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد ؟ قالوا : لا .

قال : فهل فيها عيد من أعيادهم ؟ قالوا : لا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوف بنذرك ، فانه لاوفاء لنذر فى معصية الله ، ولافيما لايملك ابن آدم" (٣) .

وفى هذا الحديث دليل على حرص النبى صلى الله عليه وسلم على حماية جناب التوحيد فى نفوس أصحابه رضوان الله عليهم ، حيث حذرهم عن أى أمر يؤدى الى الشرك ولو كان ذلك الأمر صغيرا فى نفوسهم وحقيرا فى حسابهم وتقديرهم ، ولذلك استفصل صلى الله عليه وسلم السائل عن الأمور التى فيها مشابهة للمشركين ، وماذلك الا سدا للذريعة وتركا لمشابهة المشركين ومنعا مما هو وسيلة الى ذلك ، فلما تبين صلى الله عليه وسلم خلو ذلك المكان الذى نذر الرجل أن يذبح لله فيه ، من المحاذير المانعة من ذلك ، أمره صلى الله عليه وسلم بأن يوفى بنذره .

---

(١) انظر : فتح المجيد ص ١١٨،١١٩ .

(٢) (بوانة) بضم الباء وفتحها . قال أبو السعادات : هضبة من وراء ينبع . النهاية فى غريب الحديث والأثر ١٦٤/١.

(٣) رواه أبو داود فى كتاب الأيمان والنذور ، باب مايؤمر به من الوفاء بالنذر ٢٣٨/٣ .
وقال الامام محمد بن عبد الوهاب : واسناده على شرطهما فتح المجيد ص ١٣٤ .

وفي هذا تربية للصحابة رضى الله عنهم على الحرص على الاعتقاد الصحيح والحفاظ عليه وحمايته مما يؤثر فيه .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

"فحرم صلى الله عليه وسلم أن تتخذ قبورهم مساجد بقصد الصلوات فيها كما تقصد المساجد ، وان كان القاصد لذلك انما يقصد عبادة الله وحده ، لأن ذلك ذريعة الى أن يقصدوا المسجد لأجل صاحب القبر ودعائه والدعاء به والدعاء عنده ، فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اتخاذ هذا المكان لعبادة الله وحده لئلا يتخذ ذريعة الى الشرك بالله . والفعل اذا كان يفضي الى مفسدة ، وليس فيه مصلحة راجحة ينهى عنه ، كما نهى عن الصلاة فى الأوقات الثلاثة لما فى ذلك من المفسدة الراجحة ، وهو التشبه بالمشركين الذى يفضى الى الشرك . وليس فى قصد الصلاة فى تلك الأوقات مصلحة راجحة لامكان التطوع فى غير ذلك من الأوقات ... فاذا كان نهيه عن الصلاة فى هذه الأوقات لسد ذريعة الشرك لئلا يفضى ذلك الى السجود للشمس ودعائها وسؤالها - كما يفعله أهل دعوة الشمس والقمر والكواكب الذين يدعونها ويسألونها - كان معلوما أن دعوة الشمس والسجود لها هو محرم فى نفسه ، أعظم تحريما من الصلاة التى نهى عنها لئلا يفضى الى دعاء الكواكب" (١) .

هكذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقف وقفة شديدة أمام كل مظهر من المظاهر التى يكون ذريعة الى الشرك ، ولو من طريق بعيد ، أو من باب خفى .

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/١٦٣، ١٦٤ .

وماذلك الا لكى يقطع الطريق على الشيطان ، فلايجد بابا ينفذ منه الى نفوس أصحابه رضوان الله عليهم .

فكان ينهاهم عن مدحه كذلك وتعظيمه ، ويحذرهم عن ذلك تحذيرا شديدا ، ولم يسمح لأحد من الأصحاب أن يتجاوز فى ذلك لابقول ولابفعل ، وماذلك الا حسما منه صلى الله عليه وسلم لمادة الشرك ، وسدا للذرائع المؤدية اليه .

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لاتطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، فانما أنا عبده ، فقولوا عبد الله ورسوله " (١) .

قال ابن الجوزى : "لايلزم من النهى عن الشىء وقوعه لأنا لانعلم أحدا ادعى فى نبينا مادعته النصارى فى عيسى ، وانما سبب النهى فيما يظهر ماوقع من حديث معاذ بن جبل لما استأذن فى السجود له فامتنع ونهاه ، فكأنه خشى أن يبالغ غيره بما هو فوق ذلك فبادر الى النهى تأكيدا للأمر" (٢) .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه ، أن ناسا قالوا : يارسول الله ، ياخيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا . فقال صلى الله عليه وسلم : "ياأيها الناس قولوا بقولكم ، ولايستهوينكم الشيطان ، أنا محمد عبد الله ورسوله ، ماأحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله عز وجل" (٣) .

وعن عبد الله بن الشخير رضى الله عنه قال : "انطلقت فى وفد بنى عامر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) رواه البخارى فى ٦٠ ـ كتاب أحاديث الأنبياء ، ٤٨ ـ باب {واذكر فى الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها} ١٧١/٤ رقم الحديث ٣٤٤٥ .

(٢) فتح البارى ١٤٩/١٢ .

(٣) رواه النسائى فى عمل اليوم والليلة ص ٢٥٠ ، ورواه أحمد فى المسند ١٥٣/٣ .

فقلنا : أنت سيدنا .

فقال صلى الله عليه وسلم : "السيد الله (١) تبارك وتعالى
قلنا : وأفضلنا فضلا ، وأعظمنا طولا . فقال : قولوا بقولكم
أو بعض قولكم ولايستجرينكم الشيطان" (٢) .

ففي هذه الأحاديث ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم
كره أن يواجهوه بالمدح الذي يفضي بهم الى الغلو ، فيقعوا
في محاذرهم منه وهو الوقوع في الشرك بسبب أن يرفعوه صلى
الله عليه وسلم فوق منزلته التي أعطاها له الله تبارك
وتعالى ، فيصفونه بصفات لاتليق الا بالله تعالى . وماذلك الا
لحماية جناب التوحيد عما يشوبه من الأقوال والأفعال التي
يضمحل معها التوحيد أو ينقص .

---

(١) قال الخطابي : "قوله : "السيد الله" يريد السؤدد حقيقته لله عز وجل ، وأن الخلق كلهم عبيد له ، وانما منعهم - فيما نرى - أن يدعوه سيدا مع قوله : "أنا سيد ولد آدم" وقوله لبني الخزرج : "قوموا الى سيدكم" يريد سعد بن معاذ ، من أجل أنهم قوم حديثوا عهد بالاسلام وكانوا يحسبون أن السيادة بالنبوة كهي بأسباب الدنيا ، وكان لهم رؤساء يعظمونهم وينقادون لأمرهم ، ويسمونهم السادات ، فعلمهم النبي صلى الله عليه وسلم الثناء عليه ، وأرشدهم الى الأدب في ذلك ، فقال : قولوا بقولكم ، يريد : قولوا بقول أهل دينكم وملتكم وادعوني نبيا ورسولا كما سماني الله عز وجل في كتابه فقال : {ياأيها النبي} ، {ياأيها الرسول} ولاتسموني سيدا كما تسمون رؤساءكم وعظماءكم ، ولاتجعلوني مثلهم فاني لست كأحدهم اذ كانوا يسودونكم بأسباب الدنيا ، وأنا أسودكم بالنبوة والرسالة فسموني نبيا ورسولا" . زاد المعاد ٦٠٣/٣ .
وقوله : "ولايستجرينكم الشيطان" معناه : لايتخذنكم جريا أي : رسولا ووكيلا .
قال ابن الأثير : "يريد تكلموا بما يحضركم من القول ولاتتكلفوه كأنكم وكلاء الشيطان ورسله تنطقون عن لسانه" . زاد المعاد ٦٠٣/٣ من كلام محقق الزاد .

(٢) أخرجه أبو داود واللفظ له برقم ٤٨٠٦ من حديث مطرف بن عبد الله عن أبيه وسنده صحيح ، ورواه أحمد في مسنده ٢٥/٤ .

وعن حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "لاتقولوا ماشاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا ماشاء الله ثم ماشاء فلان" (١) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم ماشاء الله وشئت ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : "أجعلتنى لله عدلا ؟ بل ماشاء الله وحده" (٢) .

وعن قتيلة : أن يهوديا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : انكم تشركون . تقولون :ماشاء الله وشئت ، وتقولون والكعبة . فأمرهم النبى صلى الله عليه وسلم اذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : ورب الكعبة ، وأن يقولوا : ماشاء الله ثم شئت" (٣) .

وهذا كله صيانة وحماية لجناب التوحيد والاعتقاد الصحيح وسد الطرق المؤدية الى الشرك أو الفسق .

وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : "انه كان فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم منافق يؤذى المؤمنين ، فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق" .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "انه لايستغاث بى وانما يستغاث بالله" (٤) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لايقل أحدكم أطعم ربك ، وضىء ربك ، وليقل

---

(١) رواه أبو داود فى كتاب الأدب ٢٩٥/٤ ، وأحمد ٣٨٤/٥، ٣٩٤، ٣٩٨ ، ورجال اسنادهما ثقات كما فى التقريب لابن حجر ٤٩/١ .
(٢) رواه ابن ماجه ٦٨٤/١ ، وأحمد ٢١٤/١، ٢٢٤، ٢٨٣، ٣٤٧ .
(٣) رواه النسائى فى كتاب الايمان ٦/٧ .
(٤) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ١٥٩/١٠ ، وقال رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة ، وهو حسن الحديث ، وأخرجه أحمد فى المسند ٣١٧/٥ .

سيدى ومولاى ، ولايقل أحدكم : عبدى وأمتى ، وليقل : فتاى وفتاتى وغلامى" (١) .

"وهذه الألفاظ المنهى عنها ، وان كانت تطلق لغة ، فالنبى صلى الله عليه وسلم نهى عنها تحقيقا للتوحيد وسدا لذرائع الشرك لما فيها من التشريك فى اللفظ ، لأن الله تعالى هو رب العباد جميعهم . فاذا أطلق على غيره شاركه فى الاسم ، فينهى عنه لذلك . وان لم يقصد بذلك التشريك فى الربوبية التى هى وصف الله تعالى ، وانما المعنى أن هذا مالك له ، فيطلق عليه هذا اللفظ بهذا الاعتبار . فالنهى عنه حسما لمادة التشريك بين الخالق والمخلوق ، وتحقيقا للتوحيد ، وبعدا عن الشرك حتى فى اللفظ . وهذا من أحسن مقاصد الشريعة ، لما فيه من تعظيم الرب تعالى وبعده عن مشابهة المخلوقين" (٢) .

ومن مجموع هذه الأدلة يتبين لى أن الله تعالى بين على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ـ لأمته كل ماتحتاج اليه فى دينها ومعرفة خالقها سبحانه وتعالى ، ومايجب له من الاعتقاد الصحيح فى قلوبهم ، ومن الأقوال بألسنتهم ، حتى تركهم على المحجة البيضاء ليلها ونهارها سواء ، لايزيغ عنها الا هالك .

فأكمل للأمة الايمان ، فكل ماقاله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى باب الايمان وأمر به أصحابه ورباهم عليه فهو الحق الذى لاينبغى العدول عنه ، وهو الدين الكامل الذى جاء

---

(١) رواه أحمد فى مسنده ٣١٦/٢ .
(٢) فتح المجيد ص ٤٠٦ .

به صلى الله عليه وسلم ، وأن كل مالم يقله صلى الله عليه وسلم في هذا الباب ولم يأمر به أصحابه ، بل نهاهم عنه وحذرهم منه ، فهو باطل ينبغي العدول عنه والحذر منه ، لأنه ليس من الدين الكامل الذى جاء به . ولايجوز لأحد أن يظن برسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لم يبين مايعتقده المكلف في ربه ومعرفته سبحانه بأسمائه وصفاته ومعرفة مايجب له على عباده ، ومالايجب .

"فمن المحال في العقل والدين أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم الذى أخرج الله به الناس من الظلمات الى النور ، وأنزل عليه الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، أن يكون قد ترك باب الايمان بالله والعلم به ملتبسا مشتبها ، ولم يميز بين مايجب لله من الأسماء الحسنى والصفات العليا ، ومايجوز عليه ، ومايمتنع عليه ، فان معرفة هذا أصل الدين ، وأفضل الأعمال ، فكيف يكون القرآن والرسول والصحابة – وهم أفضل الخلق بعد النبيين – لم يحكموا هذا الباب اعتقادا وقولا .

ومحال أن يعلم النبى صلى الله عليه وسلم أمته أدب الأكل والشراب ، وقضاء الحاجة ، ونحو ذلك ، ويترك تعليمهم مايقولونه بألسنتهم ومايعتقدونه في قلوبهم في ربهم ومعبودهم ، مع كون ذلك غاية المعارف ، وأشرف المقاصد ، والوصول اليه غاية المطالب ، مع قوله صلى الله عليه وسلم (١) "مابعث الله من نبى الا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير

(١) رواه مسلم في ٣٣ – كتاب الامارة ، ١٠ – باب وجوب الوفاء ببيعة الخليفة الأول فالأول ١٤٧٣/٣ رقم الحديث ١٨٤٤ .

مايعلمه لهم ، وينهاهم عن شر مايعلمه لهم"" (١) .

وقد قام صلوات الله وسلامه عليه بهذا الواجب خير قيام فأوضح لأصحابه مايعتقدونه فى حق الله تعالى نفيا واثباتا ورباهم على ذلك ، وحما حمى التوحيد فى نفوسهم .

ولم يترك الأمر مشتبها عليهم بل بينه وأوضحه غاية الايضاح .

"فأخبرهم أن لله تعالى حقا لايشركه فيه مخلوق ، كالعبادة والتوكل والخوف والخشية ، والتقوى . كما قال الله تعالى :

{لاتجعل مع الله الها آخر فتقعد مذموما مخذولا} (٢) .

وقال تعالى : {انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين} (٣) .

وقال تعالى : {أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله} (٤) .

وقال تعالى : {قل انى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين} (٥) .

وقال تعالى : {قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون} (٦) .

وقال تعالى : {أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون} (٧) .

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٧٠٦/٥ بتصرف .
(٢) سورة الاسراء : آية ٢٢
(٣) سورة الزمر : آية ٢
(٤) سورة الشورى : آية ٢١
(٥) سورة الزمر : آية ١١
(٦) سورة الزمر : آية ٦٤
(٧) سورة المائدة : آية ٥٠

فالله هو المعبود سبحانه وله حق التشريع وحده لاشريك له .

وقال تعالى فى التوكل : {وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين} (١) .

وقال تعالى : {وعلى الله فليتوكل المؤمنون} (٢) .

وقال تعالى : {ولو أنهم رضوا ماآتاهم الله ورسوله ، وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله انا الى الله راغبون} (٣) .

فقال فى الاتيان : "ماآتاهم الله ورسوله} .

وقال فى التوكل : {وقالوا حسبنا الله} ولم يقل : ورسوله ، لأن الاتيان هو الاعطاء الشرعى ، وذلك يتضمن الاباحة والاحلال الذى بلغه الرسول صلى الله عليه وسلم ، فان الحلال ماأحله ، والحرام ماحرمه ، والدين ماشرعه . قال تعالى : {وماآتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا} (٤) .

وأما الحسب فهو الكافى ، والله وحده كاف عبده ، كما قال تعالى : {الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل} (٥) فهو وحده حسبهم كلهم .

وقال تعالى : {ياأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين} (٦) . أى حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين هو الله فهو كافيكم كلكم .

---

(١) سورة المائدة : آية ٢٣
(٢) سورة التوبة : آية ٥١
(٣) سورة التوبة : آية ٥٩
(٤) سورة الحشر : آية ٧
(٥) سورة آل عمران : آية ١٧٣
(٦) سورة الأنفال : آية ٦٤

وقال في الخوف والخشية والتقوى : {ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون} (١) .

فأثبت الطاعة لله والرسول ، وأثبت الخشية والتقوى لله وحده .

وقال تعالى : {فلاتخشوا الناس واخشون} (٢) .

وقال تعالى : {فلاتخافوهم وخافون ان كنت مؤمنين} (٣) .

ومن هذا الباب اقرار النبي صلى الله عليه وسلم للرجل الذي خطب في حضرته بقوله : "من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعص الله ورسوله فقد غوى" (٤) .

وقال : "لاتقولوا ماشاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا ماشاء الله وحده ثم ماشاء محمد" (٥) .

ففي الطاعة قرن اسم الرسول باسمه بحرف الواو ، وفي المشيئة أمر أن يجعل ذلك بحرف "ثم" وذلك لأن طاعة الرسول طاعة لله ، فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله ، وطاعة الله طاعة الرسول ، بخلاف المشيئة فليست مشيئة أحد من العباد مشيئة لله ، ولامشيئة الله مستلزمة لمشيئة العباد ، بل ماشاء الله كان ، وان لم يشأ الناس ، وماشاء الناس لم يكن ان لم يشأ الله" (٦) . انتهى

هكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يحقق هذا التوحيد لأصحابه ويربيهم عليه ، ويحسم عنهم مادة الشرك حتى صفا

---

(١) سورة النور : آية ٥٢
(٢) سورة المائدة : آية ٤٤
(٣) سورة آل عمران : آية ١٧٥
(٤) رواه مسلم في ٧ ، كتاب الجمعة ، ١٣ باب تخفيف الصلاة والخطبة ٥٩٤/٢ رقم الحديث ٨٧٠ .
(٥) سبق تخريجه ص ٢٠٢ .
(٦) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠٩،١٠٨،١٠٦/٣ بتصرف .

اعتقادهم من كل شائبة تشوبه ، وتعلقت قلوبهم بالله تعالى وحده ، فكانوا خير أمة أخرجت للناس وكانوا خير بشر بعد الأنبياء يمشون على الأرض وقلوبهم مرتبطة بمن فى السماء سبحانه وتعالى ، فرضى عنهم ورضوا عنه . رضى عنهم لأنهم حققوا ما أراد منهم من عبادته وحده لاشريك له ، فعبدوه ولم يشركوا به لافى اعتقادهم ، ولافى أقوالهم ، وفى أفعالهم ، فصفت نفوسهم بهذا التوحيد ، وتحرروا من كل عبودية الا عبوديتهم لله وحده ، فكانوا بها أعزة كرماء ، لايتطلعون الى مافى أيدى الناس ، وانما يتطلعون الى الله الواحد سبحانه لعلمهم أنه هو الغنى سبحانه ، وغيره فقير . وهو القوى سبحانه وغيره ضعيف ، وهو العزيز سبحانه وغيره حقير.

فخلصت نفوسهم من حظ نفوسهم ، كما خلصت من حظ القيم الأرضية من حولهم ، وأصبحت خالصة مخلصة لله وحده ، وطاهرة مطهرة من كل دنس الجاهلية من حولها .

وماذلك الا بفضل الله تعالى ثم بما بذله رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر ربه سبحانه فى تربية هؤلاء الأصحاب الأخيار ومتابعتهم ، والحرص عليهم من شوائب الشرك حتى حفظ الله به جناب الاعتقاد الصحيح ، فكان واضحا صافيا رائقا ، محفوظا بحفظ الله تعالى الى أن تقوم الساعة .

فمن أراد النجاة والسعادة فما عليه الا أن يأخذه من مصدره ، ويتمسك به كما تمسك به أولئك الأصحاب ، وأنه لاعذر لمن انحرف عنه أو من تلقاه من غير مصدره .

المبحث الرابع

نماذج من رجال العقيدة

المبحث الرابع

نماذج من رجال العقيدة

أخرجت لنا تربية النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه جيلا فريدا فى تاريخ البشرية كله . فكان منهم خير أمة أخرجت للناس ، رجال تمثل فيهم الاعتقاد الصحيح والفكر السديد ، والأخلاق العالية الحميدة . وقد شهد له هؤلاء الأصحاب بالجهد المبارك الذى بذله فى تربيتهم وتعليمهم حتى أصبحوا مصابيح هداية ومشاعل نور لمن جاء بعدهم .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى :

"وقد شهدت له أمته بابلاغ الرسالة ، وأداء الأمانة ، واستنطقهم بذلك ، فى أعظم المحافل فى خطبته يوم حجة الوداع ، وقد كان هناك من أصحابه نحو من أربعين ألفا ، كما ثبت فى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى خطبته يومئذ (١) : "أيها الناس انكم مسؤولون عنى فما أنتم قائلون ؟" قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت . فجعل يرفع اصبعه الى السماء وينكسها اليهم ، ويقول : اللهم هل بلغت" (٢) .

فكان الصحابة رضى الله عنهم بحق نماذج رفيعة فى ايمانهم ، وسلوكهم ، وجميع تصرفاتهم ، وكذلك فى ثباتهم على الحق الذى رباهم عليه المربى العظيم والهادى الى صراط الله المستقيم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، حتى قدموا

---

(١) رواه مسلم فى ١٥ ـ كتاب الحج ، ١٩ ـ باب ٢/٨٩٠ رقم الحديث ١٤٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٧٧ .

أرواحهم رخيصة هينة فى سبيل الله تعالى ، شوقا لما أعده الله تعالى لأحبابه الشهداء فى سبيله ، وماذلك الا نتيجة لتربية النبى الكريم عليه الصلاة وأزكى التسليم لهم واعدادهم اعدادا قويا راسخا شاملا للنفس والعقل والجسد ، وسأذكر بعض الشواهد والنماذج على الايمان ويتبين من خلالها للقارىء مدى اعتزازهم بدينهم الذي تربوا عليه على يد نبيهم صلى الله عليه وسلم ، وثباتهم عليه واستعلائهم به ، وتقديم النفس رخيصة هينة فى سبيل ذلك ، والاصرار على مبادئه وعدم التراجع عن تعاليمه مهما كانت الظروف ، ولذلك فانهم لم يعطوا عدوهم قليلا ولاكثيرا مما يطلب من الباطل والتنازل عن الحق ، ولذا كان النصر حليفهم ، اذ كان يتمثل فى ثباتهم على مادعاهم اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ورباهم عليه ، فكان ذلك برهانا صادقا على صدق ايمانهم ، وامتثالا حيا لقول رسولهم صلى الله عليه وسلم لهم : "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لايحبه الا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار" (١) .

ومن هذه النماذج الايمانية مايلى :

(١) ذكر ابن اسحاق صورا من التنكيل والتعذيب الذى كانت قريش توجهه الى جماعة من المؤمنين المستضعفين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فقابلوا ذلك بايمان راسخ ، وعزيمة صادقة ، واعتصام بالله تعالى

---

(١) سبق تخريجه ص ٧٢ .

قوى ، ولم يظهر منهم رضوان الله عليهم لين أو استضعاف للمشركين .

ومن هؤلاء المؤمنين المستضعفين بلال بن رباح رضى الله عنه ، فقد كان أمية بن خلف يخرجه اذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة الكبيرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لاوالله لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى ، فيقول وهو فى ذلك البلاء : أحد أحد (١) .

(٢) ومنهم كذلك عمار بن ياسر وأبوه وأمه :

يقول ابن اسحاق : "وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه - وكانوا أهل بيت اسلام - اذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة ، فيمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول - فيما بلغنى - : "صبرا آل ياسر موعدكم الجنة" (٢) . فأما أمه فقتلوها ، وهى تأبى الا الاسلام" (٣) .

وقال الله تعالى :

{من كفر بالله من بعد ايمانه الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم} (٤) .

---

(١) سيرة ابن هشام ٣١٧/١-٣١٨ .
(٢) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٢٩٣/٩ ، وقال رواه الطبرانى ، ورجاله ثقات . ورواه أيضا البيهقى فى دلائل النبوة ٥٦/٢ ، وفى رواية لأحمد عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه مر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبى عمار وأمه وهما يعذبان فقال أبو عمار : يارسول الله الدهر هكذا ؟ فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : "اصبر" ثم قال : "اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت" . مسند الامام أحمد ٦٢/١ ، قال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٢٩٣/٩ ورجاله رجال الصحيح . ورواه الحاكم ٣٨٨/٣ وقال صحيح على شرط مسلم .
(٣) سيرة ابن هشام ٣١٩/١-٣٢٠ .
(٤) سورة النحل : آية ١٠٦

"وقد روى العوفى عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فوافقهم على ذلك مكرها ، وجاء معتذرا الى النبى صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه الآية " (١) .

وقال ابن كثير أيضا : "اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالى ، ابقاء لمهجته ، ويجوز له أن يأبى كما كان بلال رضى الله عنه يأبى عليهم ذلك ، وهم يفعلون به الأفاعيل حتى انهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره فى شدة الحر ، ويأمرونه بالشرك بالله ، فيأبى عليهم وهو يقول : أحد أحد ، ويقول : والله لو أعلم كلمة هى أغيظ لهم منها لقلتها " (٢) .

(٣) ومنهم حبيب بن زيد بن عاصم الأنصارى رضى الله عنه .

فقد ذكر ابن اسحاق أنه ممن شهد بيعة العقبة مع الأنصار ، "وأنه الذى أخذه مسيلمة الكذاب الحنفى صاحب اليمامة ، فجعل يقول له : أتشهد أن محمدا رسول الله ؟

فيقول : نعم .

فيقول : أتشهد أنى رسول الله ؟

فيقول حبيب : لا أسمع .

فجعل يقطعه عضوا عضوا حتى مات فى يده ، لايزيده على ذلك ، اذا ذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم آمن به

---

(١) تفسير ابن كثير ٥٨٧/٢ ، أسباب النزول للواحدى ص ١٦٢ دار الكتب العلمية ، أسباب النزول للسيوطى ص ١٣٤ ، دار احياء العلوم ، الطبعة الأولى ، وروى ذلك ابن جرير الطبرى عن قتادة وأبى مالك فى تفسيره ١٨٢/١٤ ، مكتبة الحلبى ، الطبعة الثالثة .

(٢) تفسير ابن كثير ٥٨٨/٢ .

وصلى عليه ، واذا ذكر له مسيلمة قال : لا أسمع"(١) .

(٤) ومن ذلك ماحصل لجماعة من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم في الغزوة المعروفة بغزوة الرجيع .

وذلك أن قوما من عضل والقارة ، قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم وذكروا أن فيهم اسلاما ، وسألوه أن يبعث معهم من يعلمهم الدين ويقرئهم القرآن ، فبعث معهم ستة نفر في قول ابن اسحاق(٢) ، وقال البخاري : كانوا عشرة(٣) ، وأمر عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي(٤) ، وفيهم خبيب بن عدي ، فذهبوا معهم ، فلما كانوا بالرجيع - وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز - غدروا بهم ، واستصرخوا عليهم هذيلا ، فجاءوا حتى أحاطوا بهم ، فقتلوا عامتهم(٥) ، واستأسروا خبيب بن عدي ، وزيد بن الدثنة(٦) فذهبوا بهما وباعوهما بمكة وكانا قتلا من رؤوسهم يوم بدر .

فأما خبيب فمكث عندهم مسجونا ، ثم أجمعوا على قتله فخرجوا به من الحرم الى التنعيم ، فلما أجمعوا على صلبه

---

(١) سيرة ابن هشام ٤٦٦/١-٤٦٧ ، وذكر القصة ابن عبد البر في الاستيعاب ٣٢٨/١ ، بهامش الاصابة ، وكذا ابن كثير في تفسيره ٥٨٨/٢ ، وأشار اليها الحافظ ابن حجر في الاصابة ٣٠٦/١-٣٠٧ ، في ترجمة حبيب المذكور ، وزاد : "وروى ابن أبي شيبة عن عبد الله بن ادريس عن محمد بن عمارة عم أبي بكر بن محمد يعني ابن حزم ، أن حبيب بن زيد قتله مسليمة " .

(٢) وموسى ابن عقبة كما نقله عنه ابن كثير في السيرة .

(٣) وهي أيضا رواية ابن سعد في الطبقات .

(٤) هكذا في رواية ابن اسحاق وابن سعد ، وعند البخاري أنه أمر عليهم عاصم بن ثابت .

(٥) في رواية البخاري : "وجاء القوم فأحاطوا بهم فقالوا لكم العهد والميثاق ، ان نزلتم الينا أن لانقتل منكم رجلا فقال عاصم : أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر اللهم أخبر عنا نبيك ، فقاتلوهم حتى قتلوا عاصما في سبعة نفر بالنبل" .

(٦) ومعهما ثالث : ورد ذكر اسمه عند ابن اسحاق ، واسمه عبد الله بن طارق الا أنهم قتلوه أيضا لما أبى السير معهم حين أرادوا ربطه ، فلم يبق سوى خبيب وزيد .

قال : دعونى حتى أركع ركعتين ، فتركوه فصلاهما ، فلما سلم قال : والله لولا أن تقولوا : أن مابى جزع لزدت . ثم قال : "اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا (١) ، ولاتبق منهم أحدا" ، ثم قال :

لقد أجمع الأحزاب حولى وألبوا
قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وكلهم مبدى العداوة جاهد
على لأنى فى وثاق بمضيع (٢)
وقد جمعوا أبناءهم ونساءهم
وقربت من جدع طويل ممنع
الى الله أشكوا غربتى بعد كربتى
وما أرصد الأحزاب لى عند مصرعى
فذا العرش صبرنى على مايراد بى
فقد بضعوا لحمى وقد ياس مطمعى
وقد خيرونى الكفر ، والموت دونه
فقد ذرفت عيناى من غير مجزع
ومابى حذار الموت انى لميت
وانى الى ربى ايابى ومرجعى

---

(١) قال فى اللسان ٧٨/٣ ـ نقلا عن ابن الأثير ـ يروى بكسر الياء جمع بدة : وهى الحصة والنصيب : أى اقتلهم حصصا مقسمة لكل واحد حصته ونصيبه ، ويروى بالفتح : أى متفرقين فى القتل واحدا بعد واحد من التبديد .

(٢) هكذا فى كتاب زاد المعاد . وقال صاحب لسان العرب ٢٣١/٨ : "المضيعة ، من الضياع : الاطراح والهوان ، وكأنه فيه ضائع ... وتركهم بضيعة ومضيعة ومضيعة ، ومات ضيعة وضيعا وضياعا : أى غير مفتقد" .
وفى السيرة النبوية لابن كثير : مضبع ، بالباء الموحدة ، والضبع : وسط العضد ، والمضبعة : اللحمة التى تحت الابط من قدم" . انظر لسان العرب ٢١٦/٨ ، ويكون المعنى على هذا أنه موثوق بوثاق فى عضده .

ولست أبالي حين أقتل مسلما
على أي شق كان في الله مفجعي
وذلك في ذات الاله وان يشأ
يبارك على أوصال شلو ممزع
فلست بمبد للعدو تخشعا
ولاجزعا اني الى الله مرجعي

فقال له أبو سفيان : أيسرك أن محمدا عندنا نضرب عنقه وأنك في أهلك ؟

فقال : لاوالله ، مايسرني أني في أهلي ، وأن محمدا في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه (1) (ثم قام اليه عقبة بن الحارث فقتله) (2) .

وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية فقتله بأبيه "وبعثت قريش الى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه – وكان عاصم قتل عظيما من عظمائهم يوم بدر – فبعث الله عليه مثل الظلة من الدبر (3) فحمته من رسلهم فلم يقدروا منه

---

(١) وعند ابن اسحاق أن قائل هذه الكلمة هو زيد بن الدثنة .

(٢) هذه الجملة من رواية البخاري عن أبي هريرة ، وفي رواية له عن جابر : أن الذي قتل خبيبا هو أبو سروعة قال ابن كثير في السيرة : بعد نقله لهذه الرواية – قلت : واسمه عقبة بن الحارث . وقد أسلم بعد ذلك وله حديث في الرضاع . وقد قيل : ان أبا سروعة وعقبة أخوان . والله أعلم .
وروى ابن اسحاق عن عقبة بن الحارث أنه قال : "ما أنا والله قتلت خبيبا – لأني كنت أصغر من ذلك ، ولكن أبا ميسرة ، أخا بني عبد الدار ، أخذ الحربة فجعلها في يدي ، ثم أخذ بيدي وبالحربة ، ثم طعنه بها حتى قتله"
وجزم الحافظ ابن حجر في الفتح بصحة سند هذه الرواية وعقبة هذا أسلم بعد الفتح . انظر : التقريب ٢/٢٦ ، وانظر ترجمته في كتاب الاصابة لابن حجر أيضا ٢/٤٨٨ .

(٣) الدبر : بالفتح النحل والزنابير . انظر لسان العرب ٤/٢٧٤ .

على شيء " .(١)

وذكر ابن كثير في السيرة النبوية من رواية موسى بن عقبة ، أنهم لما صلبوا زيد بن الدثنة رموه بالنبل ، ليفتنوه عن دينه فما زاده الا ايمانا وتسليما .(٢)

(٥) ومن هؤلاء عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدى السهمى .

فقد روى ابن عساكر - من طريق البيهقي - عن أبي رافع أن عمر بن الخطاب وجه جيشا الى الروم ، فيهم عبد الله بن حذافة ، فأسره الروم ، فذهبوا به الى ملكهم ، وقالوا له : هذا من أصحاب محمد .

فقال له : هل لك أن تتنصر وأشركك في ملكي وسلطاني ؟

فقال عبد الله له : لو أعطيتني جميع ماتملك ، وجميع ماملكته العرب ، على أن أرجع عن دين محمد صلى الله عليه وسلم طرفة عين مافعلت .

قال : اذن أقتلك .

قال : أنت وذاك .

فأمر به فعلق على خشبة ، وقال للرماة : ارموا به قريبا من يديه ، قريبا من رجليه ، وهو يعرض عليه النصرانية ، وهو يأبى .

ثم أمر به فأنزل ، ثم دعا بقدر فصب فيها ماء حتى احترقت ، ثم دعا بأسيرين من المسلمين ، فأمر بأحدهما

---

(١) هذه الغزوة رواها بأطول من ذلك ابن اسحاق ، كما في سيرة ابن هشام ١٦٩/٢-١٨٣ ، ورواها ابن سعد في طبقاته الكبرى ٥٥/٢-٥٦ دار صادر ، ورواها ابن كثير في السيرة النبوية ١٢٣/٣-١٢٨ ، ورواها البخاري في كتاب المغازي ، والامام أحمد في مسنده ٣١٠/٢-٣١١ ، ورواها مختصرة وافية بالمقصود الامام ابن قيم الجوزية في كتابه القيم زاد المعاد ٢٤٤/٣-٢٤٦ وقد اعتمدت عليه في ذكر هذه الغزوة سوى زيادة قليلة ذكرت مصادرها في هذا الهامش .

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ١٣٠/٣ .

فألقى فيها ، وهو يعرض على عبد الله النصرانية ، وهو يأبى ثم أمر به أن يلقى فيها ، فلما ذهب به بكى . فظن الطاغية أنه قد جزع ، فقال : ردوه . فلما ردوه عرض عليه النصرانية فأبى .

قال : فما أبكاك اذن ؟

فقال : أبكاني انى ان قتلت فلى نفس واحدة ، تلقى ساعة فى هذا القدر فتذهب ، فكنت أشتهى أن يكون لى بعدد كل شعرة من جسدى نفس تلقى هذا فى الله .

فقال له الطاغية : هل لك أن تقبل رأسى وأخلى عنك ؟

فقال له عبد الله : ان فعلت تخلى عنى وعن جميع أسارى المسلمين ؟

قال عبد الله : قلت فى نفسى عدو من أعداء الله أقبل رأسه يحل عنى وعن أسارى المسلمين لا أبالى ، فدنا منه وقبل رأسه فدفع اليه الأسارى ، فقدم بهم على عمر وأخبره الخبر ، فقال : حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة ، وأنا أبدأ فقام عمر فقبل رأسه" (١) .

(٦) ومن ذلك مافعل عمير بن الحمام فى بدر حينما قال صلى الله عليه وسلم :

"قوموا الى جنة عرضها السموات والأرض" ، فقال يارسول الله جنة عرضها السموات والأرض ؟ قال : "نعم" . قال :

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق الكبير للحافظ ابن عساكر ، هذبه الشيخ عبد القادر بدران ٣٥٦/٧ ، الطبعة الثانية ، دار المسيرة ، وقال : رواه الحافظ (يعنى ابن عساكر) عن عكرمة عن ابن عباس ، وفيه أن الأسرى كانوا ثمانين ورواه عن الزهرى أيضا .
وقد نقل الحافظ ابن حجر هذه القصة ، فى ترجمة عبد الله بن حذافة السهمى فى الاصابة ٢٩٦/٢-٢٩٧ ، وله شاهد من حديث ابن عباس موصولا عند ابن الأثير فى أسد الغابة ٢١٢/٣ ، وانظر سير أعلام النبلاء للذهبى ١٤/٢ ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية .

بخ بخ (١) . فقال صلى الله عليه وسلم : "مايحملك على قولك بخ بخ ؟" قال : لاوالله يارسول الله الا رجاء أن أكون من أهلها قال : "فانك من أهلها" (٢) . فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال : لئن حييت حتى آكل تمراتي هذه انها لحياة طويلة ، فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل (٣) .

(٧) ومن هؤلاء الأبطال أصحاب الاعتقاد الصحيح والفكر السديد

أنس بن النضر – عم أنس بن مالك – فقد تأخر رضى الله عنه عن معركة بدر ، فشق عليه ذلك وقال : أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه ، وان أرانى الله مشهدا فيما بعد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرانى الله ماأصنع (٤) ، فشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، فاستقبل سعد بن معاذ فقال له أنس : ياأبا عمرو واها لريح الجنة (٥) أجده دون أحد فقاتلهم حتى قتل ، فوجد فى جسده بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية ، فما عرفته أخته الربيع بنت النضر الا ببنانه ، ونزلت هذه الآية : {من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ومابدلوا تبديلا} (٦) .

فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفى أصحابه (٧) .

---

(١) كلمة تقال لتعظيم الأمر وتفخيمه فى الخير . انظر شرح النووى ٤٥/١٣ .
(٢) أى جعبة النشاب . انظر شرح النووى ٤٦/١٣ .
(٣) رواه مسلم فى ٣٣ – كتاب الامارة ، ٤١ – باب ثبوت الجنة للشهيد ١٥١٠/٣ رقم الحديث ١٩٠١ .
(٤) أى ليرى الله ماأصنع . انظر شرح النووى ٤٨/١٣ .
(٥) كلمة تحنن وتلهف . انظر شرح النووى ٤٨/١٣ .
(٦) سورة الأحزاب : آية ٢٣
(٧) رواه البخارى فى ٦٤ – كتاب المغازى ، ١٧ – باب غزوة أحد ٣٤/٥ رقم الحديث ٤٠٤٨ .
ورواه مسلم فى ٣٣ – كتاب الامارة ، ٤١ – باب ثبوت الجنة للشهيد ١٥١٢/٣ رقم الحديث ١٩٠٣ .

(٨) ومن هؤلاء الأبطال الذين آثروا الحياة الآخرة على الحياة الدنيا الصحابى الجليل عمرو بن الجموح وكان أعرج شديد العرج ، وكان له أربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا غزا ، فلما توجه صلى الله عليه وسلم الى أحد ، أراد أن يغزو معه ، فقال له بنوه : ان الله قد جعل لك رخصة فلو قعدت ونحن نكفيك وقد وضع الله عنك الجهاد ، فأتى عمرو بن الجموح رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ان بنيي هؤلاء يمنعوننى أن أخرج معك ، ووالله انى لأرجو أن أستشهد فأطئ بعرجتى هذه فى الجنة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد . وقال لبنيه : وماعليكم أن تدعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرج معه فقتل يوم أحد شهيدا " (١) .

(٩) وقال شداد بن الهاد :

جاء رجل من الأعراب الى النبى صلى الله عليه وسلم فآمن به واتبعه . فقال : أهاجر معك ، فأوصى به بعض أصحابه فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا فقسمه ، وقسم للأعرابى ، فأعطى أصحابه ماقسم له ، وكان يرعى ظهرهم ، فلما جاء دفعوه اليه ، فقال : ماهذا ؟ قالوا : قسم قسمه لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) رواه النسائى فى كتاب الجنائز ، باب الصلاة على الشهداء ٦١/٤ .

فأخذه فجاء به الى النبى صلى الله عليه وسلم . فقال : ماهذا يارسول الله ؟ قال : قسم قسمته لك . قال : ماعلى هذا اتبعتك ، ولكن اتبعتك على أن أرمى هاهنا – وأشار الى حلقه – بسهم فأموت فأدخل الجنة . فقال : ان تصدق الله يصدقك . ثم نهضوا الى قتال العدو ، فأتى به النبى صلى الله عليه وسلم وهو مقتول . فقال : أهو هو ؟ قالوا : نعم قال : صدق الله فصدقه .(١)

(١٠) ومنهم الصحابى الصابر كعب بن مالك رضى الله عنه .

فقد ثبت على دينه ولم يتزعزع ، عندما هجره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر الصحابة كلهم بهجره وعدم معاملته والكلام معه بسبب تخلفه عن غزوة تبوك بلاعذر ، وهو فى هذه الحالة الشديدة أرسل عليه ملك غسان يدعوه أن يلحق بهم ويكرمه ويوسع عليه فى العطاء .

قال كعب رضى الله عنه : "... ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا أيها الثلاثة(٢) ، من بين من تخلف فاجتنبنا الناس ، وتغيروا لنا ، حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض ، فما هى بالأرض التى كنت أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة . فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم ، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق ، فلايكلمنى أحد ، وآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأسلم وأقول فى نفسى : أحرك شفتيه برد السلام على أم لا ؟

---

(١) أخرجه ابن هشام فى السيرة ٩٠/٢ ، ورواه أحمد فى مسنده بلفظ آخر ٢٩٩/٥ .

(٢) الثلاثة هم : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع العمرى وهلال بن أمية الواقفى .

ثم أصلي قريبا منه وأسارقه النظر ، فاذا أقبلت على صلاتي نظر الي ، فاذا التفت نحوه أعرض عني . حتى اذا طال علي ذلك من هجر المسلمين ، مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة وهو ابن عمي ، وأحب الناس الي ، فسلمت عليه ، فوالله مارد علي السلام ، فقلت له : ياأبا قتادة ، أنشدك الله ، هل تعلم أني أحب الله ورسوله ؟ قال : فسكت . قال : فعدت له فنشدته فسكت ، فعدت له فنشدته فسكت . فقال : الله ورسوله أعلم .

قال : ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار ، فبينا أنا أمشي بسوق المدينة ، اذا أنا بنبطي (١) من أنباط الشام ، ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة ، يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فقال : فطفق الناس يشيرون له الي حتى جاء فدفع الي كتابا من ملك غسان ، وكنت كاتبا ، فاذا فيه :

"أما بعد . فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، وان الله لم يجعلك بدار هوان ولامضيعة فالحق بنا نواسك" .

فقال : فقلت حين قرأته : وهذا أيضا من البلاء . قال : فتيممت به التنور فسجرته به" (٢) .

هذه بعض النماذج الايمانية لبعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الدالة على ثباتهم على العقيدة لأنها قد تمكنت من نفوسهم وتغلغلت في أرواحهم ، وكانت هذه المواقف ترجمة حية وعملية لهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأثرا بارزا من آثار تربيته صلى الله عليه وسلم لهم على

---

(١) النبطي : هو الفلاح .
(٢) قطعة من حديث طويل أخرجه البخاري في ٦٤ ـ كتاب المغازي ، ٨٠ ـ باب حديث كعب بن مالك وقول الله عز وجل {وعلى الثلاثة الذين خلفوا} سورة التوبة : آية ١١٨ . ١٥١/٥ رقم الحديث ٤٤١٨ .
وأخرجه مسلم في ٤٩ ـ كتاب التوبة ، ٩ ـ باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه ٢١٢٨/٤ رقم الحديث ٥٤ .

العقيدة ووضوح المنهج الاعتقادى والتفكيرى .

والأمة الاسلامية فى أمس الحاجة الى أن يتربى شبابها على الاعتقاد الصحيح والتفكير السديد ، فيبرز منهم من يقف فى وجه الباطل والضلال بكل صوره وأشكاله كما وقف أولئك الأبطال من تلاميذ المربى العظيم محمد صلى الله عليه وسلم أمثال بلال ، وخبيب ، وعبد الله بن حذافة ، وحبيب بن زيد ، وغيرهم ممن عاصرهم أو استن بهم واحتذى طريقتهم ممن جاء بعدهم .

الفصل الثاني

تربيته صلى الله عليه وسلم أصحابه على العلم والعمل معا

ويشمل ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : اقتضاء العلم العمل .

المبحث الثاني : التوازن فيهما .

المبحث الثالث : المداومة على العمل الصالح .

المبحث الأول

اقتضاء العلم العمل

المبحث الأول

اقتضاء العلم العمل

ان اقتضاء العلم العمل ، وارتباط العقيدة بالحياة ، والدنيا بالآخرة سمة بارزة من سمات تعاليم رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه قولا وعملا ، فكان يربيهم على أنه لايوجد فى هذه الشريعة الغراء فصل بين العلم والعمل ، ولابين الدنيا والآخرة .

"فالشريعة دالة من أولها الى آخرها على أن الله أوجب العلم والعمل فى التكاليف التى جاءت بها ... وأنه لايوجد فى الاسلام فصل بين العلم والعمل لافى نصوص الشريعة ولافى واقع الجيل الأول فى خير القرون فانه تعلم العلم والعمل جميعا "(١) .

فالطريق اذن واحد يشمل الدنيا والآخرة ، ويربط مابين العلم والعمل فى آن واحد ، وعلى هذا جاءت نصوص الكتاب والسنة وتعاليم النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه ، لأنه لاغنى للمكلف عن القوتين العلمية والعملية .

"فالسائر الى الله والدار الآخرة ، لايتم سيره ولايصل الى مقصوده الا بقوتين :

(١) فبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق ومواضع السلوك فيقصدها سائرا فيها ، ويجتنب أسباب الهلاك ومواضع

---

(١) الثبات والشمول فى الشريعة الاسلامية ص ١٦٠ بتصرف يسير ، د. عابد السفيانى ، مكتبة المنارة ، الطبعة الأولى .

العطب وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل .
فقوته العلمية كنور عظيم بيده يمشي في ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمة فهو يبصر بذلك النور مايقع الماشي في الظلمة في مثله من الوهاد والمتالف ويعثر به من الأحجار والشوك وغيره . ويبصر بذلك النور أيضا أعلام الطريق وأدلتها المنصوبة عليها فلايضل عنها ، فيكشف له النور عن الأمرين : أعلام الطريق ، ومعاطبها .

(٢) وبالقوة العملية يسير حقيقة ، بل السير هو حقيقة القوة العملية ، فان السير هو عمل المسافر . وكذلك السائر الى ربه اذا أبصر الطريق وأعلامها وأبصر المعاثر والوهاد والطرق الناكبة عنها فقد حصل له شطر السعادة والفلاح ، وبقي عليه الشطر الآخر وهو أن يضع عصاه على عاتقه ويشمر مسافرا في الطريق قاطعا منازلها منزلة بعد منزلة ، فكلما قطع مرحلة استعد لقطع الأخرى واستشعر القرب من المنزل فهانت عليه مشقة السفر ، وكلما سكنت نفسه من كلال السير ومواصلة الشد والرحيل وعدها قرب التلاقي وبرد العيش عند الوصول ، فيحدث لها ذلك نشاطا وفرحا وهمة " . انتهى (١)

ولذا فان رسول الله صلى الله عليه وسلم حرص على تربية أصحابه على هاتين القوتين العلمية والعملية معا وربط قلوب اصحابه على الهدف الأساسي من العلم والمعرفة ، ألا وهو العمل بذلك في أداء ماأمر الله به وترك مانهى الله عنه .

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص ١٨٣ ، الطبعة الثالثة ، المكتبة السلفية .

لأن "العلم الذى هو العلم المعتبر شرعا - أعنى الذى مدح الله ورسوله أهله على الاطلاق - هو العلم الباعث على العمل الذى لايخلى صاحبه جاريا مع هواه كيفما كان ، بل هو المقيد لصاحبه بمقتضاه" (١) .

وعلى هذا ربى النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه ، كما تحدثوا هم بذلك ، فعن أبى عبد الرحمن بن عبد الله بن حبيب ابن ربيعة السلمى (٢) قال : "حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن - عثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود وغيرهما - انهم كانوا اذا تعلموا من النبى صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا مافيها من العلم والعمل . قالوا أى الصحابة : فتعلمنا العلم والعمل" (٣) .

وقد ورد مثل هذا النص فى ترجمة أبى عبد الرحمن السلمى فى كتاب طبقات القراء لابن الجزرى ، وزاد فيه :

"وانه سيرث القرآن بعدنا قوم لايتجاوز تراقيهم ، بل لايجاوز هاهنا - ووضع يده على حلقومه -" (٤) .

"ويعتبر هذا النص أقدم نص تاريخى نتعرف به على الطريقة التى كان يعلم النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه ويربيهم عليها ، فكان لايهتم بالاكثار عليهم من العلم ، ولكنه يحرص على أن يتقنوا ماتعلموه منه ، ثم يوجههم الى العمل به . فنحن نفهم من هذا النص القيم أن الصحابة رضوان

---

(١) الموافقات للشاطبى ٦٩/١ .

(٢) أبو عبد الرحمن عبد الله بن حبيب بن ربيعة السلمى هو عبد الله بن حبيب بن ربيعة - بالتصغير - أبو عبد الرحمن السلمى الكوفى القارىء ، روى عن حذيفة بن اليمان وخالد بن الوليد ، وروى عنه ابراهيم النخعى ، وأبو اسحق السبيعى ، وروى له الجماعة . تهذيب الكمال ٤٠٨/١٤ ، للمزى ، مؤسسة الرسالة ، تحقيق د. بشار عواد معروف .

(٣) الاكليل لابن تيمية ص ٣١ ، عن كتاب الرعيل الأول ص ٥٥ ، الطبعة السابعة ، نشره محب الدين الخطيب ، وانظر : تفسير ابن كثير ٣/١ ، مصنف ابن أبى شيبة ٤٦٠/١٠ .

(٤) طبقات القراء ٤١٣/١ .

الله عليهم الذين ظهرت منهم العجائب عندما قذف بهم الاسلام الى أقطار المشرق والمغرب ، كانوا يتلقون من القرآن عشر آيات بعد عشر آيات ، فكانوا لاينتقلون من العشر الى العشر الا بعد حفظ هذه الآيات القليلة باتقان وتدبر لما فيهن من آداب وأحكام وتوجيهات وأهداف ، ثم يمرنون أنفسهم وجوارحهم على العمل بذلك بتوجيه منه صلى الله عليه وسلم حتى تصبح لهم خلقا وعادة وسجية " (١) .

وفى هذا الأثر بيان واضح من الصحابة رضوان الله عليهم عن كيفية تربية النبى صلى الله عليه وسلم وتعليمه لهم .

فلم يكن النبى صلى الله عليه وسلم يقرئهم القرآن ويعلمهم اياه بقصد الثقافة والاطلاع ، ولابقصد التذوق والمتاع ، وانما كان يعلمهم القرآن ليتلقوا منه أمر الله تعالى ، فيعملوا به فور سماعهم له ، كما يتلقى الجندى الأمر اليومى من رئيسه ليعمل به فور سماعه ، ومن ثم لم يكن الصحابة رضوان الله عليهم ليستكثروا من القرآن ومن توجيهات رسولهم صلى الله عليه وسلم فى الجلسة الواحدة لاحساسهم بالواجبات والتكاليف الملقاه على عواتقهم مما يتعلمونه من الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكانوا يكتفون بعشر آيات حتى يحفظوها ويعملوا بها (٢) .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشخص ببصره الى السماء ثم قال : هذا أوان يختلس العلم من الناس حتى لايقدروا منه على شىء ، فقال زياد بن لبيد الأنصارى : يارسول الله وكيف يختلس منا

---

(١) مع الرعيل الأول ص ٥٦ بتصرف .
(٢) انظر : معالم فى الطريق ص ١٩-٢٠ ، الطبعة الثالثة ، دار الشروق .

وقد قرأنا القرآن ؟ فوالله لنقرأنه ولنقرئنه نساءنا وأبناءنا ، فقال : "ثكلتك أمك يازياد ان كنت لأعدك من فقهاء أهل المدينة ، هذه التوراة والانجيل عند اليهود والنصارى ، فماذا يغنى عنهم ؟" قال جبير : فلقيت عبادة بن الصامت قال : قلت : ألا تسمع مايقول أخوك أبو الدرداء ؟ فأخبرته بالذى قال ، قال : صدق أبو الدرداء ، ان شئت لأحدثنك بأول علم يرفع من الناس : الخشوع ، يوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلاترى فيه رجلا خاشعا " (١) .

ففى هذا الحديث يربط الرسول صلى الله عليه وسلم بين العلم والعمل ربطا قويا ، ويربى أصحابه على ذلك ويخبرهم بأن ضياع العلم يكون بسبب ضياع العمل ، وليس ضياع العلم بضياع الكتب أو عدم حفظه فى الصدور كلا وانما يضيع العلم اذا لم يطبق فى حياة المسلمين تطبيقا كما يريد رب العالمين سبحانه ، ولذلك لما استشكل الصحابى زياد بن لبيد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اختلاس العلم من الناس ، وقوله للرسول صلى الله عليه وسلم وكيف يختلس منا وقد قرأنا القرآن ؟ فوالله لنقرأنه ولنقرئنه نساءنا وأبناءنا .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم مربيا وموجها له وللسامعين أن التوراة والانجيل عند اليهود والنصارى ، فما أغنت عنهم لما أعرضوا عما جاء فيها من أمر الله تعالى وتعاليمه .

---

(١) سنن الدارمى ٧٥/١ .
ورواه أيضا الترمذى وقال : حديث حسن غريب ، ومعاوية ابن صالح ثقة عند أهل الحديث ، ولانعلم أحدا تكلم فيه غير يحيى القطان ، وقد روى عن معاوية نحو هذا . وروى بعضهم هذا الحديث عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه عن عوف بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم . ٤٢ كتاب العلم ، ٥ ـ باب ماجاء فى ذهاب العلم حديث رقم ٢٦٥٣ فى ٣١/٥ .

"لأن شأن العلم أن يستلزم الايمان والايمان يستلزم العمل ، فان لم يكن هناك عمل كان العلم ناقصا ، وكان الايمان مختلا .

فلقد ذم الله سبحانه وتعالى الذين لايعملون بعلمهم فقال : {مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا}(١) . فالآية تعطى صورة حية ناطقة لمن لايعمل بعلمه .

وتشير الى أن من العلم مايخالط القلب ويمازج أجزاء النفس ، ومنه نوع يدخل الى النفس لكنه لايؤثر فيها ولايتأثر بها بل يبقى كسقط المتاع فى زاوية من زوايا النفس ، وهذا أكبر من الجهل لأن صاحبه يخدع الناظر اليه ويخدع نفسه فهو فى ثوب العلماء ونفسه تنطوى على جهالة عمياء"(٢) .

وعن همام عن حذيفة رضى الله عنهما قال : "يامعشر القراء استقيموا ، فقد سبقتم سبقا بعيدا ، فان أخذتم يمينا وشمالا لقد ضللتم ضلالا بعيدا"(٣) .

وعن ابن عون قال : ثلاث أحبهن لنفسى ولاخوانى : "هذه السنة أن يتعلموها ويسألوا عنها ، والقرآن أن يتفهموه ، ويسألوا الناس عنه ويدعوا الناس الا من خير"(٤) .

فالقراء لفظة يراد بها عند السلف الصالح العلماء بالقرآن والسنة العباد(٥) ، وهم المقصودون بقول عبد الله بن

---

(١) سورة الجمعة : آية ٥

(٢) المجتمع الاسلامى ص ٧٨ ، د. محمد أمين المصرى ، دار الأرقم ، الطبعة الرابعة .

(٣) رواه البخارى فى ٩٧ - كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، ٢ - باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٧٨/٨ رقم الحديث ٧٢٨٢ .

(٤) رواه الامام البخارى فى ٩٧ - كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، ٢ - باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٧٦/٨ .

(٥) انظر : فتح البارى ٢٥٧/١٣ .

عباس رضى الله عنهما : "وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولا كانوا أو شبانا" (١) .

وليس المراد "بالقراء" من تخصصوا فى قراءة القرآن دون أن يكون لهم علم بأحكام الكتاب والسنة كطبقة كثير من قراء زماننا .

ولهذا فالنص دعوة الى العلماء العباد بالاستقامة أى بالعمل بما علموه من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والاستمرار على ذلك ، لأن حقيقة الاستقامة : "عدم الاعوجاج والميل ، والسين والتاء فيها للمبالغة فى التقوم فحقيقة استقام : استقل غير مائل ولامنحن . وتطلق الاستقامة بوجه الاستعارة على مايجمع معنى حسن العمل والسيرة على الحق والصدق ، قال تعالى : {فاستقيموا اليه واستغفروه} (٢) ، وقال : {فاستقم كما أمرت} (٣) . ويقال : استقامت البلاد للملك أى أطاعت ، ومنه قوله تعالى : {فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم} (٤) فاستقام ، هنا يشمل معنى الوفاء بما كلفوا به ، وأول مايشمل من ذلك أن يثبتوا على أصل التوحيد ، أى لايغيروا ولايرجعوا عنه .

ومن هذا المعنى ماروى فى صحيح مسلم عن سفيان الثقفى قال : قلت : يارسول الله قل لى فى الاسلام قولا لاأسأل عنه أحدا غيرك . قال : "قل آمنت بالله ثم استقم" (٥) .

---

(١) رواه البخارى فى ٩٧ ـ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، ٢ ـ باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٧٩/٨ رقم الحديث ٧٢٨٦ ، وانظر فتح البارى ٢٥٨/١٣ .
(٢) سورة فصلت : آية ٦
(٣) سورة هود : آية ١٢
(٤) سورة التوبة : ٧
(٥) رواه مسلم فى ١ ـ كتاب الايمان ، ١٣ ـ باب جامع أوصاف الاسلام ٦٥/١ رقم الحديث ٣٨ .

وعن أبى بكر "ثم استقاموا" : لم يشركوا بالله شيئا . وعن عمر : استقاموا على الطريقة لطاعته ثم لم يروغوا روغان الثعالب . وقال عثمان : ثم أخلصوا العمل لله . وعن على : ثم أدوا الفرائض ... وكل هذه الأقوال ترجع الى معنى الاستقامة فى الايمان وآثاره ، وعناية هؤلاء الأربعة كبار الصحابة ببيان الاستقامة مشيرا الى أهميتها فى الدين" (١) .

فان استقمتم أيها القراء على التمسك بأمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فعلا وتركا ، فقد سبقتم غيركم سبقا بعيدا ظاهرا .

وأما اذا خالفتم الأمر المذكور وأعرضتم عن أوامر الله ورسوله وأعرضتم عنها فقد وقعتم فى الضلال البعيد . قال الله تعالى :

{وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله} (٢) .

فلابد من الاهتمام بالعلم بما فى الكتاب والسنة من أوامر ونواه والعمل بمقتضى ذلك ، ودعوة الناس الى ذلك ، وكف الأذى والشر عنهم .

وفى هذا تأكيد على ربط العلم بالعمل . "فلاعمل بلاعلم ولاعلم بلا عمل ، فهذا هو المفهوم التربوى الذى جاء به الاسلام ، وخص القرآن والرسول عليه السلام من أجله حشدا من الآيات والأحاديث . وتلك هى ميزة الاسلام عن سائر المبادىء الوضعية التى تعانى ثنائية وازدواجا فى طبيعة العلاقة بين العلم والعمل ، هذه الثنائية التى تتبدى فى دراساتهم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٢٨٢،٢٨٣ بتصرف يسير .
(٢) سورة الأنعام : آية ١٥٣

ومشاريعهم النظرية ، وفى واقعهم العملى ، فهناك دائما جدار فاصل بين المذاهب وبين الأعمال . والذى يقرأ معطيات الوضعيين الفكرية والفلسفية ، منذ عهد أفلاطون وحتى العصر الحديث يلاحظ هذه الثنائية . ومامن شك فى أن هذا الفصل أمر محتم فى كل مبدأ لايخاطب كينونة الانسان ، ولايتعامل مع واقع الحياة ولايرسم الخطوات الحصيفة لربط الأساس بالمسببات ، والأفكار بالأعمال" (١) .

وكان صلى الله عليه وسلم يحث أصحابه على حفظ أوقاتهم فيما فيه فائدة لهم فى دينهم ودنياهم . فكان يربيهم على العلم المقتضى للعمل لما فيه من فائدة وتحصيل للأجر والثواب من الله تعالى .

ويحذرهم من الخلاف الذى يؤدى الى العداوة والبغضاء دون أن تدعو اليه حاجة عملية .

عن عبد الله بن عمرو قال : هجرت (٢) الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ، قال فسمع أصوات رجلين اختلفا فى آية ، فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف فى وجهه الغضب ، فقال : "انما هلك من كان قبلكم باختلافهم فى الكتاب" (٣) .

وعن أبى عمران (٤) عن جندب بن عبد الله البجلى قال : قال

---

(١) ملامح الانقلاب الاسلامى فى خلافة عمر بن عبد العزيز ص ١٨٧، ١٨٨ ، د . عماد الدين خليل ، مؤسسة الرسالة ، ط/الخامسة .

(٢) هجرت : أى بكرت . انظر صحيح مسلم ٢٠٥٣/٤ .

(٣) صحيح مسلم ٤٧ ـ كتاب العلم ، ١ ـ باب النهى عن اتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعيه ، والنهى عن الاختلاف فى القرآن ٢٠٥٣/٤ رقم الحديث ٢٦٦٦ .

(٤) هو أبو عمران عبد الملك بن حبيب الأزدى الجونى ، روى عن أنس بن مالك وجندب بن عبد الله البجلى ، وروى عنه أبان بن يزيد العطار ، وجعفر بن سليمان الضبعى ، وروى له الجماعة .
تهذيب الكمال ٢٩٧/١٨ .

رسـول الـلـه صلى الله عليه وسلم : "اقرؤا القرآن مائتلفت عليه قلوبكم ، فاذا اختلفتم فيه فقوموا" (١) .

"فالمراد بهلاك من قبلنا هنا هلاكهم فى الدين بكفرهم وابتداعهم ، فحذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مثل فعلهم ، والأمر بالقيام عند الاختلاف فى القرآن محمول عند العلماء على اختلاف لايجوز أو اختلاف يوقع فيما لايجوز كاختلاف فى نفس القرآن أو فى معنى منه لايسوغ فيه الاجتهاد أو اختلاف يوقع فى شك أو شبهة أو فتنة وخصومة أو شجار ونحو ذلك ، وأما الاختلاف فى استنباط فروع الدين منه ، ومناظرة أهل العلم فى ذلك على سبيل الفائدة واظهار الحق واختلافهم فى ذلك فليس منهيا عنه بل هو مأمور به وفضيلة ظاهرة ، وقد أجمع المسلمون على هذا من عهد الصحابة الى الآن والله أعلم" (٢) .

وفى هذا تربية منه صلى الله عليه وسلم لأصحابه على حفظ أوقاتهم وعدم صرفها فيما لافائدة فيه ، وفيما يؤدى الى التباغض والفرقة والاختلاف ، لأن المسلم مأمور بالعلم والعمل وحفظ وقته فيما يؤدى الى ذلك وفيه الخير والمصلحة للفرد وللغير .

يتضح مما سبق أن العلم مرتبط بالعمل ، لأن المقصود الأول من كل علم شرعى هو عبادة الله وحده لاشريك له ، وأن روح العلم العمل ، وأن العلم بلاعمل كالشجرة بلا ثمر .

هكذا تدرج صلى الله عليه وسلم مع أصحابه فى تربيتهم على العلم والعمل حتى أصبح لهذا النوع من العلم الذى

---

(١) صحيح مسلم ٤٧ ـ كتاب العلم ، ١ ـ باب النهى عن اتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعيه ، والنهى عن الاختلاف فى القرآن ٢٠٥٣/٤ رقم الحديث ٢٦٦٧ .
(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ٢١٨/١٦، ٢١٩ .

يعملون به قيمة كبيرة فى نفوسهم ، وكانوا يرون أنه هو العلم النافع المطلوب الذى يحبه الله ورسوله ، والذى جاءت أوامر الله ورسوله بمقتضاه .

ويستعيذون بالله تعالى من علم لانفع فيه ، ذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يربيهم على كل معرفة لها أثر نافع فى تهذيب نفوسهم ، وفى تقوى الله تعالى والبعد بهم عن الشر وأهله .

والدعوة الى تعميم الخير ونشر الحق والعدل فى الأرض ، حتى تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .

وعلى مناصرة أوليائه وحبهم والتودد لهم ، والبراءة ممن خالف أمر الله ورسوله ونهيهما وعادى الله ورسوله والمؤمنين ، فكانوا رضوان الله عليهم يقبلون على ذلك أشد الاقبال حتى أنهم مرنوا أنفسهم وجوارحهم على العمل بما تعلموا منه صلى الله عليه وسلم حتى أصبح ذلك عادة وسجية لهم . فلم يشغلوا مداركهم وعقولهم بلغو القول ، ولابالفلسفة التى لاطائل تحتها من الغيب الذى استأثر الله بعلمه مكتفين من ذلك بما وردهم عن الله ورسوله لايزيدون عليه ولاينقصون منه (١) . ولهذا كانوا خير أمة أخرجت للناس .

قال الامام الشاطبى رحمه الله تعالى :

"لأن كل علم شرعى فطلب الشارع له انما يكون حيث هو وسيلة الى التعبد به لله تعالى ، ويدل على ذلك ثلاثة أمور هى :

---

(١) انظر : مع الرعيل الأول ص ٥٦ .

الأمر الأول : أن كل علم لايفيد عملا[(١)] فليس فى الشرع مايدل على استحسانه ، ولو كان له غاية أخرى شرعية لكان مستحسنا شرعا .

الأمر الثانى : أن الشرع انما جاء بالتعبد ، وهو المقصود من بعثة الأنبياء عليهم السلام ، كقوله تعالى : {ياأيها الناس اعبدوا ربكم}[(٢)] ، وقوله : {آلر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير أن لاتعبدوا الا الله}[(٣)] الآيات . وقوله : {ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين}[(٤)] . وقوله : {الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون}[(٥)] أى يسوون به غيره فى العبادة فذمهم على ذلك . وقوله : {وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول}[(٦)] . وقوله : {وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لااله الا أنا فاعبدون}[(٧)] . وقوله : {انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين ، ألا لله الدين الخالص}[(٨)] . وماأشبه ذلك من الآيات التى لاتكاد تحصى ، كلها دال على أن المقصود التعبد لله وانما أوتوا بأدلة التوحيد ليتوجهوا الى المعبود بحق وحده سبحانه لاشريك له .

---

(١) كالفلسفة النظرية الصرفة . أما الفلسفة العملية كالهندسة والكيمياء والطب والكهرباء فهى علوم يتوقف عليها حفظ مقاصد الشرع فى الضروريات والحاجيات . وكذلك المصالح المرسلة تشملها ، وهى وسيلة الى التعبد أيضا لأن التعبد هو تصرف العبد فى شؤون دنياه وأخراه بما يقيم مصالحهما بحيث يجرى فى ذلك على مقتضى مارسم له مولاه ، لاعلى مقتضى هواه . هامش الموافقات ٦١/١ .

(٢) سورة البقرة : آية ٢١

(٣) سورة هود : آية ١

(٤) سورة البقرة : آية ٢

(٥) سورة الأنعام : آية ١

(٦) سورة التغابن : آية ١٢

(٧) سورة الأنبياء : آية ٢٥

(٨) سورة الزمر : آية ٢

ولذلك قال تعالى : {فاعلم أنه لااله الا الله واستغفر لذنبك} (١) . وقال : {فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لااله الا هو . فهل أنتم مسلمون ؟} (٢) . وقال : {هو الحي لااله الا هو فادعوه مخلصين له الدين} (٣) . ومثله سائر المواضع التي نص فيها على كلمة التوحيد ، لابد أن أعقب بطلب التعبد لله وحده ، أو جعل مقدمة لها . بل أدلة التوحيد هكذا جرى مساق القرآن فيها : الا تذكرة الا كذا ، وهو واضح في أن التعبد لله هو المقصود من العلم والآيات في هذا المعنى لاتحصى .

الأمر الثالث : ماجاء من الأدلة على أن روح العلم هو العمل . والا فالعلم عارية وغير منتفع به . فقد قال الله تعالى : {انما يخشى الله من عباده العلماء} (٤) . وقال : {وانه لذو علم لما علمناه} (٥) . قال قتادة : يعني لذو عمل بما علمناه . وقال تعالى : {أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون انما يتذكر أولوا الألباب} (٦) . وقال تعالى : {أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب} (٧) .

وروى عن أبي جعفر محمد بن علي في قوله تعالى : {فكبكبوا فيها هم والغاوون} (٨) . قال : قوم وصفوا الحق والعدل بألسنتهم ، وخالفوه الى غيره " (٩) .

---

(١) سورة محمد صلى الله عليه وسلم : آية ١٩
(٢) سورة هود : آية ١٤
(٣) سورة غافر : آية ٦٥
(٤) سورة فاطر : آية ٢٨
(٥) سورة يوسف : آية ٦٨
(٦) سورة الزمر : آية ٩
(٧) سورة البقرة : آية ٤٤
(٨) سورة الشعراء : آية ٩٤
(٩) الموافقات ٦٢،٦١،٦٠/١ بتصرف يسير .

ولهذا كان الصحابة - رضوان الله عليهم - يختلفون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيصيبون منه علما وهدى وفضائل وسجايا وآدابا وأحكاما ما اتسعت لذلك أوقاتهم وساعدت على ذلك ظروفهم . كما عبر عن ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه بقوله : "كنت أنا وجار لى من الأنصار فى بنى أمية بن زيد - وهى من عوالى المدينة - فكنا نتناوب النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ينزل يوما وأنزل يوما فاذا نزلت جئته بعلم ذلك اليوم ، واذا نزل فعل مثل ذلك" (١) .

فكانوا رضوان الله عليهم يحرصون على ملازمة معلمهم ورسولهم صلى الله عليه وسلم ، فكان بعضهم أكثر ملازمة له صلى الله عليه وسلم وأكثر احاطة بما يقول ويفعل .

كما كان بعضهم أعمق فهما لمراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأوسع ادراكا لما يرمى اليه من أهداف (٢) .

فالتلازم بين العلم والعمل وثيق فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فالعلم شرط فى صحة العمل ، قال تعالى : {فاعلم أنه لااله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ، والله يعلم متقلبكم ومثواكم} (٣) .

ولذلك بوب الامام البخارى رحمه الله تعالى لهذه الآية فى صحيحه بقوله : (باب العلم قبل القول والعمل) (٤) .

لأن الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأمرين فى الآية السابقة :

---

(١) رواه البخارى فى ٣ - كتاب العلم ، ٢٨ - باب التناوب فى العلم ٣٦/١ رقم الحديث ٨٩ .
(٢) انظر : مع الرعيل الأول ص ٥٧ .
(٣) سورة محمد صلى الله عليه وسلم : آية ١٩
(٤) الجامع الصحيح للامام البخارى ٣ ، كتاب العلم ، ١١ باب العلم قبل القول والعمل ٢٩/١ .

فأمره أولا بالعلم بقوله تعالى : {فاعلم أنه لا اله الا الله} .

وأمره ثانيا بالعمل بقوله : {واستغفر لذنبك وللمؤمنين ...} .

فالعلم والعمل قرينان متلازمان ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله لايتعلمه الا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة" (١) .

هكذا انغرس فى نفوس الصحابة والتابعين أن روح العلم العمل . فظهرت آثار ذلك فى أقوالهم كما ظهرت فى سلوكهم ، فيقول على بن أبى طالب رضى الله عنه : "هتف العلم بالعمل فان أجابه والا ارتحل" (٢) .

وقال أيضا : "ياحملة العلم اعملوا به ، فان العالم من علم ثم عمل ، ووافق علمه عمله ، وسيكون أقوام يحملون العلم لايجاوز تراقيهم ، يخالف سريرتهم علانيتهم ، ويخالف علمهم عملهم ، يقعدون حلقا يباهى بعضهم بعضا ، حتى ان الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس الى غيره ويدعه . أولئك لاتصعد أعمالهم الى الله عز وجل" (٣) .

وعن ابن مسعود قال : "ليس العلم عن كثرة الحديث ، انما العلم خشية الله" (٤) .

---

(١) سبق تخريجه ص ٢٥ .

(٢) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادى تحقيق الشيخ ناصر الدين الألبانى ص ٣٦ ، المكتب الاسلامى ، الطبعة الثالثة .

(٣) اقتضاء العلم العمل ص ٣٦ .

(٤) اقتضاء العلم العمل ص ٣٦ .

وقـــال الحسن البصرى : "ليس الايمان بالتحلى ولابالتمنى ولكن ماوقر فى القلوب وصدقته الأعمال ، من قال حسنا وعمل غير صالح رده الله على قوله ، ومن قال حسنا وعمل صالحا رفعه العمل ، وذلك بأن الله تعالى يقول : {اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه} (١) .

وقـــال سفيان الثورى : "انما يتعلم العلم ليتقى به الله ، وانما فضل العلم على غيره لأنه يتقى الله به" (٢) .

وقـــال يوسف بن الحسن : "بالأدب تفهم العلم ، وبالعلم يصح لك العمل ، وبالعمل تنال الحكمة ، وبالحكمة تفهم الزهد ، وتوفق له ، وبالزهد تترك الدنيا ، وبترك الدنيا ترغب فى الآخرة ، وبالرغبة فى الآخرة تنال رضى الله عز وجل" (٣) .

وقـــال الفضيل بن عياض : "لايزال العالم جاهلا بما علم حتى يعمل به ، فاذا عمل به كان عالما" (٤) .

وقـــال أيضا : "على الناس أن يتعلموا ، فاذا علموا فعليهم العمل" (٥) .

وقـــال حفص بن حميد (٦) : "دخلت على داود الطائى أسأله عن مسألة وكان كريما ، فقال : أرأيت المحارب اذا أراد أن

---

(١) اقتضاء العلم العمل ص ٤٢، ٤٣ ، والآية من سورة فاطر آية ١٠ .
(٢) الموافقات للشاطبى ٦٣/١ .
(٣) اقتضاء العلم العمل ص ٣١ .
(٤) اقتضاء العلم العمل ص ٣٧ .
(٥) اقتضاء العلم العمل ص ٣٧ .
(٦) حفص بن حميد المروزى الأكافى العابد ، يروى عن ابراهيم بن أدهم وعبد الله بن المبارك ، ويروى عنه ابراهيم بن شماس السمرقندى وأحمد بن جميل المروزى ، ذكره ابن حبان فى الثقات .
تهذيب الكمال ١٠/٧ .

يلقى الحرب ؟ أليس يجمع آلته ، فاذا أفنى عمره فى الآلة ، فمتى يحارب ؟ ان العلم آلة العمل . فاذا أفنى عمره فى جمعه فمتى يعمل ؟" (١) .

وقال الفضيل بن عياض : "انما نزل القرآن ليعمل به ، فاتخذ الناس قراءته عملا . قال : قيل : كيف العمل به ، قال أى ليحلوا حلاله ، ويحرموا حرامه ، ويأتمروا بأوامره ، وينتهوا عن نواهيه ، ويقفوا عند عجائبه " (٢) .

وقال معروف الكرخى : "اذا أراد الله بعبد خيرا فتح له باب العمل ، وأغلق عنه باب الجدل ، واذا أراد الله بعبد شرا فتح له باب الجدل ، وأغلق عنه باب العمل" (٣) .

وقال الشعبى : "كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به " (٤) . ومثله عن وكيع بن الجراح رحمهم الله تعالى .

وعن الحسن قال : "العالم الذى وافق علمه عمله ، ومن خالف علمه عمله فذلك راوية حديث سمع شيئا فقاله " (٥) .

وقال أيضا : "الذى يفوق الناس فى العلم جدير أن يفوقهم فى العمل" (٦) .

وعنه أيضا فى قوله الله تعالى : {وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولاآباؤكم} (٧) قال : "علمتم فعلمتم ولم تعملوا ، فوالله ماذلكم بعلم" (٨) .

---

(١) اقتضاء العلم العمل ص ٤٤،٤٥ .
(٢) اقتضاء العلم العمل ص ٧٦ .
(٣) اقتضاء العلم العمل ص ٨٠ .
(٤) جامع بيان العلم وفضله ١٤/٢ .
(٥) جامع بيان العلم وفضله ٩/٢ .
(٦) جامع بيان العلم وفضله ١٣/٢ .
(٧) سورة الأنعام : آية ٩١
(٨) جامع بيان العلم وفضله ١٣/٢ .

وهذا توضيح معنى كون العلم هو الذى يلجىء الى العمل.

"لأن المراد بالعلم العلم الشرعى الذى يفيد معرفة مايجب على المكلف من أمر دينه فى عباداته ومعاملاته ، والعلم بالله وصفاته ومايجب له من القيام بأمره ، وتنزيهه عن النقائص" (١).

"وهذا كله من طبيعة هذا الدين ، التى ترفض اختزان المعارف الباردة فى ثلاجات الأذهان الجامدة .

ان "المعرفة" فى هذا الدين تتحول لتوها الى "حركة" والا فهى ليست من جنس هذا الدين ، وحين كان القرآن يتنزل ، لم يتنزل بتوجيه أو حكم الا لتنفيذه لساعته .. أى ليكون عنصرا حركيا فى المجتمع الحى .. ان كل نص قرآنى يمثل استجابة حية لحالة واقعة ، أو دفعة حية لانشاء حالة مطلوبة .. ومن ذلك تنزلت الأحكام التشريعية كلها فى المدينة كحركة فى المجتمع المسلم الذى قام هناك ، ولم يتنزل حكم واحد منها فى مكة ، ليختزن - كمعرفة مجردة - حتى يجىء وقت التنفيذ فى المدينة .. ان المعرفة للمعرفة ليست منهجا اسلاميا .. فى الاسلام المعرفة للحركة . والعلم للعمل . والعقيدة للحياة .

واليوم لاقيمة للمعرفة التى لاتتحول - لتوها - الى حركة . لاقيمة للدراسات الاسلامية فى شتى مناهجها وشتى معاهدها .. لاقيمة لاكتظاظ رفوف المكتبات بالكتب الدينية ، ولاباكتظاظ الأدمغة بمضمونات هذه الكتب .. ان هذا ليس هو الاسلام ، وليس هو العلم الدينى ، العلم الدينى شىء يزاول

---

(١) فتح البارى ١٤١/١ .

فى الحياة ، ويطبق فى المجتمع ، ويعيش فى الواقع ، ويتمثل فى نظام .. والاسلام هو سيادة هذا النظام .. وليس للاسلام من صورة أخرى يعرفها الاسلام ويرضاها الله " (١) .

ومن هنا نعلم أن أهل الايمان جمعوا بين العلم والعمل فسعدوا بذلك وحازوا أجر الدنيا والآخرة معا .

وأما اليهود ففرقوا بينهما ، فعلموا الحق وحادوا عن العمل به . وأما النصارى ففقدوا العلم وتلبسوا بالجهل .

ولهذا كان الغضب لليهود والضلال للنصارى كما قال تعالى : {غير المغضوب عليهم ولا الضالين} (٢) .

"فطريقة أهل الايمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به ، واليهود فقدوا العمل ، والنصارى فقدوا العلم ، ولهذا كان الغضب لليهود والضلال للنصارى لأن من علم وترك استحق الغضب بخلاف من لم يعلم ، والنصارى لما كانوا قاصدين شيئا لكنهم لايهتدون الى طريقه لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه وهو اتباع الحق وضلوا ، وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه ، لكن أخص أوصاف اليهود الغضب كما قال تعالى عنهم : {من لعنه الله وغضب عليه} (٣) وأخص أوصاف النصارى الضلال كما

---

(١) مقومات التصور الاسلامى ص ٢٤، ٢٥ بتصرف يسير جدا .

(٢) سورة الفاتحة : آية ٧
"قال جماهير من علماء التفسير {المغضوب عليهم} اليهود و{الضالين} النصارى . وقد جاء الخبر بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث عدى بن حاتم رضى الله عنه . رواه الترمذى فى كتاب تفسير القرآن فى باب من سورة فاتحة الكتاب ١٨٦/٥ وقال : حديث حسن غريب لانعرفه الا من حديث سماك بن حرب ، ورواه أحمد فى مسنده ٣٧٨/٤ .
واليهود والنصارى وان كانوا ضالين جميعا مغضوبا عليهم جميعا ، فان الغضب انما خص به اليهود ، وان شاركهم النصارى فيه ، لأنهم يعرفون الحق وينكرونه ويأتون الباطل عمدا فكان الغضب أخص صفاتهم . والنصارى جهلة لايعرفون الحق ، فكان الضلال أخص صفاتهم" . أضواء البيان ١٠٦/١ ، للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

(٣) سورة المائدة : آية ٦٠

قال تعالى عنهم : {قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل}" (١)(٢) .

"والأدلة على هذا المعنى أكثر من أن تحصى ، وكل ذلك يحقق أن العلم وسيلة من الوسائل ، ليس مقصودا لنفسه من حيث النظر الشرعي ، وانما هو وسيلة الى العمل . وكل ماورد في فضل العلم فانما هو ثابت من جهة ماهو مكلف بالعمل به .

فلايقال : ان العلم قد ثبت في الشريعة فضله ، وان منازل العلماء فوق منازل الشهداء ، وان العلماء ورثة الأنبياء وان مرتبة العلماء تلي مرتبة الأنبياء ، واذا كان كذلك وكان الدليل الدال على فضله مطلقا لامقيدا فكيف ينكر أنه فضيلة مقصودة لاوسيلة ؟

هذا ، وان كان وسيلة من وجه ، فهو مقصود لنفسه أيضا كالايمان فانه شرط في صحة العبادات ، ووسيلة الى قبولها ، ومع ذلك فهو مقصود لنفسه .

لأنا نقول : لم يثبت فضله مطلقا ، بل من حيث التوسل به الى العمل ، بدليل ماتقدم ذكره آنفا ، والا تعارضت الأدلة وتناقضت الآيات والأخبار ، وأقوال السلف الأخيار . فلابد من الجمع بينها . وماذكر آنفا شارح لما ذكر في فضل العلم والعلماء .

وأما الايمان فانه عمل من أعمال القلوب ، وهو التصديق وهو ناشيء عن العلم . والأعمال قد يكون بعضها وسيلة الى البعض ، وان صح أن تكون مقصودة في أنفسها ، أما العلم

---

(١) سورة المائدة : آية ٧٧

(٢) تفسير ابن كثير ٢٩/١ .

فانه وسيلة ، وأعلى ذلك العلم بالله ، ولاتصح به فضيلة لصاحبه حتى يصدق بمقتضاه ، وهو الايمان بالله " . (١)

"فالقرآن أخبر بالعلم به والعمل له ، فجمع بين قوتى الانسان العلمية والعملية : الحسية والحركية الارادية الادراكية ، والاعتمادية : القولية والعملية ، حيث قال تعالى : {اعبدوا ربكم} (٢) . فالعبادة لابد فيها من معرفته ، والانابة اليه والتذلل له ، والافتقار اليه ، وهذا هو المقصود . والطريقة الكلامية ، انما تفيد مجرد الاقرار ، والاعتراف بوجوده .

وهذا اذا حصل من غير عبادة وانابة : كان وبالا على صاحبه وشقاء له . كابليس اللعين فانه معترف بربه ، مقر بوجوده ، لكن لما لم يعبده كان رأس الأشقياء ، وكل من شقى فباتباعه له . كما قال تعالى : {لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين} (٣) . فلابد أن يملأ جهنم منه ومن أتباعه ، مع أنه معترف بالرب مقر بوجوده ، وانما أبى واستكبر عن الطاعة والعبادة ، والقوة العلمية مع العملية بمنزلة الفاعل والغاية ، ولهذا قيل العلم بلاعمل كالشجر بلا ثمر .

والمراد بالعمل هنا عمل القلب الذى هو انابته الى الله ، وخشيته له حتى يكون عابدا له .

فالرسل والكتب المنزلة أمرت بهذا وأوجبته ، بل هو رأس الدعوة ومقصودها وأصلها ، والطريقة السماعية العملية الصوتية المنحرفة ، توافق على المقصود العملى ، لكن لابعلم

---

(١) الموافقات للشاطبى ١/٦٥،٦٦ .
(٢) سورة البقرة : آية ٢١
(٣) سورة ص : آية ٨٥

بل بصوت مجرد أو بشعر مهيج ، أو بوصف حب مجمل . فكما أن الطريقة الكلامية فيها علم ناقص بلاعمل . فهذه الطريقة فيها عمل ناقص بلاعلم . والطريقة النبوية ، القرآنية السنية الجماعية فيها العلم والعمل كاملين" (١) .

---

(١) الفتاوى ٢/١٢،١٣ .

المبحث الثانى

التوازن فيهما

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : التوازن فى العلم .

المطلب الثانى : التوازن فى العمل .

المبحث الثانى

التوازن فيهما

ان التوازن فى العلم والعمل سمة هذا الدين الذى أنزله الله تعالى على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، والذى رضيه لعباده دينا . فتعاليم هذا الدين جارية على الطريق الوسط الأعدل الذى لاميل فيه ولاانحراف .

ومن ثم كانت تربية النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه مبنية على هذه السمة البارزة الأصيلة ، فكان يربى أصحابه على الاعتدال والتوازن ، وينهاهم عن الافراط والتفريط .

يقول الامام الشاطبى رحمه الله تعالى :

"الشريعة جارية فى التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الأعدل ، الآخذ من الطرفين بقسط لاميل فيه ، الداخل تحت كسب العبد من غير مشقة عليه ولاانحلال ، بل هو تكليف جار على موازنة تقتضى فى جميع المكلفين غاية الاعتدال ، كتكاليف الصلاة ، والصيام ، والحج ، والجهاد ، والزكاة ، وغير ذلك مما شرع ابتداء على غير سبب ظاهر اقتضى ذلك ، أو لسبب يرجع الى عدم العلم بطريق العمل ، كقوله تعالى : {ويسألونك ماذا ينفقون} (١) ، {يسألونك عن الخمر والميسر} (٢) وأشباه ذلك .

فان كان التشريع لأجل انحراف المكلف ، أو وجود مظنة انحرافه عن الوسط الى أحد الطرفين ، كان التشريع ردا الى

---

(١) سورة البقرة : آية ٢١٥
(٢) سورة البقرة : آية ٢١٩

الوسط الأعدل ، لكن على وجه يميل فيه الى الجانب الآخر ليحصل الاعتدال فيه ، فعل الطبيب الرفيق يحمل المريض على مافيه صلاحه بحسب حاله وعادته وقوة مرضه وضعفه ، حتى اذا استقلت صحته هيأ له طريقا فى التدبير وسطا لائقا به فى جميع أحواله " (١) .

---

(١) الموافقات للشاطبى ١٦٣/٢ .

المطلب الأول : التوازن فى العلم

ان التوازن فى العلم ومعرفة أحكام الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم من مميزات هذا الدين الكامل .

فالعلم مطلب شرعى لما بعده وهو التنفيذ العملى الواقعى الذى تظهر آثاره فى سلوك العالم والمتعلم .

وهذا هو المقصد الأول والمهم من طلب العلم والازدياد منه . ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يربى أصحابه على هذا المبدأ الكريم والمقصد العظيم ، فغرسه فى نفوسهم ، وأقنعهم بأن العلم لاقيمة له الا اذا تحول الى عمل وسلوك فى النفس وفى واقع الحياة ، ولذلك كان يكره صلى الله عليه وسلم منهم التنقيب والاستفسار عن الأمور التى لافائدة فيها والتى لاينبنى عليها عمل ، أو التى لم تقع .

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "دعونى ماتركتكم ، انما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فاذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه ، واذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم" (١) .

وهذا الحديث له مناسبة ، وهى ماذكره الامام مسلم فى صحيحه (٢) من رواية محمد بن زياد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "ياأيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا" ، فقال رجل : أكل عام يارسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثا ، فقال رسول الله

---

(١) رواه البخارى فى ٩٧ ـ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، ٢ ـ باب الاقتداء بسنن رسول الله ١٨٠/٨ رقم الحديث ٧٢٨٨ .

(٢) رواه مسلم فى ١٥ ـ كتاب الحج ، ٧٣ ـ باب فرض الحج مرة فى العمر ٩٧٥/٢ رقم الحديث ١٣٣٧ .

"لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم" . ثم قال : "ذروني ماتركتكم" الحديث .

فالنبي صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه أن يتركوه فلايسألوه عن شيء لم يأمرهم بفعله ، ولاعن شيء لم يأمرهم بالانتهاء عنه ، خوفا عليهم من أن ينزل ايجابه أو تحريمه بسبب سؤالهم عنه ، فيكون في ذلك اثم وحرج عليهم بكثرة سؤالهم لما فيه غالبا من التعنت وخشية أن يقع بسبب ذلك الاجابة بأمر يستثقل ، فقد يؤدي لترك الامتثال فيقع الأصحاب في المخالفة .

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "ان أعظم المسلمين في المسلمين جرما ، من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين ، فحرم عليهم من أجل مسألته" (١) .

قال ابن فرج : "معنى قوله : "ذروني ماتركتكم" لاتكثروا من الاستفصال عن المواضع التي تكون مفيدة لوجه ماظهر ، ولو كانت صالحة لغيره ، كما أن قوله "حجوا" وان كان صالحا للتكرار فينبغي أن يكتفي بما يصدق عليه اللفظ وهو المرة فان الأصل عدم الزيادة ، ولاتكثروا التنقيب عن ذلك لأنه قد يفضي الى مثل ماوقع لبني اسرائيل ، اذ أمروا أن يذبحوا البقرة ، فلو ذبحوا أي بقرة كانت لامتثلوا ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم . وبهذا تظهر مناسبة قوله صلى

---

(١) رواه مسلم في ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، ٣٧ ـ باب توقيره صلى الله عليه وسلم ، وترك اكثار سؤاله عما لاضرورة اليه أو لايتعلق به تكليف ومالايقع ونحو ذلك ١٨٣١/٤ رقم الحديث ٢٣٥٨ .
ورواه البخاري في ٩٧ ـ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ٣ ـ باب مايكره من كثرة السؤال وتكلف مالايعنيه ١٨٠/٨ رقم الحديث ٧٢٨٩ .

الله عليه وسلم : "فانما أهلك من كان قبلكم" الى آخره بقوله : "ذروني ماتركتكم"(١) .

والتوازن في الأسئلة هو جوازها اذا كانت على سبيل التعلم لما يحتاج اليه المكلف من أمر دينه ، أو ارادة التبين والتثبت في ماوصله من أحكام دينه الحنيف .

وأما ماعدا ذلك من التكلف فيها والتنقيب عن المسائل التي لاينبني عليها عمل ولافائدة من العلم بها ، فالشارع قد كره ذلك للمكلف وحذره من مغبتها وضياع الوقت فيها .

فالمسألة اذن على نوعين(٢) :

النوع الأول : ماكان على وجه التبين والايضاح وتعلم أحكام الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فيما يحتاجه المكلف في أمور دينه .

فهذا النوع جائز بل مأمور به شرعا وفاعله ممدوح .

قال الله تعالى : {فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون بالبينات والزبر}(٣) .

وقال سبحانه : {فان كنت في شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك ، لقد جاءك الحق من ربك فلاتكونن من الممترين}(٤) .

وقد سأل الصحابة رضوان الله عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مسائل كثيرة ، فأنزل الله تعالى بيانها في كتابه منها :

قول الله تعالى : {يسألونك عن الأهلة ، قل هي مواقيت للناس والحج}(٥) .

---

(١) فتح الباري ١٣/٢٦٠،٢٦١ .
(٢) انظر شرح السنة للامام البغوي ١/٣١٠-٣١١ .
(٣) سورة النحل : آية ٤٣-٤٤
(٤) سورة يونس : آية ٩٤
(٥) سورة البقرة : آية ١٨٩

وقولـه عـز وجـل : {ويسـئلونك عن المحيض ، قل هو أذى فـاعتزلوا النسـاء فـى المحيض ولاتقربـوهن حتى يطهرن فاذا تطهـرن فـأتوهن من حيث أمركم الله ، ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين} (١) .

وقـال عـز وجل : {يسئلونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرسـول فـاتقوا اللـه وأصلحـوا ذات بينكـم وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين} (٢) .

الى غير ذلك .

وعـن أم سلمة رضى الله عنها قالت : جاءت أم سليم الى رسـول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله ، ان الله لايستحى من الحق ، فهل على المرأة من غسل اذا احتلمت؟

قـال النبـى صلى الله عليه وسلم : "اذا رأت الماء" . فغطت أم سلمة تعنى وجهها ، وقـالت : يارسول الله ، أوتحتلم المرأة ؟ قال : "نعم تربت يمينك ، فبم يشبهها ولدها" (٣) .

فالـلـه تعالى لايأمر بالحياء فى الحق . ولذلك قدمت أم سليم رضـى الـلـه عنهـا قولها : "ان الله لايستحى من الحق" بسـطا لعذرهـا فى ذكر ماتستحى النساء من ذكره غالبا وخاصة بحضرة الرجال (٤) .

ففـى صنيـع أم سليم دلالة على اقتران العلم بالعمل فى حس الصحابـة والصحابيـات رضوان الله عليهم أجمعين ، فهم يسـئلون عـن العلـم ويتعلمونه من رسول الله صلى الله عليه وسـلم لكـى يطبقوه فى حياتهم ويتعبدوا الله به . ولذا فان

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٢٢
(٢) سورة الأنفال : آية ١
(٣) رواه البخارى فـى ٣ ـ كتاب العلم ، ٥١ ـ باب الحياء فى العلم ٤٧/١ رقم الحديث ١٣٠ .
(٤) انظر فتح البارى ٢٢٩/١ .

أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها امتدحت نساء الأنصار بقولها : "نعم النساء نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين" (١) .

وقال مجاهد : "لايتعلم العلم مستحى ولامستكبر" (٢) .

والحياء من الايمان ، وهو الشرعى الذى يقع على وجه الاجلال والاحترام للأكابر ، فهذا محمود ومثاب فاعله وهو من خصال الخير التى حث الاسلام على فعلها .

وأما الحياء الذى يقع سببا فى ترك أمر شرعى ، فهذا النوع من الحياء مذموم ولايعتبر حياء شرعيا . وهذا هو المراد بقول مجاهد رحمه الله تعالى . وكأنه أراد تحريض المتعلمين على ترك العجز والتكبر لما يؤثر كل منهما من النقص فى التعليم (٣) .

النوع الثاني : من الأسئلة ماكان على وجه التكلف ، فهو مكروه فى الشرع ، وسكوت صاحب الشرع عن الجواب فى مثل هذا زجر وردع للسائل ، واذا وقع الجواب كان عقوبة وتغليظا .

فهذا النوع كرهه النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضوان الله عليهم ونهاهم عنه .

عن أنس رضى الله عنه قال : "كنا عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : نهينا عن التكلف" (٤) .

---

(١)،(٢) رواه البخارى فى ٣ - كتاب العلم ، ٥١ - باب الحياء فى العلم ٤٧/١ .

(٣) انظر فتح البارى ٢٢٩/١ .

(٤) لأن قول الصحابى : "أمرنا ونهينا" له حكم المرفوع ولو لم يضفه الى النبى صلى الله عليه وسلم . انظر فتح البارى ٢٧٢/١٣ .

أى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهاهم عن التكلف (١) الذى هو الزام المكلف نفسه بشىء لايلزمه ولم يطلبه الشارع منه .

والمراد به فى هذا الحديث هو كثرة الأسئلة والبحث والتنقيب عن الأشياء الغامضة التى لايجب على المكلف البحث عنها ، وانما المطلوب منه شرعا هو الأخذ بما ظهر له من الأوامر والنواهى وقبول ماأتت به ، والاذعان لذلك (٢) .

ولهذا فان الصحابى الجليل عمر بن الخطاب رضى الله عنه طبق هذا المبدأ الهام على نفسه ، فانه عندما قرأ قول الله تعالى : {وفاكهة وأبا} قال : "هذه الفاكهة قد عرفناها . فما الأب ؟ ثم قال : مه نهينا عن التكلف" (٣) .

وهذا الأثر محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه والا فهو رضى الله عنه وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض لقول الله تعالى : {فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا} (٤) .

فعمر رضى الله عنه وقف عند تعليم النبى صلى الله عليه وسلم له ولأصحابه من عدم التكلف فيما لافائدة فيه .

وهذا يدل على أثر التربية النبوية التى حظى بها الصحابة رضوان الله عليهم من امامهم ومربيهم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم . حيث كان يحذرهم من الغلو والتعمق فى

---

(١) رواه البخارى فى ٩٧ ـ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، ٣ ـ باب مايكره من كثرة السؤال وتكلف مالايعنيه ١٨١/٨ رقم الأثر ٧٢٩٣ .

(٢) انظر جامع الأصول ٥٨/٥ .

(٣) رواه أبو نعيم فى المستخرج من طريق أبى مسلم الكجى عن سليمان بن حرب عن أنس بن مالك رضى الله عنه . انظر فتح البارى ٢٧١/١٣ .

(٤) الآيات من سورة عبس : ٢٨-٣١ . وانظر تفسير ابن كثير ٤٧٣/٤ .

المسائل التى لا أصل لها فى الكتاب ولافى السنة .

فقال صلى الله عليه وسلم : "هلك المتنطعون ، قالها ثلاثا " (١) .

والمتنطعون هم المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود فى أقوالهم وأفعالهم (٢) .

ففى هذا الحديث يربى النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه على التوازن والتوسط فى العلم والوقوف عند حدود شرع الله تعالى .

"فمن التنطع الاكثار من التفريع على مسألة لا أصل لها فى الكتاب ولا السنة ولا الاجماع ، وهى نادرة الوقوع جدا ، فيصرف فيها زمانا كان صرفه فى غيرها أولى ولاسيما ان لزم من ذلك اغفال التوسع فى بيان مايكثر وقوعه ، وأشد من ذلك فى كثرة السؤال ، البحث عن أمور مغيبة ورد الشرع بالايمان بها مع ترك كيفيتها ومنها مالايكون له شاهد فى عالم الحس ، كالسؤال عن وقت الساعة وعن الروح وعن مدة هذه الأمة الى أمثال ذلك مما لايعرف الا بالنقل الصرف .

والكثير منه لم يثبت فيه شىء فيجب الايمان به من غير بحث . وأشد من ذلك مايوقع فى كثرة البحث عنه فى الشك والحيرة ، ومثاله حديث أبى هريرة رضى الله عنه (٣) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لايزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله (٤) "" .

---

(١) رواه مسلم فى ٤٧ ـ كتاب العلم ، ٤ ـ باب هلك المتنطعون ٤/٢٠٥٥ رقم الحديث ٢٦٧٠ .
(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ٢٢٠/١٦ .
(٣) رواه البخارى فى ٩٧ ـ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، ٣ ـ باب مايكره من كثرة السؤال ومن تكلف مالايعنيه ١٨٢/٨ رقم الحديث ٧٢٩٦ .
(٤) فتح البارى ٢٦٧/١٣ بتصرف يسير .

ويؤيد ذلك ماقاله بعض سلف هذه الأمة رحمهم الله تعالى في ذم السؤال عما لافائدة فيه .

"قال الأوزاعي : "ان الله اذا أراد أن يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه المغاليط ـ وهي شداد المسائل ـ فلقد رأيتهم أقل الناس علما" .

وقال ابن وهب : سمعت مالكا يقول : "المراء في العلم يذهب بنور العلم من قلب الرجل" .

وقال ابن العربي : "كان النهي عن السؤال في العهد النبوي خشية أن ينزل مايشق عليهم ، فأما بعد فقد أمن ذلك لكن أكثر النقل عن السلف بكراهة الكلام في المسائل التي لم تقع" . قال : "وانه لمكروه ان لم يكن حراما الا للعلماء فانهم فرعوا ومهدوا فنفع الله من بعدهم بذلك ، ولاسيما مع ذهاب العلماء ودروس العلم" .

وفي الأحاديث اشارة الى الاشتغال بالأهم المحتاج اليه عاجلا عما لايحتاج اليه في الحال فكأنه قال : عليكم بفعل الأوامر واجتناب النواهي ، فاجعلوا اشتغالكم بها عوضا عن الاشتغال بالسؤال عما لم يقع . فينبغي للمسلم أن يبحث عما جاء عن الله ورسوله ثم يجتهد في تفهم ذلك والوقوف على المراد به . ثم يتشاغل بالعمل به ، فان كان من العلميات يتشاغل بتصديقه واعتقاد حقيقته ، وان كان من العمليات بذل وسعه في القيام به فعلا وتركا ، فان وجد وقتا زائدا على ذلك فلابأس بأن يصرفه في الاشتغال بتعرف حكم ماسيقع على قصد العمل به أن لو وقع ، فأما ان كانت الهمة مصروفة عند سماع الأمر والنهي الى فرض أمور قد تقع وقد لاتقع مع الاعراض عن القيام بمقتضى ماسمع فان هذا مما يدخل في النهي ، فالتفقه

في الدين انما يحمد اذا كان للعمل لاللمراء والجدل" (١) .

وكان صلى الله عليه وسلم ينهى أصحابه عن كثرة الأسئلة وكان لايجيبهم في مسألة الا اذا كانت قد وقعت بالفعل ، واذا سئل عن شيء لافائدة في معرفته أجابهم بماينفعهم .

وعن النواس بن سمعان قال : أقمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة بالمدينة مايمنعني من الهجرة الا المسألة . كان أحدنا ، اذا هاجر لم يسأل النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : فسألته عن البر والاثم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "البر حسن الخلق ، والاثم ماحاك في صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس" (٢) .

"وفيه اشارة الى أن المخاطب بالنهي عن السؤال غير الأعراب ، وفودا كانوا أو غيرهم ... وأما ماثبت في الأحاديث من أسئلة الصحابة ، فيحتمل أن يكون قبل نزول قوله تعالى : {ياأيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم} (٣) الآية ، ويحتمل أن النهي في الآية لايتناول مايحتاج اليه مما تقرر حكمه ، أو مالهم بمعرفته حاجة راهنة : كالسؤال عن الذبح بالقصب ، والسؤال عن وجوب طاعة الأمراء اذا أمروا بغير الطاعة ، والسؤال عن أحوال يوم القيامة وماقبلها من الملاحم والفتن ، والأسئلة التي في القرآن : كسؤالهم عن الكلالة والخمر والميسر والقتال في الشهر الحرام ، واليتامى والمحيض ، والنساء والصيد وغير ذلك ..." (٤) .

---

(١) فتح الباري ٢٦٤،٢٦٣/١٣ بتصرف .

(٢) أخرجه مسلم في ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، ٥ - باب تفسير البر والاثم ١٩٨٠/٤ رقم الحديث ٢٥٥٣ .

(٣) سورة المائدة : آية ١٠١

(٤) محاسن التأويل للقاسمي ٢١٧٣/٦-٢١٧٤ .

وورد فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "ان الله حرم عليكم عقوق الأمهات ، ووأد البنات ، ومنع وهات ، وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال ، واضاعة المال" (١) .

"فمن هذه الأحاديث يتبين لنا أن المعرفة فى الاسلام انما تطلب لمواجهة حاجة واقعية وفى حدود هذه الحاجة الواقعية .. فالأحكام الشرعية تطلب ويسأل عنها عند وقوع الأقضية التى تتطلب هذه الأحكام .. وهذا هو منهج الاسلام .

ففى طوال العهد المكى لم يتنزل حكم شرعى تنفيذى — وان تنزلت الأوامر والنواهى عن أشياء وأعمال — ولكن الأحكام التنفيذية كالحدود والتعازير والكفارات لم تتنزل الا بعد قيام الدولة المسلمة التى تتولى تنفيذ هذه الأحكام .

ووعى الصدر الأول هذا المنهج واتجاهه ، فلم يكونوا يفتون فى مسألة الا اذا كانت قد وقعت بالفعل ، وفى حدود القضية المعروضة دون تفصيص للنصوص ، ليكون للسؤال والفتوى جديتهما وتمشيهما كذلك مع ذلك المنهج التربوى الربانى" (٢) .

وقد عقد الامام الدارمى (٣) فى مسنده بابا أورد فيه عن جماعة من الصحابة والتابعين آثارا كثيرة منها :

(١) عن ابن عمر قال : لاتسأل عما لم يكن ، فانى سمعت عمر ابن الخطاب يلعن من سأل عما لم يكن .

(٢) وعن زيد بن ثابت ، أنه كان اذا سئل عن الأمر ؟ يقول : أكان هذا ؟ فان قالوا : نعم قد كان . حدث فيه بالذى

---

(١) أخرجه البخارى فى ٩٧ — كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ٣ — باب مايكره من كثرة السؤال وتكلف مالايعنيه ١٨١/٨ رقم الحديث ٧٢٩٢ .

(٢) فى ظلال القرآن ٩٨٧/٢ بتصرف .

(٣) أخرج هذه الآثار الدارمى فى المقدمة فى ١٨ ، باب كراهية الفتيا ٤٧/١-٤٨ .

يعلم والذى يرى ، وان قالوا : لم يكن ، قال : فذروه حتى يكون .

(٣) وسئل عمار بن ياسر عن مسألة فقال : هل كان هذا بعد ؟ قالوا : لا ، قال : دعونا حتى تكون فاذا كانت تجشمناها لكم .

(٤) وعن عمر بن الخطاب أنه قال وهو على المنبر : أحرج بالله على رجل سأل عما لم يكن . فان الله قد بين ماهو كائن .

(٥) وعن ابن عباس قال : مارأيت قوما كانوا خيرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ماكانوا يسألون الا عما ينفعهم .

(٦) وعن عمير بن اسحاق قال : لمن أدركت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر مما سبقنى منهم ، فما رأيت قوما أيسر سيرة ولاأقل تشديدا منهم .

(٧) وعن عبادة بن نسى الكندى (١) أنه قال : أدركت أقواما ماكانوا يشددون تشديدكم ولايسألون مسائلكم . انتهى

"قال بعض الأئمة : والتحقيق فى ذلك ، أن البحث عما لايوجد فيه نص ، على قسمين :

أحدهما : أن يبحث عن دخوله فى دلالة النص على اختلاف وجوهها ، فهذا مطلوب لامكروه . بل ربما كان فرضا على من تعين عليه من المجتهدين .

---

(١) هو عبادة بن نسى الكندى أبو عمر الشامى الأردنى قاضى طبرية .
روى عن أبى بن عمارة وله صحبة وشداد بن أوس وأبى الدرداء ، روى عنه مكحول الشامى وهشام بن الغاز ، روى له الأربعة . وقال الحافظ فى التقريب ثقة فاضل .
تهذيب الكمال ١٤/١٩٤ .

ثانيهما : أن يدقق النظر في وجوه الفروق ، فيفرق بين متماثلين بفرق ليس له أثر في الشرع مع وجود وصف الجمع ، أو بالعكس بأن يجمع بين متفرقين بوصف طردي مثلا . فهذا الذي ذمه السلف ، فرأوا أن فيه تضييع الزمان بما لاطائل تحته . ومثله الاكثار من التفريع على مسألة لا أصل لها في الكتاب ولا السنة ولا الاجماع ، وهي نادرة الوقوع جدا ، فيصرف فيها زمانا كان صرفه في غيرها أولى ، ولاسيما ان لزم من ذلك اغفال التوسع في بيان مايكثر وقوعه . وأشد من ذلك - في كثرة السؤال - البحث عن أمور مغيبة ورد الشرع بالايمان بها مع ترك كيفيتها . ومنها مالايكون له شاهد في عالم الحس ، كالسؤال عن وقت الساعة وعن الروح وعن مدة هذه الأمة .. الى أمثال ذلك مما لايعرف الا بالنقل الصرف . والكثير منه لم يثبت فيه شيء ، فيجب الايمان به من غير بحث وأشد من ذلك مايوقع كثرة البحث عنه في الشك والحيرة .

واذا تقرر ذلك فمن يسد باب المسائل حتى فاته معرفة كثير من الأحكام التي يكثر وقوعها فانه يقل فهمه وعلمه .

ومن توسع في تفريع المسائل وتوليدها ، ولاسيما فيما يقل وقوعه أو يندر . ولاسيما ان كان الحامل على ذلك المباهاة والمغالبة ، فانه يذم فعله وهو عين الذي كرهه السلف .

ومن أمعن في البحث عن معاني كتاب الله ، محافظا على ماجاء في تفسيره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه الذين شاهدوا التنزيل ، وحصل من الأحكام مايستفاد من منطوقه ومفهومه ، وعن معاني السنة ومادلت عليه كذلك

مقتصرا على مايصلح للحجة منها فانه الذى يحمد وينتفع به ".(١)

قال الامام الشاطبى رحمه الله تعالى :

"والحاصل أن كثرة السؤال ومتابعة المسائل بالأبحاث العقلية والاحتمالات النظرية مذموم ، وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وعظوا فى كثرة السؤال حتى امتنعوا منه . وكانوا يحبون أن يجىء الأعراب فيسألون حتى يسمعوا كلامه ويحفظوا منه العلم ... ثم قال : ويتبين من هذا أن لكراهية السؤال مواضع ، نذكر منها عشرة مواضع :

أحدها : السؤال عما لاينفع فى الدين ، كسؤال عبد الله (٢) ابن حذافة : من أبى ؟

وروى فى (التفسير) أنه عليه السلام سئل : مابال الهلال يبدو رقيقا كالخيط ثم لايزال ينمو حتى يصير بدرا ثم ينقص كما كان ؟ فأنزل الله : {يسألونك عن الأهلة ...} الآية (٣) ، فانما أجيب بما فيه من منافع الدين .

وثانيها : أن يسأل بعد مابلغ من العلم حاجته ، كما سأل الرجل عن الحج : أكل عام ؟ (٤) مع أن قوله تعالى : {ولله على الناس حج البيت} (٥) قاض بظاهره أنه للأبد ، لاطلاقه . ومثله

---

(١) فتح البارى ٢٦٧/١٣-٢٦٨ بتصرف يسير .
(٢) أخرجه البخارى فى ٣ ـ كتاب العلم ، ٣٩ ـ باب من برك على ركبتيه عند الامام أو المحدث ٣٧/١ حديث رقم ٩٣ عن أنس بن مالك .
(٣) سورة البقرة : آية ١٨٩ ونصها : {يسألونك عن الأهلة ، قل هى مواقيت للناس والحج ، وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها ، واتقوا الله لعلكم تفلحون} .
(٤) سبق تخريجه ص ٢٥١ .
(٥) سورة آل عمران : آية ٩٧ ونصها : {فيه آيات بينات مقام ابراهيم ، ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ، ومن كفر فان الله غنى عن العالمين} .

سؤال بني اسرائيل بعد قوله : {إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة} (١) .

وثالثها : السؤال من غير احتياج اليه في الوقت ، وكأن هذا - والله أعلم - خاصاً بما لم ينزل فيه حكم ، وعليه يدل قوله : "ذروني ماتركتكم" (٢) . وقوله : وسكت عن أشياء رحمة بكم لاعن نسيان ، فلاتبحثوا عنها .

ورابعها : أن يسأل عن صعاب المسائل وشرارها ، كما جاء في النهي عن الأغلوطات (٣) .

وخامسها : أن يسأل عن علة الحكم - وهو من قبيل التعبدات ، أو السائل ممن لايليق به ذلك السؤال - كما في حديث قضاء الصوم دون الصلاة (٤) .

وسادسها : أن يبلغ بالسؤال الى حد التكلف والتعمق ، وعلى ذلك يدل قوله تعالى : {قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين} (٥) ، ولما سئل الرجل : ياصاحب الحوض هل ترد حوضك السباع ؟ قال عمر بن الخطاب : ياصاحب الحوض

---

(١) سورة البقرة : آية ٦٧ ، ونصها : {واذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ، قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين} .

(٢) سبق تخريجه ص ٢٥١ .

(٣) أخرجه أبو داود في ٢٤ ، كتاب العلم ، ٨ باب التوقي في الفتيا ، حديث ٣٦٥٦ ، ونصه : عن معاوية أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الغلوطات .
(الغلوطات) : بفتح الغين المعجمة وضم اللام - هي المسائل التي يغالط بها العلماء ليزلوا فيها فيهيج بذلك شر وفتنة . وهي جمع غلوطة - بالفتح - ثم قيل : هي مثل حلوبة وركوبه ، اذا جعلا اسمين . وقيل : أصلها أغلوطة ، خففت بطرح الهمزة كما تقول : لحمر ، وأنت تريد (الأحمر) . اهـ محمد محيي الدين عبد الحميد . هامش سنن أبي داود .

(٤) أخرجه مسلم في ٣ - كتاب الحيض ، حديث ٦٩ ونصه : "عن معاذة قالت : سألت عائشة فقلت : مابال الحائض تقضي الصوم ولاتقضي الصلاة ؟ فقالت : أحرورية أنت ؟ قلت : لست بحرورية ، ولكني أسأل . قالت : كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولانؤمر بقضاء الصلاة ١/٢٦٥ .

(٥) سورة ص : آية ٨٦

لاتخبرنا ، فانا نرد على السباع وترد علينا .(١)

وسابعها : أن يظهر من السؤال معارضة الكتاب والسنة بالرأى ، ولذلك قال سعيد : أعراقى أنت ؟ وقيل لمالك بن أنس : الرجل يكون عالما بالسنة أيجادل عنها ؟ قال : لا . ولكن يخبر بالسنة . فان قبلت منه ، والا سكت .

وثامنها : السؤال عن المتشابهات ، وعلى ذلك يدل قوله تعالى : {فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه}(٢) الآية . وعن عمر بن عبد العزيز : من جعل دينه غرضا للخصومات أسرع التنقل . ومن ذلك سؤال من سأل مالكا عن(٣) الاستواء ؟ فقال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة .

وتاسعها : السؤال عما شجر بين السلف الصالح . وقد سئل عمر بن عبد العزيز عن قتال أهل صفين ؟ فقال : تلك

---

(١) أخرجه الامام مالك فى الموطأ فى ٢ ، كتاب الطهارة ، حديث ١٤ طبعة الشيخ محمد فؤاد عبد الباقى .
ونصه : عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب أن عمر بن الخطاب خرج فى ركب ، فيهم عمرو بن العاص ، حتى وردوا حوضا ، فقال عمرو بن العاص : ياصاحب الحوض ، هل ترد حوضك السباع ؟ فقال عمر بن الخطاب : ياصاحب الحوض لاتخبرنا ، فانا نرد على السباع وترد علينا .

(٢) سورة آل عمران : آية ٧

(٣) جاء فى كتاب (العلو) للذهبى مايأتى : وروى يحيى بن يحيى التميمى وجعفر بن عبد الله وطائفة قالوا : جاء رجل الى مالك فقال : ياأبا عبد الله {الرحمن على العرش استوى} كيف استوى ؟ قال : فما رأيت مالكا وجد (أى غضب) فى شىء كموجدته من مقالته . وعلاه الرخصاء (يعنى العرق) وأطرق القوم ، فسرى عن مالك وقال : الكيف غير معقول ، والاستواء منه غير مجهول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وانى أخاف أن تكون ضالا وأمر به فأخرج .
وساق البيهقى باسناد صحيح عن أبى الربيع الرشدينى عن ابن وهب قال : كنت عند مالك فدخل رجل فقال : ياأبا عبد الله {الرحمن على العرش استوى} كيف استوى ؟ فأطرق مالك وأخذته الرخصاء . ثم رفع رأسه فقال : الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه ، ولايقال : كيف وكيف عنه مرفوع . وأنت صاحب بدعة ، أخرجوه . انتهى من كلام الذهبى .

دماء كف الله عنها يدي ، فلا أحب أن ألطخ بها لساني .

وعاشرها : سؤال التعنت والافحام وطلب الغلبة في الخصام . وفي القرآن في ذم نحو هذا : {ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على مافي قلبه وهو ألد الخصام} (١) . وقال تعالى : {بل هم قوم خصمون} (٢) .

وفي الحديث : "أبغض الرجال الى الله الألد الخصم" (٣) .

هذه جملة من المواضع التي يكره السؤال فيها ، يقاس عليها ماسواها ، وليس النهي فيها واحدا ، بل فيها ماتشتد كراهيته ومنها مايخف ، ومنها مايحرم ، ومنهامايكون محل اجتهاد . وعلى جملة منها يقع النهي عن الجدال في الدين كما جاء : ان المراء في القرآن كفر . وقال تعالى : {واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره} (٤) . وأشباه ذلك من الآى والأحاديث . فالسؤال في مثل ذلك منهي عنه ، والجواب بحسبه " (٥) . انتهى

هكذا ربى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه على هذا المنهج الرباني القويم .

"ذلك المنهج الواقعي الجاد ، الذي يواجه وقائع الحياة بالأحكام المشتقة لها من أصول شريعة الله تعالى . مواجهة عملية واقعية متزنة .. مواجهة تقدر المشكلة بحجمها وشكلها وظروفها كاملة ، وملابساتها . ثم تقضي فيها بالحكم

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٠٤
(٢) سورة الزخرف : آية ٥٨
(٣) أخرجه البخاري في ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ٣٧ باب وهو ألد الخصام ، حديث رقم ١٢١١ عن عائشة ١٨٧/٥ .
(٤) سورة الأنعام : آية ٦٨
(٥) الموافقات للشاطبي ٣١٧/٤، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١ .

الذى يقابلها ويغطيها ويشملها وينطبق عليها انطباقا كاملا دقيقا .

فأما الاستفتاء عن مسألة لم تقع ، فهو استفتاء عن فرض غير محدد . ومادام غير واقع فان تحديده غير مستطاع . والفتوى عليه حينئذ لاتطابقه لأنه فرض غير محدد . والسؤال والجواب عندئذ يحملان معنى الاستهتار بجدية الشريعة ، كما يحملان مخالفة للمنهج الاسلامى القويم" (١) .

فمن هذه التربية المتوازنة فى العلم الذى حظى به الصحابة رضوان الله عليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم أصبحوا علماء ربانيين ، فكانوا قدوة لمن بعدهم ممن أراد السير على الطريق الذى ساروا عليه ، والاستقاء من ذلك النبع الصافى الزلال الذى استقوا منه ، ولم يخلطوه بشىء من المناهج الفلسفية والمناهج الكفرية الحديثة .

فكانوا أمة وسطا فى علمهم بل وفى جميع شئون حياتهم فكانوا بحق وسطا فى الفرق كلها .

"فهم فى باب أسماء الله تعالى وآياته وصفاته ، وسط بين أهل التعطيل الذين يلحدون فى أسماء الله وآياته ، ويعطلون حقائق مانعت الله به نفسه حتى يشبهوه بالعدم والموات . وبين أهل التمثيل الذين يضربون له الأمثال ويشبهونه بالمخلوقات فيؤمن أهل السنة والجماعة بما وصف الله به نفسه ، وماوصفه رسوله صلى الله عليه وسلم ، من غير تحريف ولاتعطيل ، ومن غير تكييف ولاتمثيل .

---

(١) فى ظلال القرآن ٢/٩٨٧،٩٨٨ بتصرف يسير .

وهم في باب خلقه وأمره وسط بين المكذبين بقدرة الله الذين لايؤمنون بقدرته الكاملة ومشيئته الشاملة وخلقه لكل شيء ، وبين المفسدين لدين الله ، الذين يجعلون العبد ليس له مشيئة ولاقدرة ولاعمل فيعطلون الأمر والنهي والثواب والعقاب فيصيرون بمنزلة المشركين الذين قالوا : {لو شاء الله ماأشركنا ولاآباؤنا ولاحرمنا من شيء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون} (١) ، فيؤمن أهل السنة بأن الله على كل شيء قدير . فيقدر أن يهدي العباد ويقلب قلوبهم ، وانه ماشاء الله كان ، ومالم يشأ لم يكن ، فلايكون في ملكه مالايريد ولايعجز عن انفاذ مراده ، وانه خالق كل شيء من الأعيان والصفات والحركات ، ويؤمنون أن العبد له قدرة ومشيئة وعمل ، وأنه مختار ولايسمونه مجبورا اذ المجبور من أكره على خلاف اختياره ، والله سبحانه جعل العبد مختارا لما يفعله ، فهو مختار مريد ، والله خالقه وخالق اختياره ، وهذا ليس له نظير .

فان الله ليس كمثله شيء لافي ذاته ولافي صفاته ولافي أفعاله .

وهم في باب الأسماء والأحكام والوعد والوعيد ، وسط بين الوعيدية الذين يجعلون أهل الكبائر من المسلمين مخلدين في النار ، ويخرجونهم من الايمان بالكلية ، ويكذبون بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم وبين المرجئة الذين يقولون :

---

(١) سورة الأنعام : آية ١٤٨

ايمان الفساق مثل ايمان الأنبياء ، والأعمال الصالحة ليست من الدين والايمان ، ويكذبون بالوعيد والعقاب بالكلية .

فيؤمن أهل السنة والجماعة بأن فساق المسلمين معهم بعض الايمان وأصله ، وليس معهم جميع الايمان الواجب الذى يستوجبون به الجنة ، وأنهم لايخلدون فى النار ، بل يخرج من كان فى قلبه مثقال حبة من ايمان ، أو مثقال خردلة من ايمان . وأن النبى صلى الله عليه وسلم ادخر شفاعته لأهل الكبائر من أمته ، وهم أيضا فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم ، وسط بين الغالية الذين يغالون فى على رضى الله عنه فيفضلونه على أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ويعتقدون أنه الامام المعصوم دونهما ، وأن الصحابة ظلموا وفسقوا ، وكفروا الأمة بعدهم كذلك ، وربما جعلوه نبيا أو الها .

وبين الجافية الذين يعتقدون كفره وكفر عثمان رضى الله عنهما ، ويستحلون دماء من تولاهما ، ويستحبون سب على وعثمان ونحوهما ، ويقدحون فى خلافة على رضى الله عنه وامامته .

وكذلك فى سائر أبواب السنة هم وسط ، لأنهم متمسكون بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وما اتفق عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان" (١) رضى الله عن الجميع ورزقنا الاقتفاء بآثارهم والسير على نهجهم انه على كل شىء قدير .

---

(١) فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ٣/٣٧٣-٣٧٥ .

المطلب الثانى : التوازن فى العمل

ان التوازن فى العمل سمة بارزة أيضا من سمات هذا الدين القويم ، ولذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يراعى هذا الجانب فى تربيته لأصحابه رضوان الله عليهم ، فكان يحثهم على التوسط فى العمل ويحذرهم من الافراط فيه المؤدى الى التقصير المخل أو الى الترك بالكلية .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

"ان لكل شىء شرة ، ولكل شرة فترة ، فان صاحبها سدد وقارب فارجوه ، وان أشير اليه بالأصابع فلاتعدوه" (١) .

ففى هذا الحديث يضع النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه قاعدة مهمة فى التوازن فى العمل المجانب لجانبى الافراط والتفريط ، فقد صور لهم فى هذا الحديث همة المكلف وحرصه الشديد على الخير أو الشر ، ثم يكون بعد ذلك فتور وضعف وسكون ، فان سلك المكلف صاحب تلك الهمة والحرص الشديد فى عمله ذاك التوسط والسداد وسلك الطريق المستقيم واقتصد فى أموره ، وتجنب طرفى افراط الهمة والحرص وتفريط الفتور والوهن فقد أفلح وعندئذ فارجوا له التوفيق والسداد الذى به يتمكن من المداومة على الوسط ، لأن أحب الأعمال الى الله أدومها (٢) .

---

(١) سنن الترمذى ٦٣٥/٤ ، رقم الحديث ٢٥٧٠ . وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه ، وقال الشيخ عبد القادر الأرناؤوط : "اسناده حسن وصححه ابن حبان رقم ١٥١٨ ، وأخرجه أيضا من حديث عبد الله بن عمر" . انظر جامع الأصول لابن الأثير ٣١٤/١ ، الطبعة الثانية ، دار الفكر ، بيروت .

(٢) انظر تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ١٤٩/٧ .

قال الطيبي : "فان قوله : "ان لكل شيء شرة ... الخ" معناه : أن لكل شيء من الأعمال الظاهرة ، والأخلاق الباطنة طرفين افراطا وتفريطا ، فالمحمود هو القصد بينهما ، فان رأيتم أحدا يسلك سبيل القصد فارجوه أن يكون من الفائزين ولاتقطعوا له ، فان الله هو الذي يتولى السرائر ، وان رأيتموه يسلك سبيل الافراط والغلو حتى يشار اليه بالأصابع فلاتثبتوا القول فيه بأنه من الخائبين ، فان الله هو الذي يطلع على الضمائر" (١) .

فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يربي أصحابه على القصد في العبادة وملازمتها والمداومة عليها والوقوف عند حدود شرع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم من عزيمة أو رخصة دون النظر الى مشقتها أو عدمه .

وأن ذلك أولى وأقسط عند الله تعالى من المبالغة فيها المفضية الى الاخلال فيها أو تركها .

عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أمرهم ، أمرهم من الأعمال بما يطيقون ، قالوا : انا لسنا كهيئتك يارسول الله . ان الله قد غفر لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر ، فيغضب حتى يعرف في وجهه صلى الله عليه وسلم ، ثم يقول : "ان أتقاكم وأعلمكم بالله أنا" (٢) .

ففي هذا الحديث يغضب النبي صلى الله عليه وسلم من قياس الصحابة الخاطيء ، وبين لهم أن العبرة في الأعمال

---

(١) جامع الأصول لابن الأثير ٣١٤/١ .
(٢) رواه البخاري في ٢ - كتاب الايمان ، ١٣ - باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : "أنا أعلمكم بالله" ، وأن المعرفة فعل القلب ١٢/١ رقم الحديث ٢٠ .

ليست بكثرتها ومشقتها على النفس . وانما العبرة تكمن فى موافقة الأعمال لشرع الله تعالى والمداومة عليها وتأديتها بنشاط واقبال خاشع على الله تعالى .

"فان الأخذ بالأرفق الموافق للشرع أولى من الأشق" (١) .

ولذلك كان صلى الله عليه وسلم اذا أمر أصحابه بعمل أمرهم بعمل يسهل عليهم فعله ، ويستطيعون المداومة عليه .

وكان صلى الله عليه وسلم يعمل بنظير مايأمرهم به ويربيهم عليه . عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، أن نفرا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم سألوا أزواج النبى صلى الله عليه وسلم عن عمله فى السر ؟ فقال بعضهم : لاأتزوج النساء ، وقال بعضهم : لاآكل اللحم ، وقال بعضهم : لاأنام على فراش . فحمد الله وأثنى عليه فقال : "مابال أقوام قالوا كذا وكذا ؟ لكنى أصلى وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتى فليس منى" (٢) .

فهذا فعله صلى الله عليه وسلم وهذه سنته وهو الذى قد حاز رتبة الكمال الانسانى وذلك لانحصار الحكمتين العلمية والعملية فيه ، والتى أشار الى الأولى بقوله : "أعلمكم" ، والى الثانية : "أتقاكم" (٣) .

وكان صلى الله عليه وسلم يتابع أصحابه فى الحث على الاتزان والتوسط والمداومة على الأعمال الصالحة دون طلب المشقة والعنت فى ذلك .

---

(١) فتح البارى ٧١/١ .
(٢) رواه مسلم فى ١٦ - كتاب النكاح ، ١ - باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه اليه ووجد مؤنة ، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم ١٠٢٠/٢ رقم الحديث ١٤٠١ .
(٣) انظر فتح البارى ٧١/١ .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : "دخل النبى صلى الله عليه وسلم المسجد فاذا حبل ممدود بين الساريتين ، فقال : ماهذا الحبل ؟ قالوا : هذا حبل لزينب ، فاذا فترت تعلقت به . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : حلوه ليصل أحدكم نشاطه ، فاذا فتر فليرقد" (١) .

ففى هذا الحديث تظهر ملاحظة النبى صلى الله عليه وسلم ومتابعته لأصحابه رضوان الله عليهم .

فهاهو يدخل المسجد ويلفت نظره ذلك الحبل الممدود بين ساريتين من سوارى المسجد ، فيسأل أصحابه عن ذلك الحبل فيخبروفه بأنه لزينب رضى الله عنها ، وأنها اذا كسلت عن القيام فى صلاة التطوع تعلقت به .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم موجها الخطاب لأصحابه "حلوه ليصل أحدكم نشاطه ، فاذا فتر فليرقد" .

وفى هذا تربية منه صلى الله عليه وسلم لأصحابه على الاقتصاد فى العبادة والاقبال عليها بنشاط ، وحثهم على المداومة على مايطيقون من الأعمال بلامشقة ولاعنت لأن هذا الدين يسر ، فعليهم بأن يسددوا ويقاربوا .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ياعبد الله ، لاتكن مثل فلان كان يقوم من الليل فترك قيام الليل" (٢) .

---

(١) رواه البخارى فى ١٩ ـ كتاب التهجد ، ١٨ ـ باب مايكره من التشديد فى العبادة ٦٠/٢ رقم الحديث ١١٥٠ .

(٢) رواه البخارى فى ١٩ ـ كتاب التهجد ، ١٩ ـ باب مايكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه ٦١/٢ رقم الحديث ١١٥٢ .

ورواه مسلم فى ١٣ ـ كتاب الصيام ، ٣٥ ـ باب النهى عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقا أو لم يفطر العيدين والتشريق وبيان تفضيل صوم يوم وافطار يوم ٨١٤/٢ رقم الحديث ١١٥٩ .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أيضا قال : قال لى النبى صلى الله عليه وسلم : "ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار ؟ قلت : انى أفعل ذلك . قال : فانك اذا فعلت ذلك هجمت عينك ، ونفهت نفسك ، وان لنفسك عليك حقا ، ولأهلك حقا ، فصم وأفطر ، وقم ونم" (١) .

ففى هذين الحديثين تظهر تربية النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه على التوازن فى جميع شئون حياتهم .

فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض بعبد الله ابن عمرو بن العاص عندما سمع أنه ترك قيام الليل بقوله الذى يحثه فيه على قيام الليل : "ياعبد الله لاتكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل" فينهاه عن التفريط والكسل والفتور فيتأثر عبد الله بن عمرو من هذا التوجيه التربوى اللطيف فيعزم على نفسه . فيداوم على قيام الليل وصيام النهار ويشد على نفسه فلايعطيها حقها من الراحة والنوم والأكل والشرب الذى به قوامها ونشاطها .

فيصل الخبر الى المربى الحاذق صلى الله عليه وسلم ، فيتثبت من صحة الخبر بسؤاله مباشرة عبد الله بن عمرو ، فيخبره بذلك ، فعندها لامه صلى الله عليه وسلم على فعله ، ثم وجهه الى الاتزان والاقتصاد فى العبادة واعطاء كل ذى حق حقه وأن لايطغى حق على الآخر ، أو يتفخم أحدهما على الآخر . "لأن الأولى فى العبادة تقديم الواجبات على المندوبات ، وأن من تكلف الزيادة على ماطبع عليه يقع فى الخلل فى الغالب" (٢)

---

(١) رواه البخارى فى ١٩ ـ كتاب التهجد ، ٢٠ ـ باب ٦١/٢ رقم الحديث ١١٥٣ .
ورواه مسلم فى ١٣ ـ كتاب الصيام ، ٣٥ ـ باب النهى عن صوم الدهر لمن تضرر به ٨١٥/٢ رقم الحديث ١١٥٩ .

(٢) فتح البارى ٣٩/٣ بتصرف يسير .

فأخبر صلى الله عليه وسلم أن لنفسه عليه حقا وذلك باعطائها ماتحتاج اليه مما أباحه الله تعالى من أكل وشرب وراحة تكون عونا له على عبادة الله تعالى وأداء فرائضه .

وللأهل من زوجة وممن تلزمه نفقته عليه حقا كذلك بالنظر في شئونهم وقضاء مايحتاجون اليه من أمور الدنيا والآخرة ثم أمره بالاعتدال والاقتصاد في النوافل فأمره بأن يصوم بعض الأيام ويفطر بعضها ، فيتقوى بالثانية على الأولى وأن يقوم من الليل وينام بعضه كذلك .

فأمره صلى الله عليه وسلم بالجمع بين الحقوق التي بينهما له "فكأنه قال له ولايمنعك اشتغالك بحقوق من ذكر أن تضيع حق العبادة وتترك المندوب جملة ، ولكن اجمع بينهما" (١).

وبهذا وضع النبي صلى الله عليه وسلم الميزان المعتدل في العمل لمن أراد أن يسلكه ، فعلى الداعية الى الله تعالى الاستفادة من هذا المنهج النبوي الكريم في التربية والتعليم .

عن حنظلة رضي الله عنه قال : لقيني أبو بكر . فقال : كيف أنت ياحنظلة ؟ قال قلت : نافق حنظلة . قال : سبحان الله ، ماتقول ؟ قال قلت : نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . يذكرنا بالنار والجنة ، حتى كأنا رأي عين ، فاذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ، فنسينا كثيرا . قال أبو بكر : فوالله انا لنلقى مثل هذا . فانطلقت أنا وأبو بكر ، حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت : نافق

---

(١) فتح الباري ٣/٣٩ بتصرف يسير .

حنظلة يارسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وماذاك ؟" قلت : يارسول الله نكون عندك ، تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأى عين ، فاذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ،فنسينا كثيرا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "والذى نفسى بيده ، ان لو تدومون على ماتكونون عندى ، وفى الذكر ، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم ، ولكن ياحنظلة ساعة وساعة " (١) .

ففى هذا الحديث يصور حنظلة رضى الله عنه احساسه ومشاعره وزيادة ايمانه وتعلقه بالآخرة عندما يكون فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند مصاحبته له . وضعف ذلك عندما ينشغل بأمر المعاش ومداعبة الزوجة وملاعبة الأولاد . فظن رضى الله عنه هذا التغير بين الحالتين دليلا على النفاق فخشى على نفسه منه ، فأخبر صديقه الحميم أبا بكر الصديق باحساسه ، فتوافق الصاحبان فى الاحساس والشعور وخافا على نفسيهما من أثره ، فهرعا الى مربيهم ومعلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبراه بالخبر .

فوضح لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم أن هذا الشعور والاحساس طبيعى فى البشر ، وأن الله فطرهم عليه ، وأنه ليس دليلا على النفاق .

وأعلمهم أنه لاحرج عليهم فيما يفعلونه من مداعبة الزوجات وملاعبة الأولاد والقيام على شئونهم والسعى فى

---

(١) رواه مسلم فى ٤٩ ـ كتاب التوبة ، ٣ ـ باب فضل دوام الذكر والفكر فى أمور الآخرة والمراقبة ، وجواز ترك ذلك فى بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا ٢١٠٦/٤ رقم الحديث ٢٧٥٠ .

النفقة عليهم وأنهم مأجورون عليه من الله تعالى ، مادام أنه لايفوت عليهم شيئا مما أوجبه الله تعالى . وأنه لاتعارض عندئذ بين الحالتين .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لن ينجي أحدا منكم عمله" . قالوا : ولاأنت يارسول الله ؟ قال : "ولاأنا ، الا أن يتغمدني الله برحمته ، سددوا وقاربوا ، واغدوا وروحوا ، وشيء من الدلجة والقصد القصد تبلغوا" (١) .

وعن علي رضي الله عنه قال : كنا في جنازة في بقيع الغرقد ، فأتانا النبي صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله ، ومعه مخصرة ، فنكس ، فجعل ينكت بمخصرته ، ثم قال : "مامنكم من أحد ، مامن نفس منفوسة الا كتب مكانها في الجنة والنار ، والا قد كتب شقية أو سعيدة" ، فقال رجل : يارسول الله أفلا نتكل على كتابنا ، وندع العمل ؟ فمن كان منا من أهل الشقاوة فسيصير الى عمل أهل الشقاوة . قال : "أما أهل السعادة فييسرون لعمل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل الشقاوة ، ثم قرأ {فأما من أعطى واتقى} الآية" (٢) .

---

(١) رواه البخاري في ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ١٨ ـ باب القصد والمداومة على العمل ٢٣٢/٧ رقم الحديث ٦٤٦٣ .
وأخرجه مسلم في ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، ١٧ ـ باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ٢١٦٩/٤ رقم الحديث ٢٨١٦ .
(اغدوا) من الغدو وهو السير أول النهار . (روحوا) من الرواح وهو السير في النصف الثاني من النهار . (الدلجة) السير آخر الليل . (القصد) الزموا الوسط المعتدل في الأمور . (تبلغوا) مقصدكم وبغيتكم . انظر فتح الباري ٢٩٧/١١، ٢٩٨ .

(٢) رواه البخاري في ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٨٢ ـ باب موعظة المحدث عند القبر وقعود أصحابه حوله ١٢١/٢ رقم الحديث ١٣٦٢ .
ورواه مسلم في ٤٦ ـ كتاب القدر ، ١ ـ باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه ٢٠٣٩/٤ رقم الحديث ٢٦٤٧ .

ففي هذين الحديثين يربي النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه على التوازن في العلم بالقدر والعمل بالتكاليف الشرعية ، وأنه لابد من الجمع بين الايمان بالقدر والعمل بالتكاليف على الصورة الشرعية الصحيحة التي أمر الله بها عباده .

فليس للمسلم أن يتكل على القدر ويدع العمل الذي أمره الله به ، لأن القدر أمر غيبي عن الانسان ولايمكن الاحاطة به وفي المقابل لايجوز للمسلم أن يتكل على عمله ويغفل عن رحمة الله تعالى ، لأن الانسان لايمكن أن يؤدي حق الله تعالى على الوجه المطلوب لأن من طبيعته التقصير ، كما قال تعالى :
{كلا لما يقض ما أمره} (١) .

"ففي الحديث أن النفس المخلوقة اما سعيدة واما شقية ولايقال : اذا وجبت الشقاوة والسعادة بالقضاء الأزلي والقدر الالهي فلافائدة في التكليف ، فان هذا أعظم شبه النافين للقدر وقد أجابهم الشارع بما لايبقى معه اشكال ، ووجه الانفصال أن الرب تعالى أمرنا بالعمل فلابد من امتثاله ، وغيب عنا المقادير لقيام حجته وزجره ونصب الأعمال علامة على ماسبق في مشيئته ، فسبيله التوقف فمن عدل عنه ضل ، لأن القدر سر من أسراره لايطلع عليه الا هو" (٢) . انتهى

وقال الحافظ ابن حجر : "الفاء معقبة لشيء محذوف ، تقديره : فاذا كان كذلك أفلانتكل ، وحاصل السؤال : ألا نترك مشقة العمل فانا سنصير الى ماقدر علينا ، وحاصل الجواب :

---

(١) سورة عبس : آية ٢٣
(٢) لامع الدراري على جامع البخاري ٤/٤٦٥ للشيخ أبو مسعود رشيد أحمد الكنكوهي ، المكتبة الامدادية .

لامشقة لأن كل أحد ميسر لما خلق له وهو يسير على من يسره الله ، قال الطيبى : الجواب من أسلوب الحكيم منعهم عن ترك العمل وأمرهم بالتزام مايجب على العبد من العبودية وزجرهم عن التصرف فى الأمور المغيبة ، فلايجعل العبادة وتركها سببا مستقلا لدخول الجنة والنار ، بل هى علامات فقط ، ووقع فى حديث ابن عباس عند الطبرانى : "اعمل فكل ميسر" وفى آخره عند البزار : فقال القوم بعضهم لبعض : فالجد اذا ؟ وأخرجه الطبرانى فى آخر حديث سراقة قال : "كل ميسر لعمله" قال : الآن الجد ، الآن الجد ، وفى آخر حديث ابن عمر عند الفريابى قال عمر : اذا نجتهد" . انتهى (١)

وقال الحافظ ابن حجر فى الجمع بين هذا الحديث وقوله تعالى : {وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون} (٢) ، وقوله تعالى : {سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون} (٣) : "ويظهر لى فى الجمع بين الآية والحديث أن يحمل الحديث على أن العمل من حيث هوعمل لايستفيد به العامل دخول الجنة مالم يكن مقبولا . واذا كان كذلك فأمر القبول الى الله تعالى ، وانما يحصل برحمة الله لمن يقبل منه ، وعلى هذا فمعنى قوله : {ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون} أى تعملونه من العمل المقبول ، ولايضر بعد هذا أن تكون "الباء" للمصاحبة أو للالصاق أو المقابلة ، ولايلزم من ذلك أن تكون سببية ، ثم رأيت النووى جزم بأن ظاهر الآيات أن دخول الجنة بسبب الأعمال ، والجمع بينها وبين الحديث أن التوفيق

---

(١) لامع الدرارى على جامع البخارى ٤٦٤/٤ .
(٢) سورة الزخرف : آية ٧٢
(٣) سورة النحل : آية ٣٢

للأعمال والهداية للاخلاص فيها وقبولها انما هو برحمة الله وفضله ، فيصح أنه لم يدخل بمجرد العمل ، وهو مراد الحديث ويصح أنه دخل بسبب العمل وهو من رحمة الله تعالى" . انتهى (١)

ان مجموع هذه الأحاديث ترسم لنا منهج النبى صلى الله عليه وسلم فى تربيته لأصحابه - رضوان الله عليهم - على التوازن بين العلم والعمل . فانه صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه مافرضه الله عليهم من تكاليف ، ومانهاهم عنه كذلك فى وضوح محدد لاشبهة فيه ولاغبش . وأخبرهم أن الله سبحانه سيحاسبهم على ذلك كما قال تعالى : {ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوء يجز به ...} الآية (٢) . وقال تعالى : {من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولاتزر وازرة وزر أخرى} (٣) ، وقال تعالى : {فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى} (٤) .

وأما أمر الغيب والقدر فهذه أمور ورد الشرع بالايمان بها مع ترك كيفيتها (٥) ، فلم يكلف الله تعالى أحدا من خلقه بالبحث عنها ، ولم يأمرهم بشىء يتعلق بها الا الاعتقاد الجازم والايمان الصادق بها كما أخبر الله ورسوله .

"لأن سبيل معرفة هذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة دون محض القياس والعقل ، فمن عدل عن التوقيف فيه ضل وتاه فى بحار الحيرة ولم يبلغ شفاء العين ولامايطمئن به القلب ، لأن القدر سر من أسرار الله تعالى اختص العليم الخبير به ،

---

(١) فتح البارى ٢٩٦/١١، ٢٩٧ .
(٢) سورة النساء : آية ١٢٣
(٣) سورة الاسراء : آية ١٥
(٤) سورة النازعات : آية ٣٧-٤١
(٥) انظر فتح البارى ٢٦٧/١٣ .

وضرب دونه الأستار وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم لما علمه من الحكمة ، فلم يعلمه نبى مرسل ولاملك مقرب" (١).

وهكذا تعلم الصحابة رضوان الله عليهم من الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما ذكر الامام مسلم فى صحيحه من طريق طاوس أنه قال :

"أدركت ناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون كل شىء بقدر" ، وسمعت عبد الله بن عمر يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كل شىء بقدر حتى العجز والكيس" (٢) (٣).

"ومعناه أن كل شىء لايقع فى الوجود الا وقد سبق به علم الله ومشيئته وانما جعلهما فى الحديث غاية لذلك للاشارة الى أن أفعالنا وان كانت معلومة لنا ومرادة منا فلاتقع مع ذلك منا الا بمشيئة الله " (٤).

قال القاري: "فأمر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه بالتزام مايجب على المكلف من امتثال أمر مولاه سبحانه من العبودية عاجلا ، وتفويض الأمر اليه بحكم الربوبية آجلا ، وأعلمهم بأن ههنا أمرين لايبطل أحدهما الآخر ، باطن وهو حكم الربوبية ، وظاهر وهو سمة العبودية فأمر بكليهما ليتعلق الخوف بالباطن المغيب ، والرجاء بالظاهر البادى ليستكمل المكلف بذلك صفات المؤمنين ونعوت الايقان ، ومراتب الاحسان ، يعنى عليكم بالتزام ماأمرتم ، واجتناب مانهيتم من التكاليف

---

(١) فتح البارى ٤٧٧/١١ .
(٢) الكيس : بفتح الكاف ضد العجز ومعناه الحذق فى الأمور ويتناول أمور الدنيا والآخرة . انظر : لسان العرب ٢٠٠/٦ ، مادة (كيس) .
(٣) رواه مسلم فى ٤٦ - كتاب القدر ، ٤ - باب كل شىء بقدر ٢٠٤٥/٤ رقم الحديث ٢٦٥٥ .
(٤) فتح البارى ٤٧٨/١١ .

الشرعية بمقتضى العبودية ، وإياكم والتصرف فى الأمور الربوبية " .(١)

فأوضح صلى الله عليه وسلم لأصحابه الطريق المستقيم ، وحدد لهم معالمه ، فطريق المكلف أن ينهض بالتكاليف الواضحة على قدر استطاعته وأن يجتنب النواهى التى حددها الله ورسوله . قال تعالى : {فاتقوا الله مااستطعتم واسمعوا وأطيعوا} .(٢)

وقال تعالى : {وماآتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا} .(٣)

وقال صلى الله عليه وسلم : "اذا أمرتكم بشىء فأتوا منه مااستطعتم واذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه " .(٤)

وأن يشغل المكلف نفسه بمعرفة ماأمر الله به ، ومانهاه عنه وألا يبحث فى شىء وراء ذلك من أمر الغيب الذى حجبه الله عن ادراكه ، لأن ذلك فوق طاقته ، ولم يكلفه الله سبحانه شيئا فوق طاقته . قال تعالى : {لايكلف الله نفسا الا وسعها لها ماكسبت وعليها مااكتسبت}(٥) ، وقال تعالى : {لايكلف الله نفسا الا ماءاتاها}(٦) ، وقال تعالى : {واذا فعلوا فاحشة قالوا : وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها . قل ان الله لايأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله مالاتعلمون . قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين} .(٧)

---

(١) لامع الدرارى على جامع البخارى ٤٦٥/٤ بتصرف يسير .
(٢) سورة التغابن : آية ١٦
(٣) سورة الحشر : آية ٧
(٤) أخرجه الامام مسلم فى ١٥ ـ كتاب الحج ، ٧٣ ـ باب فرض الحج مرة فى العمر ٩٧٥/٢ رقم الحديث ١٣٣٧ .
(٥) سورة البقرة : آية ٢٨٦
(٦) سورة الطلاق : آية ٧
(٧) سورة الأعراف : آية ٢٨، ٢٩

وبهذا يتم التوازن فى اعتقاد المكلف وشعوره ، كما يتم التوازن فى نشاطه وحركته (١) .

"والعمل بما ورد فى الكتاب والسنة والتشاغل به فقد وقع الكلام فى أيهما أولى ، والانصاف أن يقال :

كلما زاد على ماهو فى حق المكلف فرض عين فالناس فيه على قسمين :

(١) من وجد فى نفسه قوة على الفهم والتحرير فتشاغله بذلك أولى من اعراضه عنه ، وتشاغله بالعبادة لما فيه من النفع المتعدى .

(٢) ومن وجد فى نفسه قصورا ، فاقباله على العبادة أولى لعسر اجتماع الأمرين .

فان الأول لو ترك العلم لأوشك أن يضيع بعض الأحكام باعراضه .

والثانى لو أقبل على العلم وترك العبادة فاته الأمران لعدم حصول الأول له ، واعراضه به عن الثانى . والله الموفق" (٢) .

ونخلص مما سبق الى أن الناس ينقسمون من حيث القوة العلمية والعملية الى ثلاثة أقسام : طرفان ووسط .

الطرف الأول : من تكون القوة العلمية عنده أقوى من القوة العملية وأغلب منها .

الطرف الثانى : من تكون له القوة العملية أغلب من القوة العلمية وأقوى منها .

---

(١) انظر خصائص التصور الاسلامى لسيد قطب ص ١٥٤ ، دار الشروق ، بيروت .

(٢) فتح البارى ٢٦٨/١٣ .

القسم الثالث (وهو الوسط) : من كانت له القوتان العلمية والعملية متساويتين فى القوة فلايغلب أحدهما الآخر وانما كلما علم عمل وهذا هو طريق الفلاح والسعادة .

يقول الامام ابن القيم رحمه الله تعالى فى تقسيم الناس من حيث القوة العلمية والعملية :

"(١) فمن الناس من يكون له القوة العلمية الكاشفة عن الطريق ومنازلها وأعلامها وعوارضها ومعاثرها ، وتكون هذه القوة أغلب القوتين عليه ، ويكون ضعيفا فى القوة العملية يبصر الحقائق ولايعمل بموجبها ، ويرى المتالف والمخاوف والمعاطب ولايتوقاها ، فهو فقيه مالم يحضر العمل ، فاذا حضر العمل شارك الجهال فى التخلف وفارقهم فى العلم ، وهذا هو الغالب على أكثر النفوس المشتغلة بالعلم ، والمعصوم من عصمه الله ولاقوة الا بالله .

(٢) ومن الناس من تكون له القوة العملية الارادية وتكون أغلب القوتين عليه ، وتقتضى هذه القوة السير والسلوك والزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة والجد والتشمير فى العمل ، ويكون أعمى البصر عند ورود الشبهات فى العقائد ، والانحرافات فى الأعمال والأقوال والمقامات . كما كان الأول ضعيف العقل عند ورود الشهوات ، فداء هذا من جهله وداء الأول من فساد ارادته وضعف عقله ، وهذا حال أكثر أرباب الفقر والتصوف السالكين على غير طريق العلم ، بل على طريق الذوق والوجد والعادة ، يرى أحدهم أعمى عن مطلوبه لايدرى من يعبد ولابماذا يعبده ، فتارة يعبده بذوقه ووجده ، وتارة يعبده بعادة قومه وأصحابه من لبس معين أو كشف رأس أو حلق لحية ونحوها ، وتارة يعبده بالأوضاع التى وضعها بعض

المتحذلقين وليس له أصل فى الدين ، وتارة يعبده بما تحبه نفسه وتهواه كائنا ماكان ، وهنا طريق ومتاهات لايحميها الا رب العباد .

فهؤلاء كلهم عمى عن ربهم وعن شريعته ودينه لايعرفون شريعته ودينه الذى بعث به رسله وأنزل به كتبه ولايقبل من أحد دينا سواه ، كما أنهم لايعرفون صفات ربهم التى تعرف بها الى عباده على ألسنة رسله ودعاهم الى معرفته ومحبته من طريقها ، فلامعرفة له بالرب ولاعبادة له .

(٣) ومن كانت له هاتان القوتان استقام له سيره الى الله ورجى له النفوذ وقوى على رد القواطع والموانع بحول الله وقوته ، فان القواطع كثيرة شأنها شديد لايخلص من حبائلها الا الواحد بعد الواحد ، ولولا القواطع والآفات لكانت الطريق معمورة بالسالكين ، ولو شاء الله لأزالها وذهب بها ولكن الله يفعل مايريد .

والوقت كما قيل سيف فان قطعته والا قطعك ، فاذا كان السير ضعيفا والهمة ضعيفة ، والعلم بالطريق ضعيفا ، والقواطع الخارجة والداخلة كثيرة شديدة ، فانه جهد البلاء ودرك الشقاء وشماتة الأعداء ، الا أن يتداركه الله برحمة منه من حيث لايحتسب فيأخذ بيده ويخلصه من أيدى القواطع ، والله ولى التوفيق" (١) .

ولذا فان الله تعالى امتدح هذه الطائفة الجامعة بين قوتى الانسان العلمية والعملية وأخبر سبحانه وتعالى فى

---

(١) طريق دار الهجرتين وباب السعادتين ص ١٨٤-١٨٥ .

كتابه أن الذى يفهم الأمثال المضروبة فى القرآن هم العالمون العاملون .

"فقال تعالى : {وتلك الأمثال نضربها للناس ومايعقلها الا العالمون} (١) . فحصر تعقلها فى العالمين ، وهو قصد الشارع من ضرب الأمثال . وقال : {أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى} (٢) . ثم وصف أهل العلم بقوله : {الذين يوفون بعهد الله ولاينقضون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار} (٣) وحاصل هذه الأوصاف يرجع الى أن العلماء هم العاملون . وقال فى أهل الايمان – والايمان من فوائد العلم – {انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم} (٤) .

ومن هنا قَرَنَ العلماءَ فى العمل بمقتضى العلم بالملائكة الذين لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون ، فقال تعالى {شهد الله أنه لااله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لااله الا هو} (٥) فشهادة الله تعالى وفق علمه ظاهرة التوافق ، اذ التخالف محال ، وشهادة الملائكة على وفق ماعلموا صحيحة لأنهم محفوظون من المعاصى ، وأولوا العلم

---

(١) سورة العنكبوت : آية ٤٣
(٢) سورة الرعد : آية ١٩
(٣) سورة الرعد : آية ٢٠-٢٢
(٤) سورة الأنفال : آية ٢-٤
(٥) سورة آل عمران : آية ١٨

أيضا كذلك من حيث حفظوا بالعلم " .(١)

لقد آتت تربية النبى صلى الله عليه وسلم المتواصلة لصحابته الكرام رضوان الله عليهم ثمارها فى اعتقادهم وأقوالهم وأفعالهم . وفى من بعدهم ممن سار على نهجهم ، واقتفى أثرهم واستن بسنتهم حتى أصبح التوازن فى المعتقدات والأعمال والأقوال صفة بارزة من صفاتهم .

"فهم وسط فى أنبياء الله ، ورسله ، وعباده الصالحين لم يغلوا فيهم كما غلت النصارى : {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا لااله الا هو ، سبحانه عما يشركون}(٢) .

ولاجفوا عنهم ، كما جفت اليهود ، فكانوا يقتلون الأنبياء بغير حق ، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس كما قال تعالى : {ان الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم}(٣) .

وكلما جاءهم رسول بما لاتهوى أنفسهم كذبوا فريقا ، وقتلوا فريقا . قال الله تعالى : {لقد أخذنا ميثاق بنى اسرائيل وأرسلنا اليهم رسلا ، كلما جاءهم رسول بما لاتهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون}(٤) . بل المؤمنون آمنوا برسل الله ، وعزروهم ، ونصروهم ، ووقروهم ، وأحبوهم ، وأطاعوهم ، ولم يعبدوهم ، ولم يتخذوهم أربابا . كما قال

---

(١) الموافقات ١/٧١-٧٢ بتصرف يسير .
(٢) سورة التوبة : آية ٣١
(٣) سورة آل عمران : آية ٢١
(٤) سورة المائدة : آية ٧٠

تعالى : {ماكان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولايأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ، أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون} (١) .

ومن ذلك أن المؤمنين توسطوا فى المسيح فلم يقولوا : هو الله ، ولاابن الله ، ولاثالث ثلاثة . كما يقوله النصارى.

ولاكفروا به ، وقالوا على مريم بهتانا عظيما ، حتى جعلوه ولد بغية كما زعمت اليهود .

بل قالوا : هذا عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها الى مريم العذراء البتول ، وروح منه .

وكذلك المؤمنون وسط فى شرائع دين الله تعالى ، فلم يحرموا على الله أن ينسخ ماشاء ، ويمحو ماشاء ويثبت . كما قالته اليهود كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله : {سيقول السفهاء من الناس ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها} (٢) ، وبقوله : {واذا قيل لهم ءامنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم} (٣) .

ولاجوزوا لأكابر علمائهم وعبادهم أن يغيروا دين الله ، فيأمروا بما شاؤوا وينهوا عما شاؤوا ، كما يفعله النصارى كما ذكر الله ذلك عنهم بقوله : {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله} (٤) .

---

(١) سورة آل عمران : آية ٧٩، ٨٠
(٢) سورة البقرة : آية ١٤٢
(٣) سورة البقرة : آية ٩١
(٤) سورة التوبة : آية ٣١

قال عدى بن حاتم رضى الله عنه : قلت : يارسول الله ماعبدوهم ؟ قال : ماعبدوهم ، ولكن أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم ، وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم} (١) .

والمؤمنون قالوا : لله الخلق والأمر كما قال تعالى : {ان ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين} (٢) .

فكما لايخلق غيره ، لايأمر غيره . وقالوا : سمعنا وأطعنا ، فأطاعوا كل ماأمر الله به . وقالوا : ان الله يحكم مايريد .

وأما المخلوق فليس له أن يبدل أمر الخالق تعالى ولو كان عظيما . وكذلك فى صفات الله تعالى ، فان اليهود وصفوا الله تعالى بصفات المخلوق الناقصة ، فقالوا : هو فقير ونحن أغنياء كما قال الله تعالى ذلك عنهم : {لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء . سنكتب ماقالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق} (٣) .

وقالوا : يد الله مغلولة ، قال تعالى : {وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا . بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء} (٤) .

---

(١) جامع الترمذى فى ٤٤ ، كتاب التفسير ، ٩ سورة التوبة ١٠ حدثنا الحسين بن مرثد عن عدى .
(٢) سورة الأعراف : آية ٥٤
(٣) سورة آل عمران : آية ١٨١
(٤) سورة المائدة : آية ٦٤

وقالوا : انه تعب من الخلق فاستراح يوم السبت (١) . الى غير ذلك .

والنصارى وصفوا المخلوق بصفات الخالق المختصة به . فقالوا : انه يخلق ويرزق ويغفر ويرحم ويتوب على الخلق ، ويثيب ويعاقب . والمؤمنون آمنوا بالله سبحانه وتعالى ، ليس له سمى ولاند . {ولم يكن له كفوا أحد} (٢) ، و{ليس كمثله شىء} (٣) فانه رب العالمين وخالق كل شىء وكل ماسواه عباد له فقراء اليه {ان كل من فى السموات والأرض الا ءاتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم ءاتيه يوم القيامة فردا} (٤) .

ومن ذلك : أمر الحلال والحرام . فان اليهود كما قال الله تعالى : {فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم} (٥) . فلايأكلون ذوات الظفر مثل الابل والبط ، ولاشحم الثرب (٦) والكليتين ولاالجدى فى لبن أمه ، الى غير ذلك ، مما حرم عليهم من الطعام واللباس وغيرهما . حتى قيل : ان المحرمات عليهم ثلاثمائة وستون نوعا ، والواجب عليهم مائتان وثمانية وأربعون أمرا ، وكذلك شدد عليهم فى النجاسات حتى لايؤاكلون الحائض ، ولايجامعوها فى البيوت .

وأما النصارى فاستحلوا الخبائث وجميع المحرمات ، وباشروا جميع النجاسات ، وانما قال لهم المسيح : {ولأحل

---

(١) سفر التكوين الاصحاح الثانى ٣،٢ كما قاله الشيخ محمد فؤاد عبد الباقى فى محاسن التأويل للقاسمى ٢٩١/٢ هامش رقم ٤ .
(٢) سورة الاخلاص : آية ٤
(٣) سورة الشورى : آية ١١
(٤) سورة مريم : آية ٩٣-٩٥
(٥) سورة النساء : آية ١٦٠
(٦) الثرب : شحم رقيق يغشى الكرش والأمعاء . وجمعه ثروب . لسان العرب ، مادة (ثرب) ٢٣٤/١ .

لكم بعض الذى حرم عليكم}(١) ، ولهذا قال تعالى : {قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر ولايحرمون ماحرم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون}(٢) .

وأما المؤمنون فكما نعتهم الله به فى قوله : {ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين ءامنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون}(٣)" (٤) . انتهى كلامه

---

(١) سورة آل عمران : آية ٥٠
(٢) سورة التوبة : آية ٢٩
(٣) سورة الأعراف : آية ١٥٦-١٥٧
(٤) فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ٣/٣٧٠-٣٧٣ .

المبحث الثالث

المداومة على العمل الصالح

المبحث الثالث

المداومة على العمل الصالح

ان المداومة على الأعمال الصالحة سمة أيضا من سمات هذا الدين القويم ، لأن الأعمال فى حقيقتها تنقسم الى نوعين :

النوع الأول : ماكان طلب الشارع لها على وجه الفرض والالزام فهذا النوع لايسع المسلم تركه أو التهاون فيه .

النوع الثاني : ماكان طلب الشارع لها على وجه الاستحسان لاعلى وجه الفرض والالزام ، فعلى المكلف المداومة على ماألزم به نفسه ، والحذر من تركه حتى لاينقطع الأجر عنه "وذلك فى كل عمل بحسب مايعتبر دواما فيه " (١) .

لأن "من مقصود الشارع فى الأعمال دوام المكلف عليها . والدليل على ذلك واضح ، كقوله تعالى : {الا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون} (٢) . وقوله : {ويقيمون الصلاة} (٣) . واقام الصلاة بمعنى الدوام عليها ، بهذا فسرت الاقامة حيث ذكرت مضافة الى الصلاة .

وجاء هذا كله فى معرض المدح ، وهو دليل على قصد الشارع اليه . وجاء الأمر به صريحا فى مواضع كثيرة ، كقوله تعالى : {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة} (٤) . وفى الحديث عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أحب الأعمال الى الله تعالى أدومها وان قل" (٥) .

---

(١) التحرير والتنوير ١٧١/٢٩ .
(٢) سورة المعارج : آية ٢٣
(٣) سورة البقرة : آية ٣
(٤) سورة المزمل : آية ٢٠
(٥) رواه مسلم فى ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، ٣٠ - باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره ٥٤١/١ رقم الحديث ٧٨٣ .

وعنها رضى الله عنها أيضا قالت : سئل النبى صلى الله عليه وسلم : أى الأعمال أحب الى الله تعالى ؟ قال : "أدومها وان قل" (١) .

وعنها أيضا رضى الله عنها قالت : "كان أحب العمل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يدوم عليه صاحبه" (٢) .

وأيضا فان فى توقيت الشارع وظائف العبادات ، من مفروضات ومسنونات ومستحبات فى أوقات معلومة لأسباب ظاهرة ولغير أسباب ، مايكفى فى حصول القطع بقصد الشارع الى ادامة الأعمال" (٣) . انتهى

وقال بعض المفسرين عند قول الله تعالى : {ورهبانية ابتدعوها ماكتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها} (٤) .

مانصه : "أى ماحفظوها حق حفظها ، واستعير الحفظ لاستيفاء ماتقتضيه ماهية الفعل ، فالرهبانية تحوم حول الاعراض عن اللذائذ الزائلة والى التعود بالصبر على ترك المحبوبات لئلا يشغله اللهو بها عن العبادة والنظر فى آيات الله ، فاذا وقع التقصير فى التزامها فى بعض الأزمان أو التفريط فى بعض الأنواع فقد انتفى حق حفظها ... وهذا الانتفاء له مراتب كثيرة ، والكلام مسوق مساق اللوم على تقصيرهم فيما التزموه أو نذروه ، وذلك تقهقر عن مراتب الكمال وانما ينبغى للمتقى أن يكون مزدادا من الكمال" (٥) .

---

(١) رواه البخارى فى ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ١٨ ـ باب القصد والمداومة على العمل ٢٣٣/٧ رقم الحديث ٦٤٦٥ .
(٢) رواه البخارى فى ٨٤ ـ كتاب الرقاق ، ١٨ ـ باب القصد والمداومة على العمل ٢٣٢/٧ رقم الحديث ٦٤٦٢ .
(٣) الموافقات للشاطبى ٢٤٢/٢ بتصرف .
(٤) سورة الحديد : آية ٢٧
(٥) تفسير التحرير والتنوير ٤٢٥/٢٧، ٤٢٦ .

وعلى هذا المقصد الشرعي ربى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه رضوان الله عليهم فغرس في نفوسهم حب المداومة على الأعمال الصالحة بعد أن رباهم على التوسط والاعتدال في الأعمال ، وتنفيرهم من الافراط أو التفريط .

فكان يأمرهم من الأعمال مايطيقون القيام به ، ويحثهم على المداومة عليه بترغيبهم في حصول الأجر والثواب من الله تعالى .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أحب الأعمال الى الله تعالى أدومها وان قل" (١) .

وعن عائشة أيضا قالت : "كان أحب العمل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يدوم عليه صاحبه" (٢) .

ففي هذين الحديثين يربي النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه على أهمية المداومة على الأعمال الصالحة حيث أخبرهم أن ذلك مما يحبه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، والمسلم شديد الرغبة في مايحبه الله تعالى ورسوله ، وفي هذا دافع قوي لنفوس الصحابة رضوان الله عليهم على المحافظة على ماألزموا به أنفسهم من نوافل الأعمال الصالحة بشتى أنواعها سواء كانت صلاة أو صياما أو صدقة أو نسكا الى غير ذلك من الأعمال المشروعة والمحبوبة عند الله تعالى ورسوله ، كما أنه صلى الله عليه وسلم يربيهم على ذلك بفعله ، حيث كان صلى الله عليه وسلم اذا ألزم نفسه بعمل

---

(١) سبق تخريجه ص ٢٩٣ .
(٢) سبق تخريجه ص ٢٩٤ .

داوم عليه ولم يقطعه مع اقتصاده في عباداته بلا افراط ولاتفريط .

عن علقمة رضي الله عنه قال : "سألت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قال : قلت : ياأم المؤمنين كيف كان عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ هل كان يخص شيئا من الأيام ؟

قالت : لا ، كان عمله ديمة . وأيكم يستطيع ماكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستطيع ؟" (١) .

فقول عائشة رضي الله عنها : "وأيكم يستطيع ماكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستطيع ؟" : "أي في العبادة كمية كانت أو كيفية من خشوع وخضوع واخبات واخلاص" (٢) .

وعن مسروق قال : سألت عائشة رضي الله عنها : "أي العمل كان أحب الى النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : الدائم ..." (٣) .

فمن هذا يتبين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يربيهم بفعله قبل قوله وتوجيهه ، ولهذه القدوة أثر في نفوس الأصحاب رضوان الله عليهم فكانت عائشة رضي الله عنها "اذا عملت العمل لزمته" (٤) . تأثرا بفعله صلى الله عليه وسلم .

وكان صلى الله عليه وسلم يربيهم على الاقتصاد في عبادتهم وفق ماجاء في شرع الله تعالى ، ويأمرهم بالمداومة

---

(١) رواه مسلم في ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، ٣٠ - باب فضيلة العمل الدائم ٥٤١/١ رقم الحديث ٧٨٣ .
(٢) فتح الباري ٢٩٩/١١ .
(٣) رواه البخاري في ١٩ - كتاب التهجد ، ٧ - باب من نام عند السحر ٥٦/٢ رقم الحديث ١١٣٢ .
(٤) رواه مسلم في ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، ٣٠ - باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره ٥٤١/١ رقم الحديث ٧٨٣ .

عليها ، وينهاهم عن التعمق فيها ، لما فى ذلك من انشراح لقلوبهم ونشاط لأجسادهم .

عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : "كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم حصير ، وكان يحجره من الليل فيصلى فيه فجعل الناس يصلون بصلاته ، ويبسطه بالنهار . فثابوا ذات ليلة ، فقال صلى الله عليه وسلم : "ياأيها الناس عليكم من الأعمال ماتطيقون ، فان الله لايمل حتى تملوا ، وان أحب الأعمال الى الله مادووم عليه وان قل" وكان آل محمد صلى الله عليه وسلم اذا عملوا عملا أثبتوه " (١) .

"ففى هذا الحديث كمال شفقته صلى الله عليه وسلم ورأفته بأمته لأنه أرشدهم الى مايصلحهم وهو مايمكنهم الدوام عليه بلامشقة ولاضرر فتكون النفس أنشط والقلب منشرحا فتتم العبادة بخلاف من تعاطى من الأعمال مايشق ، فانه بصدد أن يتركه أو يترك بعضه أو يفعله بكلفة وبغير انشراح القلب فيفوته خير عظيم ، وقد ذم الله سبحانه وتعالى من اعتاد عبادة ثم أفرط ، فقال تعالى : {ورهبانية ابتدعوها ماكتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها} (٢) . وقد ندم عبد الله بن عمرو بن العاص على تركه قبول رخصة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تخفيف العبادة ومجانبة التشديد " (٣) .

ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يحذر أصحابه من التشديد على النفس والمبالغة المفضية الى ترك العمل أو

---

(١) رواه مسلم فى ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، ٣٠ ـ باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره ٥٤١،٥٤٠/١ رقم الحديث ٧٨٢ .
(٢) سورة الحديد : آية ٢٧
(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ٧١/٦ بتصرف .

أدائه بفتور وعدم حضور القلب والخشوع فيه .

عن عروة بن الزبير رضى الله عنهما أن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم أخبرته ، أن الحولاء بنت تويت بن حبيب بن أسد بن عبد العزى مرت بها وعندها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : هذه الحولاء بنت تويت ، وزعموا أنها لاتنام الليل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لاتنام الليل ! خذوا من العمل ماتطيقون ، فوالله لايسأم الله حتى تسأموا " (١) .

هكذا كان صلى الله عليه وسلم يربى أصحابه على مايطيقون من الأعمال ، والمداومة على ذلك وان كان قليلا ، فمن نام عن حزبه من القرآن ، أو عن صلاته بالليل قبل اكمالها ، ثم أكملها مابين صلاة الفجر الى صلاة الظهر فان الله تعالى سيعطيه أجر ذلك العمل كاملا من غير أن ينقص منه شىء ، وماذلك الا رحمة من الله تعالى ، وترغيب منه سبحانه لعباده بالمداومة على الأعمال الصالحة .

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من نام عن حزبه من الليل أو عن شىء منه فقرأه مابين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل" (٢) .

ففى هذا الحديث يربى النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه على المداومة والمحافظة على الأعمال والأوراد .

---

(١) رواه مسلم فى ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، ٣٠ ـ باب فضيلة العمل الدائم ٥٤٢/١ رقم الحديث ٧٨٥ .

(٢) رواه مسلم فى ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، ١٨ ـ باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض ٥١٥/١ رقم الحديث ٧٤٧ .

فمن كان ملزما نفسه بصلاة أو قراءة قرآن أو ذكر من الليل فغلبه النوم عن حزبه ذاك أو عن شيء منه قبل أن يكمله فقرأه مابين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل ، وذلك لوفائه ومداومته على ما ألزم به نفسه .

فيثبت الله له أجره اثباتا مثل اثباته عند قراءته له من الليل . قال القرطبي رحمه الله تعالى :

"وهذه الفضيلة انما تحصل لمن غلبه نوم أو عذر منعه من القيام به مع أن نيته القيام به ، وظاهره أن له أجره مكملا مضاعفا وذلك لحسن نيته وصدق تلهفه وتأسفه ... وقال بعضهم : ويحتمل أن يكون غير مضاعف اذ التى يصليها ليلا أكمل وأفضل ، والظاهر الأول" (١) ، لأن المداومة على العمل وان قل خير من الكثير منه المنقطع . وانما كان قليله الدائم خيرا من كثيره المنقطع لأن بدوام القليل تدوم الطاعة والذكر ومراقبة الله تعالى فى السر والعلن والنية الصادقة والاخلاص والاقبال على الله تعالى .

فيصبح العمل القليل الدائم مثمرا ناميا فيزيد خيره وثوابه على العمل الكثير المنقطع أضعافا كثيرة (٢) .

وحاصل هذه الأحاديث المذكورة آنفا بيان رفق النبى صلى الله عليه وسلم بأصحابه ، وشفقته عليهم حيث أرشدهم على مافيه صلاحهم ، فرباهم على مايطيقون الدوام عليه من الأعمال وحثهم على ذلك ، ونهاهم عن التعمق والاكثار من العبادات التى يخاف عليهم الملل بسببها أو أن يتركوها كلها أوبعضها

---

(١) المفهم فى شرح تلخيص مسلم للقرطبى لوحة رقم ٣٩٨/٢/١ بتصرف سير .

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ٧١/٦ .

وبين لهم أن الله قد ذم قوما أكثروا العبادة ، ثم فرطوا فيها ، فقال تعالى : {ورهبانية ابتدعوها ماكتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها} (١) .

وكل ذلك في الأعمال الزائدة على مافرضه الله تعالى على عباده ، لأن الفرائض لايعفى منها أحد ، وهي أربعة أنواع كما فصل ذلك الامام ابن قيم الجوزية عليه رحمة الله تعالى:

"النوع الأول : العلم والعمل بأصول الايمان الخمسة : الايمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، فان من لم يؤمن بهذه الخمسة لم يدخل في باب الايمان ، ولايستحق اسم المؤمن . قال الله تعالى : {ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين} (٢) . وقال : {ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا} (٣) .

ولما سأل جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر (٤) . قال صدقت .

فالايمان بهذه الأصول فرع معرفتها والعلم بها .

النوع الثاني : العلم والعمل بشرائع الاسلام ، واللازم منها ، علم مايخص العبد من فعلها كعلم الوضوء ، والصلاة ، والصيام ، والحج ، والزكاة ، وتوابعها وشروطها ومبطلاتها .

النوع الثالث : علم المحرمات الخمسة التي اتفقت عليها الرسل والشرائع والكتب الالهية ، والابتعاد عنها ،

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ٤٠،٣٩/٨ ، والآية من سورة الحديد : آية ٢٧ .
(٢) سورة البقرة : آية ١٧٧
(٣) سورة البقرة : آية ١٣٦
(٤) سبق تخريجه ص ٦١ .

وهي المذكورة في قوله تعالى : {قل انما حرم ربي الفواحش ماظهر منها ومابطن والاثم والبغي بغير الحق ، وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله مالاتعلمون} (١) .

فهذه محرمات على كل واحد في كل حال على لسان كل رسول لاتباح قط ، ولهذا أتى فيها (بانما) المفيدة للحصر مطلقا ، وغيرها محرم في وقت ، مباح في غيره كالميتة والدم ولحم الخنزير ونحوه . فهذه ليست محرمة على الاطلاق والدوام ، فلم تدخل تحت التحريم المحصور المطلق .

النوع الرابع : العلم والعمل بأحكام المعاشرة والمعاملة التي تحصل بينه وبين الناس خصوصا وعموما ، والواجب في هذا النوع يختلف باختلاف أحوال الناس ومنازلهم فليس الواجب على الامام مع رعيته كالواجب على الرجل مع أهله وجيرته ، وليس الواجب على من نصب نفسه لأنواع التجارات من تعلم أحكام البياعات كالواجب على من لايبيع ولايشتري الا ماتدعو الحاجة اليه .

وأما فرض الكفاية فلاأعلم فيه ضابطا صحيحا ، فان كل أحد يدخل في ذلك مايظنه فرضا . وبالجملة فالمطلوب الواجب من المكلف من العلوم والأعمال اذا توقف على شيء منها كان ذلك الشيء واجبا وجوب الوسائل . ومعلوم أن ذلك التوقف يختلف باختلاف الأشخاص والأزمان والألسنة والأذهان ، فليس لذلك حد مقدر" (٢) . انتهى

---

(١) سورة الأعراف : آية ٣٣
(٢) مفتاح دار السعادة ٢/٦-١٠ باختصار وتصرف يسير .

"فالمكلف اذن مطالب بأعمال ووظائف شرعية ملزمة لابد له منها ، يقوم فيها بحق الله تعالى عليه .

فاذا أوغل فى عمل شاق فربما قطعه هذا العمل عن غيره ولاسيما حقوق الغير التى تتعلق به ، فتكون عبادته أو عمله الداخل فيه قاطعا عما كلفه الله به ، فيقصر فيه ، فيكون بذلك ملوما غير معذور ، اذ المراد منه القيام بجميعها على وجه لايخل بواحدة منها ، ولابحال من أحواله فيها .

فالمكلف اذا أراد الدخول فى عمل غير واجب ، فمن حقه أن لاينظر الى سهولة الدخول فيه ابتداء حتى ينظر فى مآله فيه ، وهل يقدر على الوفاء به طول عمره أم لا ؟ فان المشقة التى تدخل على المكلف من وجهين :

أحدهما : من جهة شدة التكليف فى نفسه ، بكثرته أو ثقله فى نفسه .

والثانى : من جهة المداومة عليه وان كان فى نفسه خفيفا .

وحسبك من ذلك الصلاة ، فانها من جهة حقيقتها خفيفة ، فاذا انضم اليها معنى المداومة ثقلت . والشاهد لذلك قوله تعالى : {واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين} (١) ، فجعلها كبيرة ، حتى قرن بها الأمر بالصبر ، واستثنى الخاشعين فلم تكن عليهم كبيرة ، لأجل ماوصفهم به من الخوف الذى هو سائق ، والرجاء الذى هو حاد ، وذلك ماتضمنه قوله : {الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم} (٢) . فان الخوف والرجاء ، يسهلان الصعب ، فان الخائف من الأسد يسهل

---

(١) سورة البقرة : آية ٤٥
(٢) سورة البقرة : آية ٤٦

عليه تعب الفرار ، والراجي لنيل مرغوبه يقصر عليه الطويل من المسافة . ولأجل الدخول في الفعل على قصد الاستمرار ، وضعت التكاليف على التوسط ، وأسقط الحرج ، ونهى عن التشديد . وقد قال عليه الصلاة والسلام : "ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، ولاتبغض الى نفسك عبادة الله ، فان المنبت لا أرضا قطع ولاظهرا أبقى" (١) . وقال : "لن يشاد هذا الدين أحد الا غلبه" (٢) .

وهذا يشمل التشديد بالدوام ، كما يشمل التشديد بأنفس الأعمال" (٣) .

ومن هذا يتضح أن الحرج مرفوع عن المكلف من وجهين :

الأول : الخوف على المكلف من الانقطاع عن العمل ، وبغض العبادة سواء كانت علما أو عملا ، وكراهة التكليف . ويدخل تحت هذا المعنى الخوف من ادخال الفساد على المكلف في جسمه أو عقله أو ماله أو حاله .

والثاني : الخوف على المكلف من التقصير في العمل الذي ألزم نفسه به عند مزاحمة الوظائف المتعلقة بالمكلف المختلفة الأنواع ، مثل قيامه على أهله وولده ، الى تكاليف أخر تأتي في الطريق ، فلربما كان التوغل في بعض الأعمال شاغلا عنها ، وقاطعا بالمكلف دونها ، ولربما أراد الحمل للطرفين على المبالغة في الاستقصاء ، فانقطع عنهما (٤) .

---

(١) رواه أحمد في مسنده ١٩٩/٣ .
(٢) رواه البخاري في ٢ - كتاب الايمان ، ٣٠ - باب الدين يسر ١٨/١ رقم الحديث ٣٩ .
(٣) الموافقات للشاطبي ١٣٦/٢ .
(٤) انظر الموافقات للشاطبي ١٣٦/٢ .

الفصل الثالث

تربية النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه على تعليم العلم ونشر الدعوة

ويشمل مبحثين :

المبحث الأول : تربية النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه على تعليم العلم .

المبحث الثانى : تربية النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه على نشر الدعوة .

الفصل الثالث

تربية النبى صلى الله عليه وسلم
أصحابه على تعليم العلم ونشر الدعوة

سبق أن بينت كيف اهتم رسول الله صلى الله عليه وسلم بتصحيح الاعتقاد فى نفوس أصحابه ، وتربيته لهم عليه ، لما فى ذلك من أهمية فى حياتهم .

وكذلك أحيا فى نفوسهم ارتباط العلم بالعمل ، فرباهم على العمل فورا بما يعلمون وعلمهم التوازن فيه حتى ارتبط فى حسهم وفى حياتهم العلم والعمل والمداومة عليه .

وفى هذا الفصل سأبين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ربى أصحابه على تعليم العلم ونشر الدعوة ، وذلك لعلمه صلى الله عليه وسلم بأنه سيلتحق بالرفيق الأعلى ، ولابد لهذا الدين من حملة يحملونه وينشرونه بين الناس ، ويحافظون عليه ، ولذلك تفطن صلى الله عليه وسلم لأهمية وجود القادة من بعده فرباهم على ذلك عن طريق التدريب العملى وتحت نظره صلى الله عليه وسلم .

المبحث الأول

تربية النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه على تعليم العلم

المبحث الأول

تربية النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه على تعليم العلم

اهتم النبى صلى الله عليه وسلم بتربية أصحابه على تعليم العلم واشاعته فى الناس ، ورغبهم فى ذلك .

فان بث علوم الدين القويم وآدابه بين الأمة مقصد عظيم من مقاصد الاسلام التى بها يحفظ الله هذا الدين وتعاليمه ، ولذا فلابد من جماعة من المؤمنين تتفقه فى الدين ، وتتعلم أحكامه وآدابه ، ثم تقوم ببثه فى الأمة ، لأن فى ذلك صلاحها قال الله تعالى : {وماكان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون} (١) .

قال ابن عاشور رحمه الله تعالى فى تفسيره عند هذه الآية :

"والاتيان بصيغة لام الجحود تأكيد للنفى ، وهو خبر مستعمل فى النهى فتأكيده يفيد تأكيد النهى ، أى كونه نهيا جازما يقتضى التحريم ، وذلك أنه كما كان النفر للغزو واجبا لأن فى تركه اضاعة مصلحة الأمة كذلك كان تركه من طائفة من المسلمين واجبا لأن فى تمحض جميع المسلمين للغزو اضاعة مصلحة للأمة أيضا ، فأفاد مجموع الكلامين أن النفر للغزو واجب على الكفاية أى على طائفة كافية لتحصيل المقصد

---

(١) سورة التوبة : آية ١٢٢

الشرعى منه ، وأن تركه متعين على طائفة كافية منه لتحصيل المقصد الشرعى مما أمروا بالاشتغال به من العلم فى وقت اشتغال الطائفة الأخرى بالغزو . وهذا تقييد للاطلاق الذى فى فعل (انفروا) ، أو تخصيص للعموم الذى فى ضمير (انفروا) ، ولذلك كانت هذه الآية أصلا فى وجوب طلب العلم على طائفة عظيمة من المسلمين وجوبا على الكفاية ، أى على المقدار الكافى لتحصيل المقصد من ذلك الايجاب ، وأشعر نفى وجوب النفر على جميع المسلمين ، واثبات ايجابه على طائفة من كل فرقة منهم بأن الذين يجب عليهم النفر ليسوا بأوفر عددا من الذين يبقون للتفقه والانذار ، وأن ليست احدى الحالتين بأولى من الأخرى على الاطلاق ، فيعلم أن ذلك منوط بمقدار الحاجة الداعية للنفر ، وأن البقية باقية على الأصل ، فعلم منه أن النفير الى الجهاد يكون بمقدار مايقتضيه حال العدو المغزو ، وأن الذين يبقون للتفقه يبقون بأكثر مايستطاع ، وأن ذلك سواء . ولاينبغى الاعتماد على مايخالف هذا التفسير من الأقوال فى معنى الآية وموقعها من الآى السالفة " (١) .

ولأهمية هذا الأمر فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه بتعليم العلم واشاعته بين الناس ، لادراكه صلى الله عليه وسلم فى أن نماء العلم وزيادة المعرفة ، واتقاد الذهن وتأثر القلب وزيادة الايمان ، انما يكمن ذلك فى نشر العلم وتعليمه وتداوله بين الأمة .

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "نضر الله امرءا سمع منا

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ١١/٦٠، ٦١ .

شيئا فبلغه كما سمع ، فرب مبلغ أوعى من سامع" .(١)

وقال صلى الله عليه وسلم : "من سئل عن علم ثم كتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار" .(٢)

ولما ودع رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد عبد القيس بعد ماعلمهم شرائع الايمان ، قال لهم : "... احفظوه وأخبروه من وراءكم" .(٣)

ولقد امتثل الصحابة رضوان الله عليهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تعليم العلم واشاعته فى الأمة ، فكان الشاهد منهم يبلغ الغائب .

يقول البراء بن عازب رضى الله عنه : "ليس كلنا سمع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . كانت لنا ضيعة وأشغال ولكن الناس كانوا لايكذبون يومئذ فيحدث الشاهد الغائب" .(٤)

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال :

"كنت أنا وجار لى من الأنصار فى بنى أمية بن زيد - وهى من عوالى المدينة - وكنا نتناوب النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل يوما وأنزل يوما ، فاذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحى وغيره ، واذا نزل فعل مثل ذلك" .(٥)

وهذا رافع بن مالك الأنصارى رضى الله عنه كان يذهب الى النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى مكة قبل الهجرة ،

---

(١) لقد روى هذا الحديث عدد من الصحابة رضى الله عنهم . فرواه الامام أحمد فى مسنده ٤٣٧/١ واللفظ له ، ١٨٣/٥ والدارمى ٧٥/١ ، والترمذى ٣٤،٣٣/٥ .
(٢) رواه الترمذى ١١٨/١٠ وقال : حديث حسن .
(٣) سبق تخريجه ص ١٤١ .
(٤) رواه الحاكم فى المستدرك ١٢٧/١ ، وفى ٩٥/١ .
(٥) سبق تخريجه ص ٢٣٩ .

فيتعلم منه القرآن ثم يرجع الى المدينة ليقوم بتعليم قومه ماتعلمه من رسول الله صلى الله عليه وسلم (١).

وذكر أبو عبيد رحمه الله تعالى قصة سليط رضى الله عنه ، اذ قطع له رسول الله صلى الله عليه وسلم أرضا ، فكان يخرج اليها ثم يرجع ، فيقال له : "لقد نزل بعدك من القرآن كذا وكذا ، وقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كذا وكذا .

قال : فانطلق الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله ، ان هذه الأرض التى أقطعتنيها قد شغلتنى عنك ، فاقبلها منى فلاحاجة لى فى شىء يشغلنى عنك" (٢).

ولما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة كان أول عمل عمله هو بناء المسجد ، الذى كان يجتمع فيه بالصحابة رضوان الله عليهم فى الصلوات الخمس ، وفى تعليمه لهم ماينزل عليه من قرآن . وجعل فى المسجد مكانا خاصا لأهل الصفة وهم الفقراء ومن لامأوى له . فكان يقوم صلى الله عليه وسلم بتعليمهم العلم ، ويأمر بعض أصحابه بهذه المهمة كذلك .

فقد أمر عليه السلام عبد الله بن سعيد بن العاص : أن يعلم الكتابة بالمدينة ، وكان كاتبا ماهرا (٣).

وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال :

"علمت ناسا من أهل الصفة الكتابة والقرآن" (٤).

---

(١) انظر التراتيب الادارية للكتانى ٤٤/١ ، دار الكتاب العربى .

(٢) كتاب الأموال ص ٢٧٢-٢٧٣ ، لأبى عبيد القاسم بن سلام ، تحقيق محمد خليل هراس ، دار الفكر العربى .

(٣) انظر : الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ٢٢٦/٦ رقم ترجمته ١٥٥٦ .

(٤) رواه الامام أحمد فى مسنده ٣١٥/٥ .

وكان كعب بن مالك رضى الله عنه يقوم بتعليم القرآن فى المدينة (١) .

وروى الامام أحمد رحمه الله تعالى ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل وفد عبد القيس بقوله :

"كيف رأيتم كرامة اخوانكم لكم وضيافتهم اياكم ؟

قالوا : خير اخوان ، ألانوا فراشنا ، وأطابوا مطعمنا وباتوا وأصبحوا يعلموننا كتاب ربنا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم ، فأعجب النبى صلى الله عليه وسلم وفرح بها ، ثم أقبل علينا رجلا رجلا يعرضنا على ماتعلمنا وعلمنا ، فمنا من تعلم التحيات وأم الكتاب ، والسورة والسورتين ، والسنة والسنتين ..." (٢) .

فالنبى صلى الله عليه وسلم عندماجاءه وفد عبد القيس سلمهم للأنصار وأمرهم أن يعلموهم أمر دينهم ، وأن يكرموا ضيافتهم ويحسنوا معاملتهم ، وفعل الأنصار ماأمروا به ، وتعلم الوفد منهم كثيرا من تعاليم الاسلام ومن بينها حفظ أم القرآن وهى فاتحة كتاب الله تعالى التى لايقبل الله صلاة عبد الا بها ، وكذلك تعلموا بعض سور القرآن الأخرى ، وحفظوهم التحيات وبعض سنن الاسلام وتعاليمه ، ثم اختبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن اطمأن الى معاملة الأنصار لهم وأنهم أكرموهم وقاموا بخدمتهم واجتهدوا فى تعليمهم . فوجدهم خير قوم حفظوا العلم وأتقنوه ، مما جعله يفرح ويسر بهم ، وفى هذا تربية للصحابة رضوان الله عليهم على أهمية تعليم العلم ونشره .

---

(١) انظر السنن الكبرى للبيهقى ١٢٦/٦ .
(٢) مسند الامام أحمد ٢٠٦/٤ .

ولم يكتف النبى صلى الله عليه وسلم بأن يأمر اصحابه بتعليم العلم داخل المدينة فقط ، بل كان يبعث بعضهم الى خارج المدينة لكى يقوموا بتعليم الناس أمور دينهم ، وتفقيههم أحكامه . ففى السنة الثالثة من الهجرة قدم الى النبى صلى الله عليه وسلم بعد معركة أحد ، رهط من عضل والقارة ، فقالوا : يارسول الله ان فينا اسلاما ، فابعث معنا نفرا من أصحابك يفقهونا فى الدين ويقرؤونا القرآن ، ويعلمونا شرائع الاسلام ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم نفرا ستة ..." (١) .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : "جاء ناس الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : ابعث معنا رجالا يعلمون القرآن والسنة ، فبعث اليهم سبعين رجلا من الأنصار يقال لهم القراء فيهم خالى حرام كانوا يقرؤون ويتدارسون بالليل ، ويتعلمون . وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه بالمسجد ، ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة والفقراء ، فبعثهم النبى صلى الله عليه وسلم" (٢) .

وجاءه صلى الله عليه وسلم وفد من نجران : "وسألوه أن يبعث معهم رجلا يعلمهم السنة والاسلام ، فأخذ بيد أبى عبيدة ابن الجراح فقال : هذا أمين هذه الأمة ، فبعثه معهم" (٣) .

وبعث معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعرى رضى الله عنهما الى اليمن ، وأمرهما أن يعلما الناس القرآن (٤) .

---

(١) سبق تخريجه ص ٢١٤-٢١٥ .
(٢) طبقات ابن سعد ٧١/٢ ، وانظر تاريخ خليفة ٤٢/١-٤٣ ، تحقيق د. أكرم ضياء العمرى ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ .
(٣) مسند الامام أحمد ٢١٢/٣ .
(٤) مسند الامام أحمد ٣٩٧/٤ .

"ولانبالغ اذا ماقلنا أن السنة النبوية المطهرة بتركيزها على طلب العلم وفضله ودعوتها الى تعليم العلم ونشره ، قد أكدت للعالمين أنها دعوة الى ايمان أساسه العلم ، والى عقيدة قوامها العرفان ، والى دين عماده البرهان ، وجمعت فى ذلك بدون تعارض أو تناقض بين العقيدة والتشريع ، والدين والدنيا ، والتقدم الروحى والمادى"(١) .

---

(١) أسس التربية الاسلامية فى السنة النبوية ص ٤٩٦ .

المبحث الثانى

تربية النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه على نشر الدعوة

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : تربيته صلى الله عليه وسلم أصحابه على بذل النصيحة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

المطلب الثانى : اختيار النبى صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه لنشر الدعوة وتعليم الخير للناس بطريق واضح ميسر مع مراعاة التدرج فى ذلك .

المطلب الثالث : تربيته صلى الله عليه وسلم لأصحابه على الصبر والتضحية ، والثقة بالتمكين دون تعجل للنتائج .

المطلب الرابع : تكليفه صلى الله عليه وسلم أصحابه حسب قدراتهم ومواهبهم .

المطلب الأول

تربيته صلى الله عليه وسلم لأصحابه على بذل النصيحة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

لقد اهتم النبى صلى الله عليه وسلم بتربية أصحابه على بذل النصيحة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لأن فى ذلك قوام الدين والحياة ، وأن الحياة لاتصلح الا بالنصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم .

ففى ذلك حراسة لدين الله تعالى وللعدالة الربانية فى الأرض ، وأن الفساد والشر لايستفحل أمرهما وينتشران فى الأرض الا اذا أهمل النصح وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فعند ذلك يقع عقاب الله تعالى فيعم الصالح والطالح ، كما قال صلى الله عليه وسلم :

"مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، وكان الذين فى أسفلها اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ؟

فان تركهم الذين فى الأعلى وما أرادوا هلكوا جميعا ، وان أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا" (١) .

وقال عليه الصلاة والسلام : "ان الناس اذا تركوا الظالم ولم يأخذوا على يديه وهم قادرون على ذلك أوشك الله

---

(١) رواه البخارى فى ٣ ـ كتاب العلم ، ٢١ ـ باب فضل من علم وعلم ٣٣،٣٢/١ رقم الحديث ٧٩ .

أن يعمهم بعذاب من عنده " (١) .

ولهذا فان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايع الصحابة رضوان الله عليهم على النصيحة لكل مسلم .

فعن جرير بن عبد الله البجلى رضى الله عنه قال : "بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على اقام الصلاة وايتاء الزكاة والنصح لكل مسلم " (٢) .

قال المازرى : "النصيحة مشتقة من نصحت العسل اذا صفيته يقال : نصح الشيء اذا خلص ، ونصح له القول ، اذا أخلصه له أو مشتقة من النصح وهى الخياطة بالمنصحة وهى الابرة ، والمعنى أنه يلم شعث أخيه بالنصح ، كما تلم المنصحة . ومنه التوبة النصوح ، كأن الذنب يمزق الدين ، والتوبة تخيطه " (٣) .

وقال الامام الخطابى : "النصيحة كلمة جامعة معناها : حيازة الحظ للمنصوح له ، ويقال : هو من وجيز الأسماء ومختصر الكلام ، وليس فى كلام العرب كلمة مفردة تستوفى بها العبارة عن معنى هذه الكلمة ، كما قالوا فى كلمة "الفلاح" ليس فى كلامهم كلمة أجمع لخير الدنيا والآخرة منه " (٤) .

والنصح لكل مسلم : فى هذه الجملة تعميم فى النصح وفى المنصوح له ، فيشمل كل مايفيد المنصوح له ويعود عليه

---

(١) رواه أبو داود فى كتاب الملاحم ، باب الأمر والنهى حديث رقم ٤٣٣٨ ، ١٢٢/٤ ، ورواه الترمذى فى كتاب الفتن ، باب ماجاء فى نزول العذاب اذا لم يغير المنكر حديث رقم ٢١٦٨ ، ٤٠٦/٤ ، وأحمد فى المسند ٧/١

(٢) رواه البخارى فى ٢ ـ كتاب الايمان ، ٤٣ ـ باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : الدين النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم ٢٤/١ رقم الحديث ٥٧ .
ورواه مسلم فى ١ ـ كتاب الايمان ، ٢٣ ـ باب بيان أن الدين النصيحة ٧٥/١ رقم الحديث ٥٦ .

(٣) فتح البارى ١٣٨/١ .

(٤) فتح البارى ١٣٨/١ .

بالنفع الدنيوى والأخروى . قال القاضى عياض رحمه الله تعالى : "اقتصر على الصلاة والزكاة لشهرتهما" (١) .

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله :

"والمراد بالبيعة البيعة على الاسلام ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم أول مايشترط بعد التوحيد اقامة الصلاة لأنها رأس العبادات البدنية ، ثم أداء الزكاة لأنها رأس العبادات المالية ، ثم يعلم كل قوم مايحتاجون اليه ، فبايع جريرا على النصيحة لأنه كان سيد قومه فأرشده الى تعليمهم بأمره بالنصيحة لهم ، وبايع وفد عبد القيس على أداء الخمس لكونهم كانوا أهل محاربة مع من يليهم من كفار مضر" (٢) .

وتقييد النصح بالمسلم انما هو للأغلب والأعم ، والا فان نصح الكافر معتبر شرعا بأن يدعى الى الاسلام ، ويشار عليه بالصواب اذا استشار (٣) .

ولأهمية شأن النصيحة فان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لأصحابه أنواعها ، ولفت أنظارهم الى أهميتها بتكراره صلى الله عليه وسلم لها ثلاثا .

فعن تميم الدارى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، قلنا لمن يارسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم" (٤) .

فالنصيحة هى عماد الدين وقوامه ، ولهذا بين النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه فى هذا الحديث أهمية النصيحة

---

(١) فتح البارى ١٣٨/١ .
(٢) فتح البارى ٧/٢ بتصرف يسير .
(٣) فتح البارى ١٤٠/١ .
(٤) رواه مسلم فى ١ - كتاب الايمان ، ٢٣ - باب بيان أن الدين النصيحة ٧٤/١ رقم الحديث ٥٥ .

بحيث وجه الخطاب اليهم بقوله : "الدين النصيحة" وكرر ذلك ثلاث مرات لشد انتباههم ولفت أنظارهم رضوان الله عليهم لأهمية الموضوع الذى هو بصدده صلى الله عليه وسلم ، حتى سأل الصحابة رسولهم بقولهم : لمن يارسول الله ؟ أى لمن النصيحة ، فأجابهم صلى الله عليه وسلم بقوله : "لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم" .

وهذا الحديث عظيم الشأن وعليه مدار الاسلام (١) . وذلك لاشتماله على أمور عظيمة وقواعد متينة .

قال ابن بطال رحمه الله تعالى :

"فى هذا الحديث أن النصيحة تسمى دينا واسلاما وأن الدين يقع على العمل كما يقع على القول" (٢) .

ويحتمل أن يكون قوله صلى الله عليه وسلم : "الدين النصيحة" للمبالغة فى ذلك ، أى أن معظم الدين النصيحة ، كما قيل فى حديث آخر "الحج عرفة" أى عماده ومعظمه عرفة ، ويحتمل أن يحمل على ظاهره لأن كل علم لم يرد به عامله الاخلاص فليس من الدين (٣) .

قال الامام النووى رحمه الله تعالى :

"وأما تفسير النصيحة وأنواعها فقد ذكر الخطابى وغيره من العلماء فيها كلاما نفيسا أنا أضم بعضه الى بعض مختصرا قالوا :

(١) <u>أما النصيحة لله تعالى</u> :

فمعناها منصرف الى الايمان به ونفى الشريك عنه وترك الالحاد فى صفاته ، ووصفه بصفات الكمال والجلال كلها

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ٣٧/٢ .
(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ٣٩/٢ .
(٣) فتح البارى ١٣٨/١ .

وتنزيهه سبحانه وتعالى من جميع النقائص والقيام بطاعته واجتناب معصيته ، والحب فيه ، والبغض فيه ، وموالاة من أطاعه ، ومعاداة من عصاه ، وجهاد من كفر به ، والاعتراف بنعمته وشكره عليها ، والاخلاص فى جميع الأمور ، والدعاء الى جميع الأوصاف المذكورة ، والحث عليها ، والتلطف فى جميع الناس أو من أمكن منهم عليها .

(٢) وأما النصيحة لكتابه سبحانه وتعالي :

فالايمان بأنه كلام الله تعالى وتنزيله لايشبهه شيء من كلام الخلق ولايقدر على مثله أحد من الخلق ، ثم تعظيمه وتلاوته وتحسينها والخشوع عندها ، واقامة حروفه فى التلاوة والذب عنه لتأويل المحرفين وتعرض الطاعنين ، والتصديق بما فيه ، والوقوف مع أحكامه وتفهم علومه وأمثاله ، والاعتبار بمواعظه ، والتفكر فى عجائبه والعمل بمحكمه والتسليم لمتشابهه ، والبحث عن عمومه وخصومه وناسخه ومنسوخه ونشر علومه والدعاء اليه والى ماذكرنا من نصيحته .

(٣) وأما النصيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

فتصديقه على الرسالة والايمان بجميع ماجاء به وطاعته فى أمره ونهيه ونصرته حيا وميتا ، ومعاداة من عاداه ، وموالاة من والاه ، واعظام حقه وتوقيره واحياء طريقته وسنته وبث دعوته ونشر شريعته ونفى التهمة عنها ، واستثارة علومها ، والتفقه فى معانيها ، والدعاء اليها والتلطف فى تعلمها وتعليمها ، واعظامها واجلالها ، والتأدب عند قراءتها والامساك عن الكلام فيها بغير علم ، واجلال أهلها لانتسابهم اليها ، والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه ، ومحبة

أهل بيته وأصحابه ، ومجانبة من ابتدع في سنته أو تعرض لأحد من أصحابه ونحو ذلك .

(٤) وأما النصيحة لأئمة المسلمين :

فمعاونتهم على الحق وطاعتهم فيه وأمرهم به ، وتنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف واعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين ، وترك الخروج عليهم ، وتألف قلوب الناس لطاعتهم .

قال الخطابي رحمه الله تعالى : ومن النصيحة لهم الصلاة خلفهم والجهاد معهم وأداء الصدقات اليهم وترك الخروج بالسيف عليهم اذا ظهر منهم حيف أو سوء عشرة ، وأن لايغروا بالثناء الكاذب عليهم ، وأن يدعى لهم بالصلاح ، وهذا كله على أن المراد بأئمة المسلمين الخلفاء وغيرهم ممن يقوم بأمور المسلمين من أصحاب الولايات وهذا هو المشهور .

(وأما اذا كانوا ممن نحى شرع الله تعالى عن الحكم واستبدلوا به القوانين الوضعية ، فمناصحتهم تكون ببيان خطورة ماهم فيه ، وأنه كفر مخرج من ملة الاسلام ، وعليهم أن يتوبوا الى الله تعالى وأن يقلعوا عما هم عليه ، وأن يحكموا شرع الله تعالى ففيه الخير والبركة) (١) .

(٥) وأما نصيحة عامة المسلمين وهم من عدا ولاة الأمر :

فارشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم وكف الأذى عنهم فيعلمهم مايجهلونه من دينهم ويعينهم عليه بالقول والفعل وستر عوراتهم وسد خلاتهم ودفع المضار عنهم وجلب المنافع

---

(١) مابين القوسين من كلامي .

لهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر برفق واخلاص والشفقة عليهم وتوقير كبيرهم ورحمة صغيرهم ، وتخولهم بالموعظة الحسنة وترك غشهم وحسدهم ، وأن يحب لهم مايحب لنفسه من الخير ، ويكره لهم مايكره لنفسه من المكروه ، والذب عن أموالهم وأعراضهم وغير ذلك من أحوالهم بالقول والفعل وحثهم على التخلق بجميع ماذكرناه من أنواع النصيحة وتنشيط هممهم الى الطاعات" . انتهى (١)

وأما كيفية النصح ، فالذى فهمته من كلام أهل العلم ، أن النصيحة قد تكون سرا ، وقد تكون علانية بحسب المصلحة الشرعية فى ذلك ، ولافرق فى ذلك بين فقير وغنى ، ولا أمير ومأمور .

فمتى كانت المصلحة الشرعية تقتضى أن تكون النصيحة سرا عمل الناصح بذلك ، ومتى كانت المصلحة الشرعية تقتضى أن تكون النصيحة علانية عمل الناصح بذلك .

والناصح قد يكون فردا أو جماعة ، بحسب المصلحة الشرعية فى ذلك . والله أعلم .

وفى هذا تربية منه صلى الله عليه وسلم لأصحابه على النصيحة وأنواعها وطرقها ، وأن الناس لاتصلح أحوالهم الا بالتناصح أفرادا وجماعات فيما بينهم وأن يحب كل واحد منهم لأخيه مايحب لنفسه .

وأن الأرض لاتصلح ولايقوم فيها العدل الربانى الا بالنصيحة الى الخير وازالة الشر ، وأن هذا الأمر أى صلاح الأرض والنفس منوط بجهد الانسان الذى يبذله فى سبيل تحقيق ذلك .

فقال عن نوح عليه السلام : {أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله مالاتعلمون} (٢) .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ٣٨/٢، ٣٩ .
(٢) سورة الأعراف : آية ٦٢

وقال سبحانه عن هود عليه السلام : {أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين} (١) .

وقال عن صالح عليه السلام : {فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لاتحبون الناصحين} (٢) .

ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يربي أصحابه رضوان الله عليهم ، على الدعوة الى الله تعالى ورفع الظلم والوقوف ضده ، بطريقة لطيفة شيقة ملفتة للانتباه ، فيقول صلى الله عليه وسلم لواحد من أصحابه في احدى جلساته المباركة معهم ، وبقية الأصحاب يسمعون .

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "انصر أخاك ظالما أو مظلوما . فقال رجل : يارسول الله أنصره اذا كان مظلوما ، أفرأيت ان كان ظالما كيف أنصره ؟ قال : تحجزه أو تمنعه عن الظلم فان ذلك نصره" (٣) .

فتعجب الصحابة رضي الله عنهم من ذلك حتى قال رجل منهم : يارسول الله أنصره اذا كان مظلوما ، أفرأيت ان كان ظالما ، كيف أنصره ؟ وذلك لأن النصر عند العرب بمعنى الاعانة ، فكانوا في الجاهلية يعينون بعضهم بعضا في حق أو باطل .

وفي هذا تربية بلفت أنظار الصحابة رضي الله عنهم ، والتيقظ للمقصود ، حتى قال رجل منهم : كيف أنصره اذا كان ظالما ؟

ثم تابع رسول الله صلى الله عليه وسلم المقصود واستكمل توجيهه وموعظته لأصحابه فبين لهم كيفية نصر الأخ

---

(١) سورة الأعراف : آية ٦٨

(٢) سورة الأعراف : آية ٧٩

(٣) رواه البخاري في ٤٦ ـ كتاب المظالم ، ٤ ـ باب أعن أخاك ظالما أو مظلوما ٣/١٣٥ رقم الحديث ٢٤٤٤ .

الظالم . فقال مجيبا على التساؤل الذى وجه اليه : تحجزه أو تمنعه عن الظلم فان ذلك نصره .

فأبطل بذلك مفهوم الجاهلية من النصر ، وهو حمية الجاهلية التى كانوا عليها من اعانة القريب ظالما كان أو مظلوما على حق كان أو على باطل وهذا الخلق الجاهلى يتخلق به من ارتكست فطرته عن الهدى والرشاد وهو معلم من معالم الجاهلية ، وفى ذلك يقول شاعرهم :

اذا أنا لم أنصر أخى وهو ظالم
على القوم لم أنصر أخى حين يظلم (١)

فصحح رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المفهوم فى أذهان الصحابة ، وجعل نصر الظالم الوقوف فى وجهه عن الظلم ومنعه منه ، وبيان الصواب له واعانته على ترك الظلم وفعل الصواب ، أيا كان هذا الظالم قريبا أم بعيدا من قبيلته أو من قوم آخرين .

قال ابن بطال رحمه الله تعالى : "النصر عند العرب الاعانة ، وتفسيره صلى الله عليه وسلم لنصر الظالم بمنعه من الظلم من تسمية الشىء بما يئول اليه ، وهو من وجيز البلاغة" (٢) .

وقال البيهقى رحمه الله تعالى : "معناه أن الظالم مظلوم فى نفسه فيدخل فيه ردع المرء عن ظلمه لنفسه حسا ومعنى ، فلو رأى انسانا يريد أن يجب نفسه لظنه أن ذلك يزيل مفسدة طلبه الزنا مثلا منعه من ذلك وكان ذلك نصرا له واتحد فى هذه الصورة الظالم والمظلوم" (٣) . انتهى

فينبغى للدعاة الى الله تعالى والمربين أن يستفيدوا من هذا التوجيه النبوى الحكيم ، وهذه الطريقة التربوية

---

(١) فتح البارى ٩٨/٥ .
(٢)، (٣) نفس المرجع ٩٨/٥ .

الفائقة في ابطال كثير من أخلاق الجاهلية التي مازالت عالقة في نفوس كثير من طلبة العلم فضلا عن عامة المسلمين ، وغرس الأخلاق الاسلامية العالية وحثهم على التخلق بها بالطرق الحكيمة السديدة والمشوقة كذلك ، وتربيتهم كذلك على حب التغيير في أنفسهم وفي الناس من حولهم من حالة المرض الى حالة الصحة والعافية ، واحياء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم في حياتهم ومجمعاتهم حتى يسود الخير ويعم النفع وتحمل البركة ويثبت الأجر ان شاء الله تعالى .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "اياكم والجلوس في الطرقات . قالوا يارسول الله مالنا بد من مجالسنا نتحدث فيها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فاذا أبيتم الا المجلس فأعطوا الطريق حقه . قالوا : يارسول الله وماحق الطريق ؟ قال : غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" (١) .

ففي هذا الحديث يربي النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه رضي الله عنهم على آداب الجلوس في الطرقات والشوارع العامة التي يمر منها المسلمون والمسلمات لقضاء حوائجهم ، ويحيي في نفوسهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفعل كل خير للمسلمين ، والامتناع والكف عن كل شر وعن كل مافيه مضرة ومفسدة على النفس أو على الغير .

فيوجه صلى الله عليه وسلم الخطاب الى أصحابه قائلا

---

(١) رواه البخاري في ٤٦ ـ كتاب المظالم ، ٢٢ ـ باب أفنية الدور والجلوس فيها والجلوس على الصعدات ١٤١/٣ رقم الحديث ٢٤٦٥ .
ورواه مسلم في ٣٧ ـ كتاب اللباس والزينة ، ٣٢ ـ باب النهي عن الجلوس في الطرقات واعطاء الطريق حقه ١٦٧٥/٣ رقم الحديث ٢١٢١ .

لهم : اياكم والجلوس فى الطرقات .

فهو صلى الله عليه وسلم ينهاهم عن الجلوس فى الطرقات خوفا عليهم من الوقوع فى الاثم بسبب العجز عن أداء الحق الذى يلزمهم اذا جلسوا فى الطرقات ، "وأن دفع المفسدة أولى من جلب المصلحة ، لندبه صلى الله عليه وسلم أولا الى ترك الجلوس مع مافيه من الأجر لمن عمل بحق الطريق ، وذلك أن الاحتياط لطلب السلامة آكد من الطمع فى الزيادة" (١) .

لكن الصحابة رضى الله عنهم راجعوا المربى والمعلم صلى الله عليه وسلم ببيان أنهم لايستغنون عن الجلوس فى الطرقات فقالوا رضى الله عنهم ، يارسول الله مالنا بد من مجالسنا نتحدث فيها .

قال القاضى عياض رحمه الله تعالى : "فيه دليل على أن أمره صلى الله عليه وسلم لهم لم يكن للوجوب ، وانما كان على طريق الترغيب والأولى ، اذ لو فهموا رضى الله عنهم الوجوب لم يراجعوه هذه المراجعة" (٢) .

فقال لهم المربى الكبير صلى الله عليه وسلم : فاذا أبيتم الا المجلس ، فأعطوا الطريق حقه .

فدلهم صلى الله عليه وسلم اذا أبوا الا الجلوس فى الطرقات الى أن يعطوا الطريق حقه ، نعم ان للطريق حقا يلزم من جلس فيه ، ولذا بادر الصحابة رضى الله عنهم بالاستفسار والبحث عن هذا الحق الذى لايعرفونه ، فقالوا لمعلمهم ومربيهم صلى الله عليه وسلم : وماحق الطريق ؟

فأجابهم الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن لفت أنظارهم وشوقهم الى معرفة ذلك ، فاتجهوا اليه صاغية اليه

---

(١) فتح البارى ١١٣/٥ .
(٢) فتح البارى ١١/١١ .

آذانهم ، واعية لما سيقول قلوبهم ، ملقين بأسماعهم تجاه جوابه .

فأجابهم معلمهم ومربيهم صلى الله عليه وسلم بقوله الجامع المانع : "غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" .

قال الحافظ ابن حجر : "وقد تبين من سياق الحديث أن النهى عن ذلك للتنزيه لئلا يضعف الجالس عن أداء الحق الذى عليه ، وأشار بغض البصر الى السلامة من التعرض للفتنة بمن يمر من النساء وغيرهن ، وبكف الأذى الى السلامة من الاحتقار والغيبة ونحوها ، وبرد السلام الى اكرام المار ، وبالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الى استعمال جميع مايشرع وترك جميع مالايشرع ، وفيه حجة لمن يقول بأن سد الذرائع بطريق الأولى لاعلى الحتم لأنه نهى أولا عن الجلوس حسما للمادة ، فلما قالوا : "مالنا منها بد" ذكر لهم المقاصد الأصلية للمنع ، فعرف أن النهى الأول للارشاد الى الأصلح" (١) .

فينبغى للدعاة الى الله تعالى أن يربوا من ولاهم الله تعالى تعليمه على هذه الآداب العظيمة ، والخصال الجليلة ، والمزايا الحميدة ، التى عن طريقها يحفظ المرء نفسه من الزيغ والضلال ، وكذلك يسهم فى حفظ الآخرين من الانحراف بأمره لهم بالمعروف ، ونهيه لهم عن المنكر ، وبتقديم الخدمات الانسانية لبنى جنسه من مساعدة المحتاج واغاثة الملهوف ، وتوجيه التائه ، وتعليم الجاهل ، ونشر السلام ، وحسن الخلق معهم ، وكف الأذى عنهم ، وغض البصر عن محارمهم

---

(١) فتح البارى ١١٣/٥ .

فهذه من أنفع الأسباب لنشر الخير والعلم والصلاح بين الناس.

وذلك لأن الناس قد ملوا من كثرة الكلام ويريدون واقعا لهذه المثل والأخلاق التى أكثر الدعاة من الكلام فيها ، ولاطريق الى تجسيم وتجسيد هذه الأخلاق فى واقع الناس الا عن طريق الدعاة الى الله أنفسهم وطلبة العلم الغيورين على دينهم ، والحرص الشديد والارادة القوية فى التخلق بهذه الأخلاق العظيمة والوصايا النبوية الكريمة حتى يلمس الناس هذه الصفات حقيقة واقعية فى أخلاق الدعاة وطلابهم ، فتؤثر فيهم عندئذ لاقبله .

قال القاضى عياض : "وأما كف الأذى فالمراد به كف الأذى عن المارة بأن لايجلس حيث يضيق عليهم الطريق أو على باب منزل من يتأذى بجلوسه عليه أو حيث يكشف عياله أو مايريد التستر به من حاله ، ويحتمل أن يكون المراد كف أذى الناس بعضهم عن بعض" . انتهى (١)

وقد حصر الامام الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى الآداب الواردة فى حق الطريق من جميع الروايات التى وردت فى هذا الشأن فوجد أن مجموعها أربعة عشر أدبا نظمها فى أربعة أبيات فقال : (٢)

جمعت آداب من رام الجلوس على الطر

يق من قول خير الخلق انسانا

افش السلام وأحسن فى الكلام

وشمت عاطسا وسلاما رد احسانا

---

(١) فتح البارى ١١/١٢ .
(٢) فتح البارى ١١/١١ .

في الحمل عاون ومظلوما أعن وأغث
لهفان اهد سبيلا واهد حيرانا
بالعرف مر وانه عن نكر وكف أذى
وغض طرفا وأكثر ذكر مولانا

ثم علق بعد أن ذكر هذه الأبيات بقوله :

"وقد اشتملت على معنى علة النهي عن الجلوس في الطرق من التعرض للفتن بحضور النساء الشواب وخوف مايلحق من النظر اليهن من ذلك ، اذ لم يمنع النساء من المرور في الشوارع لحوائجهن ، ومن التعرض لحقوق الله والمسلمين مما لايلزم الانسان اذا كان في بيته وحيث لاينفرد أو يشتغل بما يلزمه ، ومن رؤية المناكير وتعطيل المعارف ، فيجب على المسلم الأمر والنهي عند ذلك ، فان ترك ذلك فقد تعرض للمعصية ، وكذا يتعرض لمن يمر عليه ويسلم عليه فانه ربما كثر ذلك فيعجز عن الرد على كل مار ، ورده فرض فيأثم ، والمرء مأمور بأن لايتعرض للفتن ، والزام نفسه مالعله لايقوى عليه ، فندبهم الشارع الى ترك الجلوس حسما للمادة ، فلما ذكروا له ضرورتهم الى ذلك لما فيه من المصالح من تعاهد بعضهم بعضا ومذاكرتهم في أمور الدين ، ومصالح الدنيا وترويح النفوس بالمحادثة في المباح دلهم على مايزيل المفسدة من الأمور المذكورة" (١) . انتهى

فكما هو واضح من كلام الحافظ أن السلف رحمهم الله تعالى لم يتخذوا الطرقات مكان لهو ولعب وفسق وفجور وأذية

---

(١) فتح الباري ١١/١١،١٢ .

للمسلمين والمسلمات كما هو واقع فى عصورنا هذه من كثير من شباب المسلمين وشبابهم كذلك .

وكذلك نساء السلف كنّ يخرجن لقضاء حوائجهن ، ولم يكن يخرجن كخروج كثير من النساء اليوم لاثارة الفتنة فى قلوب الشباب ، وللتبختر فى المشية واظهار مفاتنهن للكلاب المسعورة التى ألهب جوعها وشهواتها الأفلام الخليعة والصور العارية التى يشاهدونها فى السينما والتلفاز ، والفيديو والكلمة الماجنة الساقطة فى المجلات والجرائد الخبيثة .

فليتق الله تعالى فيهم من ولاه الله تعالى أمرهم وليحافظ على فطرهم وأخلاقهم وأن يحول بينهم وبين هذه الشرور التى ما انتشرت فى قوم الا أفسدتهم ، ولافى مدينة الا أفسدتها ، وألا فليتأهب أولئك لغضب الله وسخطه وعذابه فان عذابه أليم شديد .

ووالله ان القارئ لما أعده الله تعالى من العذاب الأليم الشديد والنار التى تتلظى فى كتاب الله تعالى ، ليتفطر قلبه من شدة الهول ، ويخيم عليه الحزن ، وتأخذه الرحمة ، ولكنه اذا نظر فى مايفعله الطغاة فى الأرض من نشر الفساد فى الأرض وارادة الفاحشة فى الذين آمنوا والوقوف ضد الخير ومنع الدعاة الى الله تعالى وتعذيبهم وتشريدهم ، هذا اذا لم يقتلوهم ، اذا رأى ذلك علم أن العذاب مكافئ لما يفعلونه ، وعند ذلك علم عدل الله تعالى وأنه لايظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

المطلب الثاني

اختيار النبي صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه لنشر الدعوة وتعليم الخير للناس بطريق واضح ميسر مع مراعاة التدرج في ذلك

لقد بدأت الدعوة المحمدية سرا كما هو معلوم ، واستمرت على ذلك ثلاث سنين ، ثم أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يجهر بها بعد أن تكونت نواة صالحة من المؤمنين (١) ، فما كان من كفار قريش الا أن ناصبوه العداء ووقفوا ضد الدعوة ، واستمر الحال على ذلك قرابة عشر سنين حتى هيأ الله تعالى لدينه الأنصار فأسلموا وأخذوا الميثاق على أنفسهم لنصرة الاسلام ورسول الاسلام .

عن محمد بن اسحاق بن يسار قال :

"فلما أراد الله عز وجل اظهار دينه ، واعزاز نبيه صلى الله عليه وسلم وانجاز موعده له ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع كل موسم ، فبينما هو عند العقبة لقي رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرا" (٢) .

عن ابن شهاب الزهري أن الأنصار بعثوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن عفراء ، ورافع بن مالك : أن ابعث الينا رجلا من قبلك يفقهنا ويدعو الناس بكتاب الله ، فانه قمن أن يتبع .

---

(١) انظر مبحث تأسيس الاعتقاد من هذه الرسالة ص ١٦٠-١٦٢ .
(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٤٣٣/٢ .

فبعث اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير ، فنزل في بني تيم على أسعد بن زرارة ، فجعل يدعو الناس سرا ، ويفشو الاسلام ، ويكثر أهله " . (١)

فبعث النبي صلى الله عليه وسلم مع الأنصار الذين أسلموا داعية ومعلما يقرئهم القرآن ، ويدعو من لم يؤمن الى الاسلام ، ويفقههم في الدين .

ذلك الداعية هو مصعب بن عمير أحد الذين تخرجوا من مدرسة الأرقم بن أبي الأرقم بمكة ، حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم يربي فيها أصحابه .

فكان مصعب رضي الله عنه يسمى بالمدينة "المقرىء" وكان يؤمهم في الصلاة . (٢)

"ولقد اختاره صلى الله عليه وسلم عن علم بشخصيته من جهة ، وعلم بالوضع القائم في المدينة من جهة أخرى ، حيث كان رضي الله عنه بجانب حفظه لما نزل من القرآن ، يملك من اللباقة ، والهدوء ، وحسن الخلق ، والحكمة قدرا كبيرا ، فضلا عن قوة ايمانه ، وشدة حماسه للدين" . (٣)

فكان يأتيه رضي الله عنه رئيس القبيلة ، وحربته في يده ، يريد قتله ، فيخاطبه بأسلوبه الهادىء الحكيم :

---

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة في باب ذكر العقبة الأولى ، وماجاء في بيعة من حضر الموسم من الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام ٤٣١/٢ .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام ٧٦/٢ ، السيرة لابن كثير ١٨٠/٢ وأضاف بعضهم أن عبد الله بن أم مكتوم كان مبعوثا مع مصعب بن عمير . انظر عيون الأثر ١٢٨/١ لابن سيد الناس دار الجيل . ويشهد لمقدمهما جميعا قول البراء : أول من قدم علينا مصعب بن عمير ، وابن أم مكتوم فجعلا يقرآننا القرآن .
رواه البخاري في ٦٣ ـ مناقب الأنصار ، ٤٦ ـ باب مقدم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة ٢٦٣/٤ .

(٣) الغرباء الأولون ص ١٨٦-١٨٧ .

"... أو تقعد فتسمع فان رضيت أمرا ورغبت فيه قبلته ، وان كرهته عزلنا عنك ماتكره " (١) فيقعد الرجل فيسمع من مصعب رضى الله عنه ثم يرجع الى أصحابه وقد انشرح قلبه للايمان ، فيدعو قومه الى الاسلام ، فان أبوا فكلامهم عليه حرام حتى يسلموا . وهذا مافعله سيد الخزرج (سعد بن عبادة) . ولذا نجح مصعب أيما نجاح فى أن ينشر الاسلام فى المدينة خلال أشهر حتى لم يبق دار من دور الأنصار الا وفيها رجال ونساء مسلمون الا القليل ، واستطاع أن يكسب للاسلام أنصارا وأعوانا من كبار زعمائها وكبرائها ، كسعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، وأسيد بن الحضير وقد أسلم باسلامهم خلق كثير من قومهم (٢) .

ثم رجع الداعية المظفر مصعب بن عمير من المهمة التى وكله عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مكة ، وخرج من خرج من الأنصار ممن أسلم على يديه رضى الله عنه الى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة ، فواعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الشعب الذى عند جمرة العقبة ، والتقى به مايزيد على السبعين منهم لقاء سريا ، وكانت الصورة واضحة وضوحا عميقا فى أذهان المبايعين حيث كانوا يدركون بعمق معنى بيعتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنها مفاصلة للناس كافة ، وتعرض للقتال والقتل (٣) . وماذلك الا نتيجة للتربية التى تلقوها من الداعية الذى تربى من قبل على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مصعب بن عمير رضى الله عنه .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤٣٧/١ .
(٢) انظر السيرة لابن هشام ٤٣٨/١ .
(٣) انظر : الغرباء الأولون ص ١٨٧ .

وكان هؤلاء الأنصار قد ائتمروا فيما بينهم فى المدينة قائلين : حتى متى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطرد فى جبال مكة ويخاف ؟ فرحلنا حتى قدمنا عليه الموسم ، فواعدنا بيعة العقبة ، فقال له عمه العباس ياابن أخى لاأدرى ماهؤلاء القوم الذين جاءوك ؟ انى ذو معرفة بأهل يثرب ، فاجتمعنا عنده من رجل ورجلين ، فلما نظر العباس فى وجوهنا قال : هؤلاء قوم لانعرفهم ، هؤلاء أحداث !! فقلنا : يارسول الله ، علام نبايعك ؟ قال : تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل ، وعلى النفقة فى العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى أن تقولوا فى الله لاتأخذكم لومة لائم ، وعلى أن تنصرونى اذا قدمت عليكم وتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم ، وأزواجكم ، وأبناءكم ، ولكم الجنة ، فقمنا نبايعه ، وأخذ بيده أسعد بن زرارة — وهو أصغر السبعين — الا أنه قال : رويدا ياأهل يثرب ، انا لم نضرب اليه أكباد المطى الا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وأن اخراجه اليوم مفارقة العرب كافة ، وقتل خياركم وأن يعضكم السيف (١). فاما أنتم قوم تصبرون عليها اذا مستكم ، وعلى قتل خياركم ، ومفارقة العرب كافة ، فخذوه وأجركم على الله ، واما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو عذر عند الله عز وجل .

فقالوا : ياسعد ، امط عنا يدك ، فوالله لانذر هذه البيعة ، ولانستقيلها ، قال : فقمنا اليه رجلا رجلا ، فأخذ

---

(١) العض : امساك الشىء بالأسنان ، ويقصد به هنا : الحرب والشدة ، انظر : القاموس المحيط ٣٤٩/٢ ، الفائق فى غريب الحديث للزمخشرى ٤٤٣/٢-٤٤٤ ، تحقيق على محمد البجاوى ، ومحمد أبو الفضل ، دار الباز .

علينا ، ليعطينا بذلك الجنة [1] .

وفي هذه البيعة عاهد الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يؤووه ، وينصروه ويمنعوه .

وبهذه البيعة المباركة انتهى عهد التشريد والتطريد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأصحابه رضي الله عنهم ، وابتدأ عهد جديد للدعوة الى الاسلام اتسم بالاستقرار ، والاستعداد لقتال المشركين كافة ، ولنشر الدعوة في جميع بقاع الأرض [2] .

قال امام المغازي محمد بن اسحاق :

"وكانت بيعة الحرب ، حين أذن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في القتال ، شروطا سوى شرطه عليهم في العقبة الأولى ، كانت الأولى على بيعة النساء وذلك أن الله تعالى لم يكن أذن لرسوله صلى الله عليه وسلم في الحرب ، فلما أذن الله له فيها ، وبايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في العقبة الأخيرة ، على حرب الأحمر والأسود ، أخذ لنفسه واشترط على القوم لربه ، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة [3] " .

---

(١) رواه الامام أحمد في المسند ٣٢٢/٣ وفيه : تخافون من أنفسكم جبينه ، وكذلك ٣٣٩/٣-٣٤٠ وقال الهيثمي : رجال أحمد رجال الصحيح . مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٤٦/٦ والبزار – كما في كشف الأستار – كتاب الهجرة والمغازي باب البيعة على الحرب رقم ١٧٥٦ ، ٣٠٧/٢ .
وابن حبان كما في الموارد ٢٧ ، كتاب المغازي ، ٢ باب البيعة على الحرب رقم ١٦٨٦ ص ٤٠٨ .
والحاكم في المستدرك : كتاب التاريخ ٦٢٤/٢ .
وقال : هذا حديث صحيح الاسناد جامع لبيعة العقبة ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .
والبيهقي في الدلائل ، باب ذكر العقبة الثانية ٤٤٢/٢ .
(٢) انظر : الغرباء الأولون ص ١٩٣ .
(٣) السيرة لابن هشام ٩٧/٢ .

فكان فى البيعة الأولى الايمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وكانت البيعة الثانية العهد على الهجرة ، والجهاد . وتتحقق بهذه العناصر الثلاثة : الايمان ، والهجرة والجهاد وجود الاسلام فى واقع جماعى ممكن (١) .

"والهجرة لم تكن لتتم لولا وجود الفئة المؤمنة المستعدة للايواء ، ولهذا قال تعالى : {ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض} (٢) . وقال سبحانه : {والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم} (٣) . وقال : {والذين آمنوا من بعد ماهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم} (٤) .

ولم تكن البيعة والهجرة والجهاد لتتم لولا انسلاخ المؤمنين الجدد من ولائهم القبلى والوطنى ، للولاء الشرعى ، وتركهم لقياداتهم العشائرية الى القيادة الاسلامية الواحدة " (٥) .

وذلك نتيجة التربية المتواصلة المركزة التى بذلها النبى المربى صلى الله عليه وسلم لأصحابه ، حتى تعلقت قلوبهم بربهم الكريم ، وحتى خلصت نفوسهم من حظ نفوسهم ، وتعلقوا بالآخرة وهم مازالوا على وجه هذه الأرض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويدعون الى الله ورسوله ، فأصبحت العقيدة الصحيحة همهم الأول الذى يبذلون فى سبيله

---

(١) انظر : الغرباء الأولون ص ١٩٤ .
(٢) سورة الأنفال : آية ٧٢
(٣) سورة الأنفال : آية ٧٤
(٤) سورة الأنفال : آية ٧٥
(٥) الغرباء الأولون ص ١٩٤ .

كل غال ورخيص ، حتى ولو كان ذلك بترك بلدهم الذى تربوا فى ربوعه ، وان كان هذا البلد هو البلد الأمين الذى احبوه من كل قلوبهم .

ولو كان كذلك الموت ، فانهم لايبالون بذلك فى سبيل الله تعالى كما جاء فى بعض نصوص البيعة : على أن الدم الدم ، والهدم الهدم ، على اثر قول الأنصار : ان بيننا وبين القوم ـ يعنى اليهود ـ حبالا ، وانا قاطعوها (١) .

"وقد كانت هذه البيعة هى التمهيد الأخير لهجرة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه الى المدينة ، وبعدها بدأ المهاجرون يغادرون أرض مكة التى درجوا عليها صغارا ، وشهدت ربوعها ومغانيها مراتع صباهم ولهوهم ، وبدأوا يغادرون الأرض التى اختارها الله لتنزل وحيه ، وجعل فيها بيته مثابة للناس وأمنا" (٢) .

وخرج معظم المسلمين حتى لم يبق بمكة الا محبوس ، أو مأسور ، أو رجل تأخر لغرض كعلى بن أبى طالب ، وأبى بكر الصديق رضى الله عنهما (٣) .

وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد تأخر ينتظر الاذن من الله تعالى ، وطلب من أبى بكر رضى الله عنه أن يكون رفيقه وصاحبه فى الهجرة ، ولما جاءه الاذن من الله بالخروج الى المدينة خرج مستخفيا عالما بما سيصيب كفار قريش من الهلع والفزع اذا علمت بخروجه ، حتى وصل الى

---

(١) رواه ابن اسحاق ، كما فى السيرة لابن هشام : أمر العقبة الثانية ٢/٨١-٨٥ ، وقال : ويقال : الهدم الهدم يعنى الحرمة ، أى ذمتى ذمتكم وحرمتى حرمتكم . السيرة ٢/٨٥ .

(٢) الغرباء الأولون ص ١٩٤ .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ٢/١٢٣،١٢٩ ، السيرة النبوية لابن كثير ٢/٢٢٧،٢٩٠ .

المدينة بعد رحلة شاقة مليئة بالمخاطر والشدائد والأهوال .(١)

"وبالبيعة المؤكدة الصريحة ، ثم بالهجرة بعدها ، وجد الاسلام موطنه الذى تنطلق منه دعاة الحق بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتنطلق منه جحافل الحق المجاهدة أول مرة ، وقامت الدولة الاسلامية المحكمة لشرع الله فى عباده ، وهو الموطن الذى يرجع اليه الاسلام من بعد" .(٢)

فاجتمع المؤمنون من شتى القبائل حول المربى والقائد صلى الله عليه وسلم وقد خلعوا من أعناقهم عبادة الطاغوت بكل صوره وأشكاله ، وتآلفت قلوبهم ، واشتد رباط الاخوة فيما بينهم أشد رباط عرفته البشرية فى تاريخها الطويل ، وأصبح انتماؤها للدين الاسلامى الحنيف مما جعلها فئة متراصة متكاتفة ، مما حقق لها أهدافا عالية عديدة .

"(أ) فهو ذو أثر كبير فى دفع الشعور بالغربة الفردية وتحويله الى شعور جاعى منتج مثمر ، وفرق كبير بين فرد يحس بغربته عمن حوله ، فيتجافى عن واقعه ، ويضرب على نفسه سورا من العزلة ، وبين فئة مترابطة متكاتفة تشعر بغربتها وتميزها ، وتعلم أن الله فضلها واختارها لتؤدى دورا عظيما فى التاريخ فيدفعها ذلك الى مزيد من التلاحم والبذل والعطاء ، ويغرس فيها شعور العزة والاستعلاء . وهذا هو الشعور الذى كان النبى صلى الله عليه وسلم يبعثه فى أصحابه فى مواقف عديدة ، فعن عائشة رضى الله عنها قالت : أعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة بالعشاء ، وذلك

---

(١) انظر : الغرباء الأولون ص ١٩٥ .
(٢) نفس المرجع ص ١٩٨ .

قبل أن يفشو الاسلام ، فلم يخرج حتى قال عمر : نام النساء والصبيان ، فخرج ، فقال لأهل المسجد : "ماينتظرها أحد من أهل الأرض غيركم" . وفى رواية :

"ولايصلى يومئذ الا بالمدينة ، وكانوا يصلون العتمة فيما بين أن يغيب الشفق ، الى ثلث الليل الأول . (١)

فهو صلى الله عليه وسلم يحيى فى نفوس أصحابه تفردهم بهذه الفضيلة ، وتميزهم بها عن غيرهم ، ليزيد من رغبتهم فى التنافس على الخير واحساسهم بفضل الله عليهم .

(ب) وهذا الترابط والانتماء من أسباب تثبيت المؤمن على دينه ، وتحريضه على الصبر عليه ، وعلى مايلقاه فى سبيله ، فالانسان مهما يكن مؤمنا تصيبه الوحشة من قلة الموافقين ، ويشعر بالاعتزاز بكثرتهم وقوتهم ، وهذه فطرة جبلية مركوزة ، لايكاد ينفك عنها الانسان ، وتزايد عدد المؤمنين – مع مايولده من العزة – هو خطوة نحو تحقيق كيان مستقل لهم ، وبناء دولة تحميهم ، ولذلك قال عمر : والله لو بلغنا ثلاثمائة لأخرجناكم منها – يعنى مكة .

(ج) وهو من أسباب التضحية والبذل والجهاد عند الصحابة ، فان شعور الانسان بانتمائه الى كيان واقعى يمثل العقيدة التى يؤمن بها ، والمنهج الذى يسير عليه ، يجعله يصب جميع طاقاته وقدراته فى سبيل دعم هذا الكيان وتقويته وحمايته .

واذا كان ارتباط الانسان بهذا الكيان – أصلا – انما هو

---

(١) رواه البخارى فى ٩ – كتاب مواقيت الصلاة ، ٢٤ – باب النوم قبل العشاء لمن غلب ١/١٦٠ رقم الحديث ٥٦٩ .
ورواه مسلم فى ٥ – كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، ٣٩ – باب وقت العشاء وتأخيرها ١/٤٤١ رقم الحديث ٦٣٨ .

بدافع الايمان ، فليس يخل بنية المرء واخلاصه ، أن تزيد رغبته فى الطاعة وحرصه عليها ، بمجاورة أهل الخير وقربهم وانما شرع الاجتماع على الخير لهذا المعنى ، وماشابهه ، ولذلك كان بعض المقبلين على الاسلام يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم من معك على هذا الأمر .

(د) ومن خلال هذا التجمع تمكن الرسول صلى الله عليه وسلم من تنسيق جهود الداعين ، بحيث تتآلف وتتكامل ، ولاتتناقض ، وتمكن كذلك من توجيهها الوجهة السليمة التى تخدم ولاتهدم ، ولذلك أبى الرسول صلى الله عليه وسلم على عباس بن عبادة بن نضلة التسرع فى قتال المشركين .

(هـ) وهو الصورة العملية التى يمكن أن تهيىء للداخلين فى الدين جوا يعينهم على الترقى فى درجات الايمان والتخلص من انحرافات البيئة المحيطة بهم"[1] . انتهى

ومن هنا أصبحت المدينة مهبط الوحى ، وقاعدة الدين ، منها غزا النبى الكريم صلى الله عليه وسلم أعداء الاسلام ، وحدث بها أكثر حديثه ، الا أن القتال بين المؤمنين والمشركين كان حائلا دون دخول كثير من قبائل العرب فى الاسلام ، كما أنه كان مانعا من وصول الدعوة الى أنحاء الجزيرة الى أن وقع الفتح الأكبر ، وهو صلح الحديبية فى السنة السادسة للهجرة[2] ، بين النبى صلى الله عليه وسلم وأهل مكة ، فعندها أمن الناس بعضهم بعضا ، وجالس بعضهم بعضا ، وتحدثوا فى شأن هذا الدين الجديد وكانت هذه الهدنة خيرا لكثير من الناس ، فقد دخل الكثير من العرب فى الاسلام[3] .

---

(١) الغرباء الأولون ص ٢٤٦-٢٤٨ .
(٢) انظر : زاد المعاد ٢٨٦/٣ .
(٣) انظر نفس المصدر السابق ٣٠٩/٣، ٣١٠ .

فكانت هذه فرصة ذهبية انتهزها النبى المربى صلى الله عليه وسلم لرسم بداية لنشر الدعوة الى الله تعالى ، خارج الجزيرة العربية بالحكمة والموعظة الحسنة ، فأرسل بعض أصحابه الى القبائل لدعوتهم الى الاسلام وتعليمهم السنن والأحكام . وبعث بعضهم بكتبه الى الملوك والجبابرة يدعوهم فيها الى الله تعالى ، ويبلغهم بدين الاسلام الحنيف .(١)

عن أنس بن مالك رضى الله عنه : "أن نبى الله صلى الله عليه وسلم ، كتب الى كسرى والى قيصر والى النجاشى ، والى كل جبار يدعوهم الى الله تعالى ، وليس بالنجاشى الذى صلى عليه النبى صلى الله عليه وسلم" .(٢)

فقد اختار النبى صلى الله عليه وسلم لهذه المهمة الضخمة من كان على جانب عظيم من الحلم واللباقة ، والهدوء والحكمة وسعة الصدر ، وكان ذا علم بالقرآن والسنة ، وعلى دراية بأسلوب الدعوة وكيفية ايصال الخير الى الناس .

فبعث صلى الله عليه وسلم دحية بن خليفة الكلبى الى قيصر ، وعبد الله بن حذافة السهمى الى كسرى ، وحاطب بن أبى بلتعة الى المقوقس عظيم القبط ، والعلاء بن الحضرمى الى المنذر بن ساوى ، وعمرو بن العاص الى ملك عمان ، وسليط بن عمرو العامرى الى صاحب اليمامة هوذة بن على ،(٣)

---

(١) انظر زاد المعاد ٣/٦٨٨-٦٩٧ ، وانظر مراسلات النبى صلى الله عليه وسلم : طبقات ابن سعد ١/٢٥٨-٢٩١ .

(٢) رواه مسلم فى ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ، ٢٧ ـ باب كتب النبى صلى الله عليه وسلم الى ملوك الكفار يدعوهم الى الله عز وجل ٣/١٣٩٧ رقم الحديث ١٧٧٤ .

(٣) سليط بن عمرو بن عبد شمس بن عبدود العامرى وكان من المهاجرين الأولين ممن هاجر الهجرتين وهو الذى أرسله النبى الى هوذة بن على الحنفى والى ثمامة بن أثال الحنفى وهما رئيسا اليمامة ، قال الطبرى قتل باليمامة سنة اثنتى عشر .
أسد الغابة ٢/٤٤٠ .

وشجاع بن وهب[(١)] الى الحارث بن أبى شمر الغسانى[(٢)] . وغيرهم من الرسل رضوان الله عليهم الى غيرهم من الملوك ، كما كاتب صلى الله عليه وسلم زعماء اليمن وحضرموت وبعض القبائل العربية .

وقد كان لهذه الكتب أثر عظيم فى نشر الاسلام حيث كان من هؤلاء الملوك والزعماء وأمراء القبائل من أسلم وحسن اسلامه ، وكان منهم من أعلن خضوعه واذعانه لحكم الله ورسوله ، ودخل فى طاعة الدولة الاسلامية ، هذا الى مالها من أهمية فى اعلان الاسلام فى أطراف الجزيرة وخارجها ، واقامة الحجة على هؤلاء الجبابرة ، وتبليغهم بيعة النبى صلى الله عليه وسلم ليكون ذلك تمهيدا لقتال من أبى الاسلام منهم .

وقد عمقت هذه الكتب الشعور عند المؤمنين بضرورة تحقيق عالمية الدعوة تحقيقا عمليا[(٣)] .

وكان صلى الله عليه وسلم يأمر هؤلاء الرسل بالتيسير فى بيان الحق للناس ، والبعد عن التعقيد والتعسير ، لأن دين الله تعالى واضح لايحتاج الى تعقيد أو تصعيب . عن أبى بردة قال : "بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا موسى ومعاذ بن جبل الى اليمن ، قال : وبعث كل واحد منهما على مخلاف . قال : واليمن مخلافان ثم قال : يسرا ولاتعسرا ، وبشرا ولاتنفرا ، فانطلق كل واحد منهما الى عمله ، وكان كل

---

(١) شجاع بن أبى وهب ويقال ابن وهب بن ربيعة بن أسد الأسدى حليف لبنى عبد شمس يكنى أبا وهب أسلم قديما وهاجر الى الحبشة الهجرة الثانية وعاد الى مكة لما بلغهم أن أهل مكة أسلموا ، ثم هاجر الى المدينة وشهد بدرا وشهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم واستشهد يوم اليمامة وهو ابن بضع وأربعين سنة . أسد الغابة ٢/٥٠٥ .

(٢) انظر : زاد المعاد ٣/٦٨٨-٦٩٧ .

(٣) انظر : الغرباء الأولون ص ٢١٩ .

واحد منهما اذا سار في أرضه كان قريبا من صاحبه أحدث به عهدا فسلم عليه " (١) .

فهاهو رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسل معاذا وأبا موسى الى اليمن داعيين الى الله تعالى كل واحد منهما فى جهة من جهات اليمن "فكانت جهة معاذ العليا الى صوب عدن ... وكان جهة أبى موسى السفلى" (٢) . أوصاهما المربى العظيم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم بالتيسير والبعد عن التعسير والتبشير والبعد عن كل مامن شأنه تنفير الناس عن الهدى والرشاد .

قال الحافظ ابن حجر فى الفتح : "قوله : "يسرا ولاتعسرا ، وبشرا ولاتنفرا" قال الطيبى : هو معنى الثانى من باب المقابلة المعنوية ، لأن الحقيقة أن يقال بشرا ولاتنذرا وآنسا ولاتنفرا ، فجمع بينهما ليعم البشارة والنذارة ، والتأنيس والتنفير . قلت (أى الحافظ ابن حجر) : ويظهر لى أن النكتة فى الاتيان بلفظ البشارة وهو الأصل ، وبلفظ التنفير وهو اللازم ، وأتى بالذى بعده على العكس للاشارة الى أن الانذار لاينفى مطلقا بخلاف التنفير ، فاكتفى بما يلزم عنه الانذار وهو التنفير ، فكأنه قيل ان أنذرتم فليكن بغير تنفير ، كقوله تعالى : {فقولا له قولا لينا} (٣) (٤) " .

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : لما بعث معاذا الى اليمن قال :

---

(١) رواه البخارى فى ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٦١ ـ باب بعث أبى موسى ومعاذ الى اليمن قبل حجة الوداع ١٢٦/٥ رقم الحديث ٤٣٤١ .
(٢) فتح البارى ٦١/٨ .
(٣) سورة طه : آية ٤٤
(٤) فتح البارى ٦١/٨ .

"انك تقدم على قوم أهل كتاب (١) ، فليكن أول ماتدعوهم اليه : عبادة الله عز وجل ، فاذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات فى يومهم وليلتهم فاذا فعلوا فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فاذا أطاعوا بها فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم" .

وفى رواية قال : "واتق دعوة المظلوم فانها ليس بينها وبين الله حجاب" (٢) .

فكان صلى الله عليه وسلم يأمر الدعاة بالتدرج والوضوح فى دعوة الناس الى الاسلام ، وأن يبدؤوا دعوتهم بالتوحيد الذى هو عبادة الله وحده ، وأن هذا الأمر هو أول واجب يجب على المكلف معرفته لاكما يقول أهل الكلام من أن أول مايجب على العبد النظر فى الأدلة أو القصد الى النظر أو الشك (٣) .

---

(١) قوله : "انك تقدم على قول أهل كتاب" . قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى : "توطئة للوصية لتستجمع همته عليها لكون أهل الكتاب أهل علم فى الجملة فلاتكون الغاية فى مخاطبتهم كمخاطبة الجهال من عبدة الأوثان ، وليس فيه أن جميع من يقدم عليهم من أهل الكتاب ، بل يجوز أن يكون فيهم من غيرهم ، وانما خصهم بالذكر تفضيلا لهم على غيرهم" . الفتح ٣/٣٥٨ .

(٢) اختلف رواة هذا الحديث فمنهم من رواه بهذا اللفظ ، ومنهم من رواه بلفظ "فادعهم الى شهادة أن لااله الا الله وأن محمدا رسول الله ، فان هم أطاعوا لك بذلك" وهم الأكثر . ومنهم من رواه بلفظ : "فادعهم الى أن يوحدوا الله ، فاذا عرفوا ذلك" .
ووجه الجمع بينها : أن المراد بالعبادة : التوحيد ، والمراد بالتوحيد : الاقرار بالشهادتين ، والاشارة بقوله ذلك الى التوحيد ، وقوله : فاذا عرفوا الله ، أى عرفوا توحيد الله ، والمراد بالمعرفة الاقرار والطواعية فبذلك يجمع بين هذه الألفاظ المختلفة فى القصة الواحدة . الفتح ١٣/٣٥٤ . والحديث سبق تخريجه ص ١٥٥ .

(٣) قد سبق الكلام عن ذلك بالتفصيل فى الفصل الأول ص ١٤٩- ١٦٤ .

كما في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه ، ففيه ابطال زعمهم الخاطىء وذلك لأن أصل العلم الالهي ومبدأه هو الايمان بالله ورسوله ، والاهتداء بوحيه ، كما قال تعالى : {قل ان ضللت فانما أضل على نفسي ، وان اهتديت فبما يوحي الى ربي انه سميع قريب}(١) . وقال تعالى : {وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ماكنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا}(٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم : "أمرت أن أقاتل الناس ، حتى يشهدوا أن لااله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فاذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم الا بحقها"(٣) .

فالرسول صلى الله عليه وسلم قد بين للناس التوحيد بأنواعه ، وأنه أول واجب ، وأول مايدعى اليه ، فلاحاجة بعد بيانه صلى الله عليه وسلم الى بيان أحد من الناس كائنا من كان .

فهاهو رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث معاذا الى اليمن ، داعية الى الله تعالى ومبلغا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيأمره الرسول بأن يدعوهم أولا وقبل كل شيء الى توحيد الله وعبادته وحده بلاشريك . وماذلك الا لأن التوحيد شرط لصحة جميع العبادات كما يدل عليه قول الله

---

(١) سورة سبأ : آية ٥٠

(٢) سورة الشورى : آية ٥٢

(٣) سبق تخريجه ص ١٥٤ ، وانظر : فتح الباري ٧٥/١ ، مسلم بشرح النووي ٢١٢/١ .

(٤) كان بعث معاذ الى اليمن سنة عشر ، قبل حجة الوداع . الفتح ٣٥٨/٣ .
وقد أشار البخاري رحمه الله تعالى الى ذلك بقوله : باب بعث أبي موسى ومعاذ الى اليمن قبل حجة الوداع . الفتح ٢٠٤/٥ .

تبارك وتعالى : {ولو أشركوا لحبط عنهم ماكانوا يعملون}(١) .

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية : "وقد علم بالاضطرار من دين الرسول صلى الله عليه وسلم واتفقت عليه الأمة ، أن أصل الاسلام ، وأول مايؤمر به الخلق شهادة أن لااله الا الله وأن محمدا رسول الله ، فبذلك يصير الكافر مسلما ، والعدو وليا والمباح دمه وماله ، معصوم الدم والمال ، ثم ان كان ذلك من قلبه فقد دخل في الايمان ، وان قاله بلسانه دون قلبه ، فهو في ظاهر الاسلام دون باطن الايمان"(٢) .

ثم تابع صلى الله عليه وسلم وصيته لمعاذ رضي الله عنه ، بقوله : "فاذا عرفوا ذلك" أي شهدوا وانقادوا وأذعنوا لأمر الله ونهيه ، فعندئذ فأخبرهم بفرضية الصلاة .

وقد استدل بعض أهل العلم على أن أهل الكتاب لم يكونوا يعرفون الله حق معرفته ، وان كانوا يعبدونه ويظهرون معرفته ، وذلك لأنهم شبهوا الله تعالى بخلقه فكان معبودهم الذي عبدوه ليس هو الله تعالى وان سموه به(٣) .

لأن من شبه الله تعالى بخلقه أو أضاف اليه الولد جاهل به سبحانه ولم يقدره حق قدره ، لأنه سبحانه لاشبيه له ولم يتخذ صاحبة ولاولدا(٤) .

ثم أمره صلى الله عليه وسلم اذا استجابوا وأذعنوا لعبادة الله تعالى ، أن يخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم ، فان هم صلوا ، وأطاعوك على ذلك فأخبرهم بأن الله افترض عليهم زكاة في أموالهم .

---

(١) سورة الأنعام : آية ٨٨
(٢) نقلا عن كتاب تيسير العزيز الحميد ص ١٠١ .
(٣) انظر فتح الباري ٣٥٩/٣ .
(٤) من كلام شيخنا الوالد عبد العزيز بن باز في تعليقه على فتح الباري ٣٥٩/٣ .

قال ابن دقيق العيد : "يحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون المراد اقرارهم بوجوب الصلاة عليهم والتزامهم لها ، والثانى : أن يكون المراد الطاعة بالفعل ، وقد يرجح الأول بأن المذكور هو الاخبار بالفريضة فتعود الاشارة بذلك اليها ويترجح الثانى بأنهم لو أخبروا بالفريضة فبادروا الى الامتثال بالفعل لكفى ولم يشترط التلفظ بخلاف الشهادتين ، فالشرط عدم الانكار والاذعان للوجوب" . انتهى (١)

وقال الحافظ تعقيبا على ذلك : "والذى يظهر أن المراد القدر المشترك بين الأمرين ، فمن امتثل بالاقرار أو بالفعل كفاه ، أو بهما فأولى ، وقد وقع فى رواية الفضل بن العلاء بعد ذكر الصلاة "فاذا صلوا" وبعد ذكر الزكاة "فاذا أقروا بذلك فخذ منهم" . (٢)

ثم أمره صلى الله عليه وسلم اذا صلوا وأقروا بها ، أن يخبرهم بأن الله افترض عليهم زكاة أموالهم ، تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم .

ثم أمره اذا أقروا بفرضية الزكاة ، أن يقبل منهم زكاة أموالهم ، وأن يقوم بجمعها منهم ، وأن يتجنب أخير وأنفس أموالهم ، لأن الزكاة انما شرعت لمواساة الفقراء ، فلايناسب ذلك الاجحاف بمال الأغنياء الا ان رضوا بذلك من غير وجوب عليهم . (٣)

ثم أوصاه أخيرا بالابتعاد عن الظلم بأنواعه ، لئلا يدعو عليه المظلوم ، لأن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب .

---

(١) فتح البارى ٣٥٩/٣ .
(٢) نفس المصدر السابق ٣٥٩/٣-٣٦٠ .
(٣) انظر فتح البارى ٣٦٠/٣ .

والنكتة فى ذكر النبى صلى الله عليه وسلم له بهذه الوصية عقب منعه من أخذ كرائم أموالهم ، لتنبيهه الى أن أخذ الكرائم ظلم (١) فعليه أن يتقى الله تعالى فى كل أحواله ، وأن يحذر مما فيه ظلم للآخرين .

فواضح من هذا الحديث أن المربى صلى الله عليه وسلم كان يأمر الدعاة بالتدرج فى تعليم الناس ودعوتهم الى الاسلام ، وأن يبدؤوا معهم بالأهم فالأهم ، وأن يتلطفوا فى خطابهم مع من يدعونه ، لأنهم لو طالبوا المدعو بجميع التكاليف فى أول الأمر لاستثقل ذلك ولم يؤمن عليه من النفرة عن الدين (٢) .

فينبغى للداعية الى الله تعالى أن يتنبه لهذا المنهج النبوى فى الدعوة الى الله تعالى ، فالخير كل الخير فى اتباع منهج النبى صلى الله عليه وسلم ، والشر كل الشر فى مخالفته والاعراض عنه .

---

(١) انظر : فتح البارى ٣٦٠/٣ .
(٢) انظر : فتح البارى ٣٥٩/٣ .

المطلب الثالث

تربية النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه على الصبر والتضحية والثقة بالتمكين دون تعجل للنتائج

كان النبى صلى الله عليه وسلم يربى أصحابه على الصبر والتضحية فى سبيل الله تعالى . عن عبد الله بن جعفر رضى الله عنه قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بياسر وعمار وأم عمار ، وهم يؤذون فى الله تعالى ، فقال لهم صلى الله عليه وسلم : "صبرا آل ياسر فان موعدكم الجنة " (١) .

ففى هذا الحديث نرى أن النبى صلى الله عليه وسلم يمر بياسر وعمار وأم عمار وهم تحت العذاب الشديد من بعض كفار قريش بسبب أنهم آمنوا بالله ورسوله ، وتبرؤوا من الجاهلية بكل صورها وأشكالها ، وطهروا قلوبهم من الشرك والتعلق

---

(١) رواه أبو أحمد الحاكم من طريق عقيل ، عن الزهرى ، عن اسماعيل بن عبد الله بن جعفر عن أبيه ، كما فى الاصابة فى ترجمة ياسر العنسي - بالنون - ورقمها ٩٢٠٩ ٣٣١/١٠ ، وفى الاستيعاب فى ترجمة ياسر ورقمها ٢٨٢٢ ، ١٠٠/١١-١٠١ ، وهذا اسناد صحيح وهو من مراسيل الصحابة انظر التهذيب ١٧٠/٥ .
والخبر رواه ابن اسحاق فى السير والمغازى مرسلا حيث قال : فحدثنى رجال من آل عمار بن ياسر ، فى باب : من عذب فى الله بمكة من المؤمنين ص ١٩٢ ، وهو فى السيرة النبوية لابن هشام فى ذكر عدوان المشركين على المستضعفين ٣٤٢/١ .
ورواه الامام أحمد من طريق عمرو بن مرة عن سالم عن عثمان ٦٢/١ ، ورواه الحاكم فى المستدرك ٣٨٨/٣ ، والطبرانى فى الأوسط من طريق أبى الزبير عن جابر ، وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى . وقال الهيثمى : رجاله رجال الصحيح غير ابراهيم بن عبد العزيز المقوم وهو ثقة . المستدرك ، كتاب معرفة الصحابة ، مناقب عمار بن ياسر ٣٨٨/١-٣٨٩ ، مجمع الزوائد ، ٤٠ ، كتاب المناقب ، باب فضل عمار بن ياسر وأهل بيته ٢٩٣/٩ .

بغير الله تعالى ، وزينوها بالتوحيد والتعلق بالله الواحد القهار .

فاغتاظ المشركون من ذلك ، فساوموهم على ايمانهم فلم يستجيبوا لاغوائهم ، وآثروا الايمان على الكفر ، فصب المشركون عليهم عندئذ العذاب ، ووقع الابتلاء على ياسر وعمار وأم عمار وغيرهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم المربى العظيم لايملك أن يدفع عنهم شيئا مما يقع عليهم فى سبيل تمسكهم بدينهم ، الا أنه كان يذكرهم بعظيم الأجر الذى ينتظرهم عند الله تعالى على صبرهم واحتسابهم ، فكان يقول لهم "صبرا آل ياسر فان موعدكم الجنة" وكانوا رضى الله عنهم موقنين بما عند الله تعالى حق اليقين ، ولذلك صبروا واحتسبوا ، لأن المربى العظيم صلى الله عليه وسلم قد رباهم على أن الابتلاء سنة جارية كما علمه ربه سبحانه وتعالى بقوله : {الم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا ءامنا وهم لايفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمنَّ الكاذبين} (١) .

وقوله تعالى : {لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ، وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور} (٢) . وكقوله تعالى : {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين} (٣) . وقوله تعالى : {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول

---

(١) سورة العنكبوت : آية ١-٣
(٢) سورة آل عمران : آية ١٨٦
(٣) سورة آل عمران : آية ١٤٢

والذين ءامنوا معه متى نصر الله ، ألا ان نصر الله قريب} . (١)
وكل هذه الآيات المدنية السابقة وأمثالها ما نزل بمكة جاءت لتثبيت قلوب المؤمنين ، وتصبيرهم على ماكان ينالهم من أذى المشركين .

فعلى الداعية الى الله تعالى أن يتفطن لهذا المقصد العظيم وهو الابتلاء وأن طريق الجنة ليس مفروشا بالورود ، وانما هو مفروش بالمشاق والدماء والدموع . فالجنة محفوفة بالمكاره والنار محفوفة بالشهوات . فلابد من التهيؤ لهذا الأمر بالصبر والتضحية والاحتساب واليقين بما عند الله تعالى للصابرين المتمسكين بدينهم الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر .

يقول الأستاذ سيد قطب : "ان الصراع والصبر عليه يهب النفوس قوة ، ويرفعها على ذواتها ، ويطهرها فى بوتقة الألم فيصفو عنصرها ويضىء ، ويهب العقيدة عمقا وقوة وحيوية ، فتتلألأ حتى فى أعين أعدائها وخصومها ، وعندئذ يدخلون فى دين الله أفواجا كما وقع ، وكما يقع فى كل قضية حق ، يلقى أصحابها مايلقون فى أول الطريق ، حتى اذا ثبتوا للمحنة انحاز اليهم من كانوا يحاربونهم ، وناصرهم أشد المناوئين وأكبر المعاندين .

على أنه ـ حتى اذا لم يقع هذا ـ يقع ماهو أعظم منه فى حقيقته ، يقع أن ترتفع أرواح أصحاب الدعوة على كل قوى الأرض وشرورها وفتنتها ، وأن تنطلق من اسار الحرص على الدعة والراحة ، والحرص على الحياة نفسها فى النهاية . وهذا الانطلاق كسب للبشرية كلها ، وكسب للأرواح التى تصل

---

(١) سورة البقرة : آية ٢١٤

اليه عن طريق الاستعلاء ، كسب يرجح جميع الآلام وجميع البأساء والضراء التى يعانيها المؤمنون ، المؤتمنون على راية الله وأمانته ودينه وشريعته . وهذا الانطلاق هو المؤهل لحياة الجنة فى نهاية المطاف .. وهذا هو الطريق .. هذا هو الطريق كما يصفه الله للجماعة المسلمة الأولى ، وللجماعة المسلمة فى كل جيل . هذا هو الطريق : ايمان وجهاد .. ومحنة وابتلاء . صبر وثبات .. وتوجه الى الله وحده . ثم يجىء النصر ثم يجىء النعيم" (١) . انتهى

عن خباب رضى الله عنه قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة وهو فى ظل الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلت : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقعد وهو محمر وجهه ، فقال : لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد مادون عظامه من لحم ، أو عصب ، ومايصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع المنشار على مفرق رأسه ، فيشق باثنين مايصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت مايخاف الا الله ، ولكنكم تستعجلون .

زاد بيان (٢) : "والذئب على غنمه" (٣) .

ففى هذا الحديث يربى النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه على الصبر والتضحية فى سبيل الله بتذكيرهم ـ بما

(١) فى ظلال القرآن ٢١٩/١ .
(٢) هو بيان بن بشر الأحمسى الكوفى المعلم ، أبو بشر ـ أحد رواة الحديث .
انظر ترجمته فى تهذيب التهذيب ٥٠٦/١ .
(٣) رواه البخارى فى ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ، ٢٩ ـ باب مالقى النبى صلى الله عليه وسلم من المشركين بمكة ٢٨٨/٤ رقم الحديث ٣٨٥٢ .

كان يعانيه ويقاسيه من كان قبلهم من المؤمنين من صنوف العذاب الشديد من تقطيع الأعضاء ، ونشر اللحم بالمنشار وغير ذلك من أنواع التعذيب . ويذكرهم كذلك بأن المستقبل لهذا الدين ، وأن الله تعالى سيتم هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لايخاف الا الله تعالى ، والذئب على غنمه ، كما هو واضح فى الحديث السابق ، فان الصحابى الجليل خباب بن الأرت رضى الله عنه يأتى الى النبى المربى صلى الله عليه وسلم يطلب منه الدعاء وطلب النصر من الله تعالى ، وقد لاقوا من المشركين شدة من العذاب والابتلاء بسبب كفرهم بالطاغوت وايمانهم بالله ورسوله .

وان أسلوب الطلب : ألا تدعو لنا ؟ ألا تستنصر لنا ؟

يوحى باللهفة الى التغيير ، وتعجل التمكين كما يوحى بما لاقاه الصحابة رضوان الله عليهم من شدة العذاب ، وثقل الجهد ، وحدة البلوى التى أصابتهم بسبب تمسكهم بدينهم وترك عبادة الأوثان التى كان عليها الآباء والأجداد .

يقول الأستاذ سيد قطب عند قول الله تعالى : {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟ ألا ان نصر الله قريب}(١) يقول : "هكذا خاطب الله الجماعة المسلمة الأولى ، وهكذا وجهها الى تجارب الجماعات المؤمنة قبلها ، والى سنته سبحانه فى تربية عباده المختارين ، الذين يكل اليهم رايته ، وينوط

---

(١) سورة البقرة : آية ٢١٤

بهم أمانته فى الأرض ومنهجه وشريعته . وهو خطاب مطرد لكل من يختار لهذا الدور العظيم .

وانها لتجربة عميقة جليلة مرهوبة ، ان هذا السؤال من الرسول والذين آمنوا معه . من الرسول الموصول بالله ، والمؤمنين الذين آمنوا بالله . ان سؤالهم : "متى نصر الله ؟" ليصور مدى المحنة التى تزلزل مثل هذه القلوب الموصولة . ولن تكون الا محنة فوق الوصف ، تلقى ظلالها على مثل هاتيك القلوب ، فتبعث منها ذلك السؤال المكروب : "متى نصر الله ؟" وعندما تثبت القلوب على مثل هذه المحنة المزلزلة ، عندئذ تتم كلمة الله ، ويجىء النصر من الله : {ألا ان نصر الله قريب}" .(١)

فالصحابة رضوان الله عليهم ـ كما هو واضح فى حديث خباب ـ كانوا يفتنون فى دينهم ، وكان المشركون يستعلون عليهم بالعذاب ، وقد يموت منهم من يموت تحت العذاب كياسر وزوجه رضوان الله عليهم . ولذا فان بعضهم تضايق من العذاب الذى صب عليهم من المشركين فجاؤوا يشتكون الى النبى صلى الله عليه وسلم ويطلبون منه الدعاء لهم وأن ينزل الله عليهم النصر وأن يخرجهم من هذه الشدة التى هم فيها .

لكن النبى صلى الله عليه وسلم غضب حتى احمر وجهه ، وقعد من ضجعته وخاطب الصحابة بأسلوب قوى التأثير ، ثم عاتبهم بعد ذلك على الاستعجال .

---

(١) فى ظلال القرآن ٢١٨/١، ٢١٩ .

ومـاذلك الا لعلمـه صلى اللـه عليـه وسلم بأن الأمور مرهونـة بأسبابها ومرتبطة بأوقاتها ، وأنه لابد قبل النصر من دفع الثمن كاملا . وفي هذا تربية لهم على الصبر والتحمل وعدم العجلة ، وأنه لابد من الابتلاء ولابد من الصبر الطويل مع اليقين الكامل بوعد الله تعالى . كما قال تعالى : {حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا} (١) .

وكما جاء في الحديث الصحيح : "أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه فان كان في دينه صلابة اشتد بلاؤه ، وان كان في دينه رقة ابتلى على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وماعليه خطيئة" (٢) .

فربى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه على التأسي بالسابقين في تحمل الأذى في سبيل الله تعالى .

والتعلق بما أعده الله تعالى لعباده الصابرين في الجنة من النعيم المقيم ، وبما أعده للكافرين الذين يؤذون المؤمنين في النار من العذاب الأليم ، والتطلع للمستقبل الذي ينصر الله فيه الاسلام وأهله في هذه الحياة الدنيا ، وأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، والذلة والصغار لأهل الشرك والعصيان (٣) .

"وثمت أمر آخر كبير ألا وهو : أنه صلى الله عليه وسلم مع هذه الأشياء كلها كان يخطط ويستفيد من الأسباب المادية المتعددة ، لرفع الأذى والظلم عن أتباعه ، وكف المشركين عن

---

(١) سورة يوسف : آية ١١٠

(٢) رواه الترمذي في كتاب الزهد وقال : هذا حديث حسن صحيح ٤/٥٢٠ ، ورواه أحمد في مسنده ١٧٢/١ ، وابن ماجه في كتاب الفتن ١٣٣٤/٢ .

(٣) انظر : الغرباء الأولون ص ١٤٥،١٤٦ .

فتنتهم ، واقامة الدولة التى تجاهد فى سبيل الدين ، وتتيح الفرصة لكل مسلم أن يعبد ربه حيث شاء ، ويزيل الحواجز والعقبات التى تعترض طريق الدعوة الى الله . قال الله تعالى : {وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله} (١) . فالمسلم يعبد الله بالصبر والتحمل ويعبده باتباع كافة الوسائل المؤدية - باذن الله - الى دفع الغربة عن المؤمنين ، ورفع الضر عن المستضعفين" (٢) .

فعلى الداعية أن يعبد الله تعالى بالصبر الجميل ، وأن يتحمل الأذى فى سبيل الله تعالى والدعوة اليه ، وأن يعبده كذلك باتخاذ الأسباب والوسائل المشروعة التى تؤدى الى دفع الأذى والمشقة عن الأتباع، والحيلولة دون ذلك ما أمكن .

ولنعتبر معاشر المؤمنين من هذا الحديث العظيم ، فانه يحكى حال قوم تحملوا المشاق وأصناف العذاب ليبقى لهم ايمانهم فى قلوبهم ، ولكى يوصلوا هذا الايمان وهذه الدعوة المباركة الى أمم الأرض كلها .

ثم انه من المؤسف جدا أن نرى بعض مسلمى عصرنا قد باعوا ذلك الايمان العزيز للشيطان بأبخس الأثمان من شهوة طائشة ، أو منصب زائل ، أو كلمة جوفاء ، أو مال حقير ، فيالها من صفقة (٣) .

عن عدى بن حاتم قال : "بينا أنا عند النبى صلى الله عليه وسلم اذ أتاه رجل فشكا اليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكا اليه قطع السبيل ، فقال : ياعدى هل رأيت الحيرة ؟

---

(١) سورة البقرة : آية ١٩٣
(٢) الغرباء الأولون ص ١٤٦ .
(٣) انظر التفسير السياسى للسيرة د. محمد رواس قلعجى ، ص ٦٥ دار السلام ، بيروت .

قلت : لم أرها ، وقد أنبئت عنها . قال : فان طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لاتخاف أحدا الا الله - قلت فيما بيني وبين نفسي فأين دعار طىء الذين قد سعروا البلاد ؟ - ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى . قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : كسرى بن هرمز . ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلايجد أحدا يقبله منه . وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له ، فيقولن : ألم أبعث اليك رسولا فيبلغك ؟ فيقول : بلى . فيقول : ألم أعطك مالا وأفضل عليك ؟ فيقول : بلى . فينظر عن يمينه فلايرى الا جهنم ، وينظر عن يساره فلايرى الا جهنم . قال عدى سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة .

قال عدى : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لاتخاف الا الله ، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بكم حياة لترون ماقال النبى أبو القاسم صلى الله عليه وسلم : يخرج ملء كفه " (١) .

ففى هذا الحديث يغتنم النبى صلى الله عليه وسلم الفرصة فى تربية أصحابه رضوان الله عليهم على التطلع للمستقبل الذى ينصر الله فيه الاسلام فى هذه الحياة الدنيا ويذل فيه أهل الشرك والعصيان .

فبينما النبى صلى الله عليه وسلم جالس بين أصحابه وفيهم عدى بن حاتم رضى الله عنه ، اذ أتاه رجلان من

---

(١) رواه الامام البخارى فى ٦١ - كتاب المناقب ، ٢٥ - باب علامات النبوة فى الاسلام ٢١٢/٤ رقم الحديث ٣٥٩٥ .

المسلمين . فشكا أحدهما اليه الفقر وشظف العيش ، وشكا اليه الآخر شدة الخوف وقطع الطريق وعدم الأمن .

فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم أن شكوى الرجلين قد تدخل الحزن الى قلوب الحاضرين ، اغتنمها فرصة فجعل الحديث عن المستقبل القريب للاسلام الذى يبدل الحزن سرورا ، والجزع فرحا ، والخوف أمنا ، فسبحان من ألهمه الحكمة والسداد .

فوجه الخطاب الى عدى بن حاتم رضى الله عنه ، وبقية الصحابة يسمعون مايدور فى المجلس .

فقال صلى الله عليه وسلم لعدى : فان طالت بك حياة لترين الظعينة (١) ، ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لاتخاف أحدا الا الله . ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى بن هرمز . ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلايجد أحدا يقبله منه ، لعدم وجود الفقراء فى ذلك الزمان . فقال عدى رضى الله عنه : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لاتخاف الا الله ، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز . ثم قال رضى الله عنه : ولئن طالت بكم حياة لترون ماقاله النبى أبو القاسم صلى الله عليه وسلم : يخرج الرجل ملء كفه .

وقد وقع هذا الأمر الذى لم يره عدى رضى الله عنه فى عهد الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، كما

---

(١) الظعينة : المرأة فى الهودج ، وهو فى الأصل اسم للهودج . النهاية فى غريب الحديث والأثر ١٥٧/٣ .

جزم بذلك الامام البيهقى وأخرج فى "الدلائل" من طريق يعقوب ابن سفيان[(١)] بسنده الى عمر بن أسيد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قال : "انما ولى عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفا : ثلاثين شهرا ، لاوالله مامات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول ، اجعلوا هذا حيث ترون فى الفقراء ، فما يبرح حتى يرجع بماله يتذكر من يضعه فيهم فلايجده فيرجع بماله قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس"[(٢)] .

قال البيهقى : "فيه تصديق ماروينا فى حديث عدى بن حاتم"[(٣)] . انتهى

هكذا كان يربى النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه رضوان الله عليهم على التطلع للمستقبل ، وأن الله سينصر دينه وجنده ، وأن الأحوال لن تبقى على حالة واحدة ، من الفقر و الخوف بسبب تفشى الشرك وتغلب الجاهلية ، وانما سيتغير الحال من هذه الحال البائسة التى شكا منها الرجلان الى حال ينتشر فيها الاسلام ، ويعم فيها الخير ويسود فيها الأمن والاستخلاف ، فما عليهم الا أن يصبروا على كل مايلاقونه فى سبيل ايمانهم وتمسكهم بدينهم ، وأن يثبتوا عليه حتى يأتى نصر الله ، وهو آت لامحالة .

وعليهم كذلك أن يبذلوا جهدهم فى اقامة حكم الله تعالى فى أرضه وأن ينشروا دعوته فى الآفاق ثم ينتظروا وعد الله تعالى بالنصر والتمكين .

---

(١) هو يعقوب بن سفيان بن جوان الفارسى أبو يوسف الفسوى الحافظ صاحب التصانيف المشهورة ، روى عن أحمد بن عبد الله بن يونس ، وآدم بن أبى اياس ، روى عنه الترمذى والنسائى وأبو بكر بن أبى داود .
تهذيب الكمال ٣٢٤/٣٢ .

(٢) ، (٣) دلائل النبوة للامام البيهقى ٤٩٣/٦ .

وبالفعل نصر الله دينه ، واستخلف المسلمون الأول فى الأرض ، ومكن لهم دينهم الذى رضيه لهم سبحانه ، وبدل خوفهم أمنا ، حينما وفوا بالشرط الذى اشترطه الله عليهم وهو عبادته وحده لاشريك له . كما قرر ذلك فى كتابه سبحانه بقوله : {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون} (١) .

"ففى هذه الآية من الدلالة على صحة النبوة للاخبار بالغيب على ماهو عليه قبل وقوعه مالايخفى ، فقد أنجز الله وعده ، وأظهرهم على جزيرة العرب ، وافتتحوا بعد بلاد المشرق والمغرب . ومزقوا ملك الأكاسرة وملكوا خزائنهم واستولوا على الدنيا ، وصاروا الى حال يخافهم كل من عداهم" (٢) .

وقال تعالى : {واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال انى جاعلك للناس اماما ، قال ومن ذريتى ؟ قال : لاينال عهدى الظالمين} (٣) .

وقال تعالى : {فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ، يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا ، وان يأتهم عرض مثله يأخذوه . ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله الا الحق ودرسوا مافيه ؟ والدار الآخرة خير للذين يتقون . أفلا تعقلون} (٤) .

---

(١) سورة النور : آية ٥٥
(٢) محاسن التأويل للقاسمى ٤٥٤٦/١٢ .
(٣) سورة البقرة : آية ١٢٤
(٤) سورة الأعراف : آية ١٦٩

وقال تعالى : {فهل ينظرون الا سنة الأولين ؟ فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا} (١) .

يقول الأستاذ محمد قطب حفظه الله تعالى : "ومقتضى هذه السنن كلها أن الله قد تكفل للمؤمنين بالاستخلاف والتمكين فى الأرض والتأمين مقابل شرط واحد : {يعبدوننى لايشركون بى شيئا} . وقد تحقق هذا الوعد بالفعل للمسلمين - بصورة تاريخية باهرة - طالما كانوا على الشرط الذى اشترطه الله عليهم .

وقد اقتضت سنة الله (الواردة فى قصة ابراهيم عليه السلام) أن العهد الربانى لاينال بوراثة الدم ، انما بوراثة العقيدة . أى بالاستمرار فى العمل بها فى واقع الحياة . فاذا انحرفت الذرية وظلمت فان الله لايحابيها لمجرد كونها ذرية قوم مؤمنين ، لابد أن تكون هى بذاتها مؤمنة بالفعل ليتحقق لها العهد ، ولكن عهد الله لاينال الظالمين ، ولو كانوا من ذرية قوم مؤمنين ، وقد تحققت سنة الله - بلا مجاملة - مع المسلمين حين انحرفوا عن طريق الله ، فزال عنهم رويدا رويدا الاستخلاف والتمكين والتأمين حتى اذا وصلوا الى حد أن يوصفوا بأنهم "خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا" وهو واقع "المسلمين" اليوم ، فقد زال عنهم تماما كل استخلاف وتمكين وتأمين ، وصاروا الى الغثاء الذى تتداعى عليه الأمم لتفتك به كما تتداعى الأكلة الى قصعتها ، كما حدث الرسول صلى الله عليه وسلم" (٢) . انتهى

---

(١) سورة فاطر : آية ٤٣
(٢) دراسات قرآنية ص ٥٠١،٥٠٢ .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : "احتفر رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق ، وأصحابه قد شدوا على بطونهم من الجوع . ثم مشوا الى الخندق فقال : اذهبوا بنا الى سلمان ، واذا صخرة بين يديه قد ضعف عنها ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه : دعونى فأكون أول من ضربها ، فقال بسم الله ، فضربها فوقعت فلقة ثلثها فقال : الله أكبر قصور الروم ورب الكعبة ، ثم ضرب أخرى فوقعت فلقة ، فقال : الله أكبر قصور فارس ورب الكعبة ، فقال عندها المنافقون : نحن بخندق وهو يعدنا قصور فارس والروم" (١) .

وفى هذا الحديث يبشر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه رضوان الله عليهم بأن الله سيفتح لهم فارس والروم بشرهم بذلك فى وقت قد بلغ الخوف من قلوبهم مداه ، وتكالبت عليهم أحزاب الكفر والنفاق ، وكان الواحد منهم لايأمن على نفسه من شدة الرعب ، ومن شدة الجوع كذلك ، وماذلك الا تربية لهم على الصبر والثبات وأن المستقبل لهذا الدين مهما انتفش الباطل وعلا جبروت الكفر والطغيان . وفى هذا رفع لمعنوياتهم رضوان الله عليهم .

فهاهو رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ المعول ويضرب تلك الصخرة التى استعصت على سلمان الفارسى رضى الله عنه وهم يحفرون الخندق فسمى الله تعالى ، وضرب الصخرة فوقع ثلثها على الأرض ، فقال صلى الله عليه وسلم : الله أكبر قصور الروم ورب الكعبة ، ثم ضربها مرة أخرى فوقع الثلث الآخر ، فقال : الله أكبر قصور فارس ورب الكعبة .

---

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ١٣٤/٦ ، ١٣٥ للهيثمى ، وقال : رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن أحمد بن حنبل ونعيم العنبرى وهما ثقتان .

فالمربى العظيم صلى الله عليه وسلم يلفت أنظار أصحابه الى أن يتطلعوا للمستقبل القريب ، وأن الله سينصر دينه ويعز حزبه ، ويعلى كلمته ، وفى هذا تسرية عن نفوسهم وادخال السرور الى قلوبهم وتخفيف مما هم فيه من حالة الرعب والجوع ، وأن عليهم أن يبذلوا جهدهم ويأخذوا بالأسباب التى أمروا باتخاذها ، وأن يصبروا ويحتسبوا ، فان النصر قريب ، وأن كل ماهو آت قريب باذن الله تعالى .

ومن ثم اطمأنت نفوس الصحابة رضوان الله عليهم وأيقنوا بما وعدهم به رسولهم صلى الله عليه وسلم ، وصدقوا بكل ما أخبرهم به .

أما المنافقون فكانوا على عكس حال المؤمنين متشككين فى وعده صلى الله عليه وسلم غير موقنين بأن المستقبل لهذا الدين . ولذا قالوا كلمة الكفر : نحن بخندق وهو يعدنا قصور فارس والروم .

ولقد وقع ما أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم وفتح الله للمسلمين فارس والروم بعد وفاته صلى الله عليه وسلم وفى هذا تربية منه صلى الله عليه وسلم للصحابة رضوان الله عليهم ، ولمن تبعهم باحسان الى يوم الدين بأن النصر مرتبط بالسنن الالهية الأزلية وأن الأمور مرهونة بأوقاتها وأسبابها وأنه لابد قبل النصر من دفع الثمن كاملا ولو كان الرسول صلى الله عليه وسلم موجودا ، فليست المسألة ربط الفتوحات باسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانما لابد من أن يبرهن المؤمنون على صدق ايمانهم ، وأن يحققوا ماأبرموه مع ربهم فى قوله تعالى : {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون

ويقتلون وعدا عليه حقًا في التوراة والانجيل والقرآن} (١) .

فلابد من المثابرة على الدعوة الى الله تعالى ، والصبر الطويل الذى لاعجلة فيه ، واليقين التام بوعد الله ورسوله ، وأن المستقبل للاسلام ، وأن نحسن التأسى بالرسول صلى الله عليه وسلم فى التعلق بالله تعالى ، والاعتماد عليه ، واتخاذ الأسباب المشروعة لتحقيق المطلب المراد وهو اعلاء كلمة الله تعالى واقامة العدل الربانى فى أنفسنا وفى أرض الله تعالى جميعا .

"فالايمان ليس كلمة تقال انما هو حقيقة ذات تكاليف ، وأمانة ذات أعباء ، وجهاد يحتاج الى صبر ، وجهد يحتاج الى احتمال . فلايكفى أن يقول الناس : آمنا ، وهم لايتركون لهذه الدعوى حتى يتعرضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم خالصة قلوبهم ، كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به - وهذا هو أصل الكلمة اللغوى وله دلالته وظله وايحاؤه - وكذلك تصنع الفتنة بالقلوب . هذه الفتنة على الايمان أصل ثابت ، وسنة جارية فى ميزان الله سبحانه .. لأن الايمان أمانة الله فى الأرض لايحملها الا من هم لها أهل وفيهم على حملها قدرة ، وفى قلوبهم تجرد لها واخلاص . والا الذين يؤثرونها على الراحة والدعة ، وعلى الأمن والسلامة ، وعلى المتاع والاغراء وانها لأمانة الخلافة فى الأرض ، وقيادة الناس الى طريق الله وتحقيق كلمته فى عالم الحياة ، فهى أمانة كريمة ، وهى

---

(١) سورة التوبة : آية ١١١ . وانظر منهج الدعوة النبوية فى المرحلة المكية للشيخ على بن جابر الحربى ص ٣٥٨ ، الزهراء للاعلام العربى ، الطبعة الأولى .

أمانة ثقيلة ، وهى من أمر الله يضطلع بها الناس ، ومن ثم تحتاج الى طراز خاص يصبر على البلاء .. وما بالله - حاشا لله - أن يعذب المؤمنين بالابتلاء ، وأن يؤذيهم بالفتنة ولكنه الاعداد الحقيقى لتحمل الأمانة ، فهى فى حاجة الى اعداد خاص لايتم الا بالمعاناة العملية للمشاق ، والا بالاستعلاء الحقيقى على الشهوات ، والا بالصبر الحقيقى على الآلام ، والا بالثقة الحقيقية فى نصر الله أو فى ثوابه ، على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء" . انتهى (١)

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : خرج علينا النبى صلى الله عليه وسلم يوما فقال : "عرضت على الأمم ، فجعل يمر النبى معه الرجل ، والنبى معه الرجلان ، والنبى معه الرهط ، والنبى ليس معه أحد ..." (٢) .

وفى هذا الحديث يبين النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه مهمة الداعية الى الله تعالى ويربيهم على ذلك ، وأن مهمة الداعية الى الله تعالى البلاغ والدعوة الى دين الله تعالى ، وتبصير الناس وتوضيح الطريق المستقيم لهم ، وأما دخول الناس فى الدين وانشراح صدورهم للاسلام فهذا أمر قد تكفل الله به .

فهاهو النبى صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه عرضت على الأمم ، فرأى صلى الله عليه وسلم الأنبياء وأتباعهم ، فكانوا يتفاوتون فى عدد أتباعهم ، فرأى النبى وماتبعه الا رجل واحد من أمته . ورأى نبيا آخر وماتبعه الا رجلان من

---

(١) فى ظلال القرآن ٥/٢٧٢٠-٢٧٢١ .
(٢) جزء من حديث رواه البخارى فى ٧٦ - كتاب الطب فى ٤٢ - باب من لم يرق ٣٤/٧ رقم الحديث ٥٧٥٢ .
جزء من حديث رواه مسلم فى ١ - كتاب الايمان ، ٩٤ - باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولاعذاب ١٩٩/١ رقم الحديث ٢٢٠ .

أمته . ورأى ثالثا وقد استجاب له مادون العشرة من قومه ، ومر على رابع ولم يستجب له أحد .

فياسبحان الله ! ماالذى جرى . هل قصر ذلك النبى فى دعوته ؟

حاشا وكلا فان الأنبياء جميعا لم يقصروا فى دعوتهم وفى بيان الحق لأقوامهم ، فقد بذلوا جهدهم فى البلاغ والدعوة الى التوحيد ، ومامن خير الا ودل كل نبى أمته عليه ومامن شر الا وحذر أمته عنه . فكل أنبياء الله تعالى قد أدوا الأمانة ونصحوا الأمة ، وكشفوا الغمة ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، ولم يفرطوا فى البلاغ والدعوة الى الله تعالى وكان المستجيب لهم أقل القليل ، وقد أعظم الله لهم الأجر والمثوبة ورضى عنهم سبحانه ، لأنه تعالى لم يجعل الأجر مرتبطا بكثرة الأتباع وقلتهم ، ولم يجعل ذلك معيارا لمعرفة كون الداعية على حق أو باطل ، وانما جعل مناط الأجر والمثوبة فى بذل الوسع والاجتهاد فى البلاغ والتربية ، واغتنام الفرص فى البيان وترغيب الناس الى الهداية ، ثم ان نتيجة هذا العمل قد تكفل الله بها فهى خصوصية من خصوصيته سبحانه كما قال تعال : {انك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء} (1) ، وقال تعالى : {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام} (2) .

"فأخرج هذا الأمر - أمر الهداية من حصة رسول الله صلى الله عليه وسلم - وجعله خاصا بارادته سبحانه وتقديره . وماعلى الرسول الا البلاغ . وماعلى الداعين بعده الا النصيحة

---

(١) سورة القصص : آية ٥٦
(٢) سورة الأنعام : آية ١٢٥

والقلوب بعد ذلك بين أصابع الرحمن ، والهدى والضلال وفق مايعلمه من قلوب العباد واستعدادهم للهدى أو للضلال" (١) .

وعلى هذا الأمر العظيم ربى النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه وبين أن مهمتهم الدعوة والبلاغ ، وأن كل داعية انما هو بمثابة الأجير عند الله تعالى يأخذ أجره اذا انتهى من عمله وأخلص فيه .

"ولاشك أن الحركة بهذا الدين فى واقع الحياة هى من أعظم أسباب احتفاظ الداعية بايمانه ، بل من أعظم أسباب نماء الايمان وزيادته ، وتعمقه فى القلب ، ومخالطته لذرات النفس .

ذلك أن الداعى الذى جعل همه دعوة الناس الى هذا الدين سوف تتكيف مشاعره مع دعوته ، فيحزن من أجل دعوته ، ويفرح من أجلها ، ويغضب ويرضى ، ويحب ويكره من أجلها .. فتصطبغ روحه ومشاعره بهذه الدعوة وتصبح دعوته جزءا لايتجزأ من حياته وشخصيته وتكوينه ، وهذه ضمانة قوية للصبر والثبات على هذا الدين" (٢) .

ويقول الأستاذ سيد قطب : "فلايكفى أن يجاهد المؤمنون ، انما هو الصبر على تكاليف هذه الدعوة أيضا ، التكاليف المستمرة المتنوعة التى لاتقف عند الجهاد فى الميدان . فربما كان الجهاد فى الميدان أخف تكاليف هذه الدعوة التى يطلب لها الصبر ، ويختبر بها الايمان . انما هنالك المعاناة اليومية التى لاتنتهى : معاناة الاستقامة على أفق

---

(١) فى ظلال القرآن ٢٧٠٣/٥ .
(٢) الغرباء الأولون ص ١٣٤ .

الايمان ، والاستقرار على مقتضياته فى الشعور والسلوك ، والصبر فى أثناء ذلك على الضعف الانسانى فى النفس وفى الغير ، ممن يتعامل معهم المؤمن فى حياته اليومية ، والصبر على الفترات التى يستعلى فيها الباطل وينتفش ويبدو كالمنتصر ، والصبر على طول الطريق وبعد الشقة وكثرة العقبات ، والصبر على وسوسة الراحة وهفوة النفس لها فى زحمة الجهد والكرب والنضال ، والصبر على أشياء كثيرة ليس الجهاد فى الميدان الا واحدا منها ، فى الطريق المحفوف بالمكاره ، طريق الجنة التى لاتنال بالأمانى وبكلمات اللسان" [(١)] . انتهى

---

(١) فى ظلال القرآن ٤٨٣/١ .

المطلب الرابع

تكليفه صلى الله عليه وسلم أصحابه حسب قدراتهم ومواهبهم

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يراعي مواهب وقدرات أصحابه رضوان الله عليهم ، وينميها ، ثم يكلف كل فرد منهم بالعمل الذي يراه مناسبا له حسب قدرته وطاقته ومواهبه ، فقد راعى صلى الله عليه وسلم في تكليفه بالمهام الادارية والمواقف الشجاعة ذوي الخبرة والقدرة أمثال علي ابن ابي طالب كرم الله وجهه ، فانه عندما اجتمعت قريش في دار الندوة وأجمعوا على قتل النبي صلى الله عليه وسلم والتخلص منه ، أوحى الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بذلك ، فأمر علي بن أبي طالب ، أن ينام في فراشه تلك الليلة (١) ، والأعداء قد أحاطوا بالبيت يتربصون به ليقتلوه ، فنام رضي الله عنه في فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعلم الأخطار التي تكتنفه ، وأن الأعداء لايفرقون بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم في مضجعه ، فلربما يقتلونه ظنا منهم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلايقدم على ذلك الا أبطال الرجال وشجعانهم ، ولهذا وقع اختيار رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذه المهمة الشاقة على علي بن أبي طالب وكلفه بهذه المغامرة عن معرفة ودراية لمواهبه وقدراته رضي الله عنه .

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٤٨٢/١ .

وأمره أيضا بأن يقوم بالأعمال الادارية نيابة عنه صلى الله عليه وسلم ، فأمره بأن يقيم بمكة أياما لكى يؤدى الأمانات والودائع والوصايا التى كانت عنده صلى الله عليه وسلم الى أصحابها من أعدائه المشركين كاملة غير منقوصة (١) .

وهذا من أعظم العدل الذى أمر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بقوله : {ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ان الله نعما يعظكم به ان الله كان سميعا بصيرا} (٢) .

واختار رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا رضى الله عنه يوم خيبر لحمل الراية ، فقال صلى الله عليه وسلم : "لأعطين هذه الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، يفتح الله على يديه" ، فبات الناس يدوكون أيهم يعطاها ، فلما أصبح الناس ، غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو أن يعطاها ، فقال : "أين على بن أبى طالب ؟" فقالوا : يارسول الله ، هو يشتكى عينه . قال : "فأرسلوا اليه" فأتى به ، فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عينه ، ودعا له ، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية" (٣) .

واختار يوم الأحزاب حذيفة بن اليمان رضى الله عنه ليدخل بين صفوف الأعداء ويأتى بخبر القوم . عن الأعمش بن ابراهيم التيمى عن أبيه قال : كنا عند حذيفة ، فقال له

---

(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٦٦ ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، الطبعة الأولى ، المكتبة التجارية سنة ١٣٧١هـ .

(٢) سورة النساء : آية ٥٨

(٣) رواه البخارى فى ٦٤ - كتاب المغازى ، ٣٩ - باب غزوة خيبر ٩٠/٥ رقم الحديث ٤٢١٠ .
ورواه مسلم فى ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، ٤ - فضائل على بن أبى طالب رضى الله عنه ١٨٧١/٤ رقم الحديث ٢٤٠٥ .

رجل : لو أدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلت معه وأبليت ، فقال له حذيفة : أنت كنت تفعل ذلك ؟ لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب فى ليلة ذات ريح شديدة وقر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ألا رجل يأتينى بخبر القوم يكون معى يوم القيامة" ، فلم يجبه منا أحد ، ثم الثانية ، ثم الثالثة مثله ، ثم قال : "ياحذيفة ، قم فأتنا بخبر القوم" فلم أجد بدا اذ دعانى باسمى أن أقوم ، فقال : "ائتنى بخبر القوم ولاتذعرهم على" فمضيت كأنما أمشى فى حمام حتى أتيتهم ، فاذا أبو سفيان يصلى ظهره بالنار ، فوضعت سهما فى كبد قوسى وأردت أن أرميه ، ثم ذكرت قول النبى صلى الله عليه وسلم : "لاتذعرهم على" ولو رميته لأصبته فرجعت كأنما أمشى فى حمام ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأصابنى البرد حين رجعت وقررت ، فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألبسنى من فضل عباءة كانت عليه يصلى فيها ، فلم أبرح نائما حتى الصبح ، فلما أن أصبحت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "قم يانومان" (١) .

"فكان اختيار حذيفة بن اليمان رضى الله عنه لهذه المهمة الشاقة والخطيرة ، وفى ذلك الجو المتأزم ، شديد البلاء ، عظيم المحن ، والذى كادت تميل فيه نفوس الصحابة الى مالم يكن من أخلاقها ، كان اختيارا عن علم من رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدرات ومواهب حذيفة رضى الله عنه ، فقد اجتمعت فيه صفات الفدائى المغامر العليم بمهمته ،

---

(١) رواه مسلم فى ٣٢ - كتاب الجهاد والسير ، ٣٦ - باب غزوة الأحزاب ١٤١٤/٣ رقم الحديث ١٧٨٨ .

ودخل بين الأحزاب ، فى شدة الظلام ، وشدة البرد دخول الفدائى الذى تكتنفه المخاطر من جميع الجهات ، وهو لايبالى فكان ثابت اليقين ، راسخ الايمان ، زكى الفؤاد ، متماسك الشخصية خبيرا بتصرف الأمور اذا تأزمت ، سريع البادرة ، حاذق الرأى . وهذه هى الصفات التى يجب أن تتوافر فى الأفراد والجماعات الذين يكونون موضع الثقة الخاصة للقيادة عند اشتداد الأزمات ، واستحكام الأخطار" (١) .

ولهذا كان رضى الله عنه صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كما راعى صلى الله عليه وسلم فى تكليفه بالمهام البيانية والرد على الهاجين،ذوى الخبرة والمهارة فى هذا الباب أمثال عبد الله بن رواحة ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك .

قال الامام ابن سيرين : "كان شعراء رسول الله صلى الله عليه وسلم : عبد الله بن رواحة ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ... فكان حسان وكعب يعارضان المشركين بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ، وكان ابن رواحة يعيرهم بالكفر ، وينسبهم اليه ، فلما أسلموا وفقهوا ، كان أشد عليهم" (٢) .

فعن أنس رضى الله عنه قال : دخل النبى صلى الله عليه وسلم مكة فى عمرة القضاء ، وابن رواحة بين يديه يقول :

خلوا بنى الكفار عن سبيله — اليوم نضربكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله — ويذهل الخليل عن خليله

---

(١) محمد رسول الله ١٩٧/٤ بتصرف .
(٢) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى ٢٣٠/٢ ، دار الفكر العربى ، الطبعة الأولى .

فقال عمر رضى الله عنه : يا ابن رواحه ، فى حرم الله وبين يدى رسول الله تقول الشعر ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "خلى ياعمر ، فهو أسرع فيهم من نضح النبل" ، وفى لفظ : "فوالذى نفسى بيده ، لكلامه عليهم أشد من وقع النبل" (١) .

وعن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لحسان بن ثابت : "أهجهم ، أو هاجهم ، وجبريل معك" (٢) .

وراعى صلى الله عليه وسلم فى تكليفه بالمهام الحربية الأصلح منهم فى هذا الباب ، فكان يستعمل خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص على الحرب منذ أسلما ، ويقدمهما فى ذلك على كثير ممن هم أسبق منهما فى الاسلام . عن حيان بن أبى جبلة ، عن عمرو بن العاص ، قال : "ماعدل بى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبخالد أحدا فى حربه منذ أسلمنا" (٣) .

هكذا كان صلى الله عليه وسلم يستفيد من امكانات أصحابه ومواهبهم ويربيهم على تنميتها ، فكان يضع الرجل المناسب فى المكان المناسب ، ويكلف كلا بما يحسنه ويكون أهلا لذلك التكليف . وفى المقابل كان صلى الله عليه وسلم

---

(١) اسناده قوى . أخرجه الترمذى ٢٨٥١ فى الأدب ، باب ماجاء فى انشاد الشعر ، وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .
وأخرجه النسائى ٢٠٢/٥ فى الحج ، باب انشاد الشعر فى الحرم والمشى بين يدى الامام ، وصححه ابن حبان ٢٠٢٠،٢٠٢١ ، وقال الحافظ فى الاصابة ٨٠/٦ ، وأخرجه أبو يعلى بسند حسن ، وانظر : سيرة ابن كثير ٤٢٨/٣-٤٣٣ ، سير أعلام النبلاء ٢٣٥/١ .

(٢) رواه مسلم فى ٤٤ ــ كتاب فضائل الصحابة ، ٣٤ ــ باب فضائل حسان بن ثابت رضى الله عنه ١٩٣٣/٤ رقم الحديث ٢٤٨٦ .

(٣) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٣٥٠/٩ ، وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط ، والكبير ورجاله ثقات . وانظر : سير أعلام النبلاء ٣٦٩/١ ، الفتاوى ٢٥٥/٢٨ .

شديد الحذر من وضع الأمور فى غير مواضعها ، أو أن يعطى الولاية لمن طلبها أو حرص عليها ، وانما كان يعطيها من رآه كفئا لها وقادرا عليها ، غير حريص على الوصول اليها .

فكان يقول صلى الله عليه وسلم لأبى ذر الغفارى رضى الله عنه : "يا أبا ذر انى أراك ضعيفا ، وانى أحب لك ما أحب لنفسى ، لاتأمرن على اثنين ، ولاتولين مال يتيم" (١) .

وفى رواية : "يا أبا ذر انك ضعيف ، وانها أمانة ، وانها يوم القيامة خزى وندامة ، الا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها" (٢) .

ففى هذا الحديث ينهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا ذر عن تولى الأمارة ، ولو فى اضعف صورة منها كالامارة على اثنين فى سفر ، أو على مال يتيم ، وماذلك الا لعلمه صلى الله عليه وسلم بقدرة أبى ذر رضى الله عنه ومواهبه وقدراته ، وأنه ضعيف عن حمل هذه الأمانة ، ولذا نهاه صلى الله عليه وسلم بذلك الخطاب الملىء بالشفقة والمحبة والرحمة حرصا عليه من الوقوع فى الاثم بسبب الاخلال والتقصير فيما لو تحمل أمرا لايستطيع القيام به . وكذلك مراعاة لحقوق الناس حتى لاتضيع بتولية من ليست عنده القدرة على القيام بتلك المهمة (٣) .

كما أنه صلى الله عليه وسلم كان لايعطى الولاية لمن سألها أو كان حريصا عليها ، ولذا كان يحذر صلى الله عليه وسلم أصحابه من طلب الامارة أو الحرص عليها ، فقد قال

---

(١) رواه مسلم فى ٣٣ ـ كتاب الامارة ، ٤ ـ باب كراهة الامارة بغير ضرورة ١٤٥٧/٣ رقم الحديث ١٨٢٦ .

(٢) رواه مسلم فى ٣٣ ـ كتاب الامارة ، ٤ ـ باب كراهة الامارة بغير ضرورة ١٤٥٧/٣ رقم الحديث ١٨٢٥ .

(٣) انظر : معالم الدعوة فى قصص القرآن لعبد الوهاب لطف الديلمى ١٠٦٥/٢ ، الطبعة الأولى ، دار المجتمع ، جدة .

صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن سمرة :

"ياعبد الرحمن لاتسأل الامارة ، فانك ان أعطيتها عن مسألة وكلت اليها وان أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها " (١) .

ومنع صلى الله عليه وسلم الأشعريين اللذين طلبا منه أن يؤمرهما ، وقال لهما : "انا والله لانولى على هذا العمل أحدا سأله ، ولا أحدا حرص عليه " (٢) .

---

(١) رواه البخارى فى ٩٤ ـ كتاب الأحكام ، ٦ ـ باب من سأل الامارة وكل اليها ١٣٥/٨ رقم الحديث ١٧٤٧ .
ورواه مسلم فى ٣٣ ـ كتاب الامارة ، ٣ ـ باب النهى عن طلب الامارة والحرص عليها ١٤٥٦/٣ رقم الحديث ١٦٥٢ .

(٢) رواه البخارى فى ٩٤ ـ كتاب الأحكام ، ٧ ـ باب مايكره من الحرص على الامارة ١٣٦/٨ رقم الحديث ٧١٤٨ .
ورواه مسلم فى ٣٣ ـ كتاب الامارة ، ٣ ـ باب النهى عن طلب الامارة والحرص عليها ١٤٥٦/٣ رقم الحديث ١٧٣٣ .